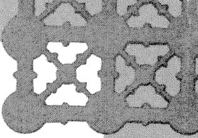
أعلام العرب



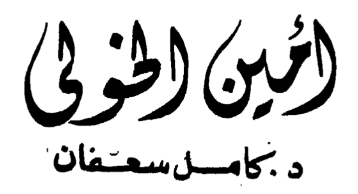
١٠٣

أمين الخولي

د. كامل سعفان



أعلام العرب
١٠٣





١٩٨٢

نشـــأتــه

ولد ـ رحمه الله ـ فى أول مايو سـنة ١٨٩٥ م فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه البـــلاد تستعيد وجـودها ، وتتعرف على حقيقتها ، لتقف على قدميها ، بعد نكسة ثورة عرابى ، وما تبعها من عوامل التمزق الداخلى والخارجى .

كان مولده بقرية (شوشاى) ـ المعروفة باسم (الشيه) ، من قرى مركز (أشمون) ، بمحافظة المنوفيـة ـ لوالـد دخل الأزهر ، وحصل قدرا من المعرفة أهله للحصـول على شـهادة الاعفاء من الخدمة العسكرية ، وهو قدر يتفق اليوم ومستوى التعليم الابتدائى ـ على حد قول أستاذنا (١) الذى كان يذكر من الأسئلة التى سئلها والده فى هذا الامتحان (أعرب : جاء مصطفين) والجملة من الألغاز التى تعتمد على سرعة البديهة ، ويتنـافس الطلاب فى حلها ـ وانتهى أمر الوالد الى الحقل ، يعمل مع الجد الفلاح القح ، القوى البنية ، الذى عمر حتى نيف على المائة .

---

(١) كل ما ورد من أخبار وأحداث تتصل بحياة الأستاذ الخولى ، ولم يسند الى غيره ، فهو له ، من خلال أحاديث أجريتها معه قبيل وفاته ..

وكان الوالـد (ابراهيم) متين التكوين ، ربعـة ، يحب الفروسية ، ويمارس لعبة العصا (التحطيب) ، وضرب النار ــ برغم الزى الأزهرى الذى أخذ نفسه به ــ ويهوى جمع الأسلحة النارية والعصى الثمينة ..

كاد له جماعة من الأعراب الذين اقاموا بالقرية ، وأصهروا الى عائلته ، لخلاف قديم مع الجد (عامر) ، فأحاطت به عصى غليظة ، وهو جالس يتوضـأ من مسيل ساقيه .. ومع أن الدماء كانت تغطى عينيه ، لم يستسلم ، وظل يقـاوم ، حتى اضـطر المهاجمون الى الفرار ، حين خف اليه رجال القرية .. واصر على الرواح سائرا على قدميه ، حتى لايظن به الظن ..

جرأة ... واباء ... وعناد ..

حتى ــ وهو فى مرض موته ــ أصر على ألا يخرج الى الطبيب راكبا ، كى لا يشمت به الشامتون .. اعتزاز .. واخذ بتقاليد الفرسان ، فلا يراه الآخرون فى مظهر ضعيف ..

وعلى مثال خلق الفرسان كان خيرا سخيا ، يسعى الى قضاء حوائج الناس ، مما أكسـبه حبهـم ، والف القلـوب من حوله ..

وقد ظل الوالد حفيا بابنه البكر (أمين) ، حريصا على أن يكسبه الصـدق والصراحة والجرأة ، معنيا بتربيته على أسـاس الممارسـة العملية لشئون الحيـاة .. يقوم على زراعة الحقـل ، ويتصل بالمسئولين فى القرية والمركز لقضاء الحوائج ، ويشترك فى فض الخصومات ، ويجد القدرة ــ بعد أن اختار الله الوالد الى جواره سنة ١٩١٩ م على أن ينهض بأعباء القرية ، بينما هو يستعد لنيل اجازة القضاء .

وكان الأستاذ الخولى يعتز بهذه الأبوة الغالية ، وأصولها حتى آخر أيامه .. التقيت به — فى عام توديعه — ليحدثنى حديثه هذا ، فقال — فى مرح ودود — تستطيع أن تتعرف على سلسلة النسب من (أكمل) — صغيره بالمرحلة الاعدادية وقتئذ ..

فانطلق (أكمل) — فى سرعة — يسرد حبات السلسلة الى الجد السادس :

أمين ابراهيم عبد الباقى عامر اسماعيل يوسف الخولى ..

وضحك الوالد عاليا ، وابتسم الصغير فى ثقة واعتداد ..

ولعله قصد من وراء هذه الطرفة — اذ قل من يعنى بهذا الأخذ القديم فى زمننا ، وبخاصة أهل المدينة — أن يزيح القيود المصطنعة ،ويجعل (البساط أحمدى) ، كما ذكر ..

وقد شجعتنى هذه الروح الطيبة على أن أتنفس بعمق فى رحاب هذا الأستاذ الجليل ، وأن أتناول معه موضوعات ماكنت لأشير اليها من قريب ..

وقد ذكر أن حفظ النسب لم يكن مراد أصلا ، وانما هو حديث مع والده عن الجد (عامر) الذى اشتهر بالعناد والصلابة فى مواجهة (الأغا) ناظر (الخط) ، الذى كان يسوق الناس مسخرا اياهم فى حفر الترع والقنوات بأرضه ، فاذا اشتد بولى الأمر — حينئذ — غضبه ، ضربه بالسوط على رأسه عارية ، فلا يزيده الضرب الا عنادا واصرارا على عدم طاعته ، مرددا قولته المأثورة : (أنت أفندينا وأنا عامر أبو دؤابة) أى ذؤابة ، اذ كان يرخى ذؤابة يعتز بها ..

وقد أعجب الأستاذ بهذه القصة ، فسأل عن (عامر) هذا فقيل ابن اسماعيل بن يوسف الخولى ..

ولكن .. كيف (لاكمل) أن يحفظ هذه (السلسلة) الا أن يكون الوالد قد أراد له هذا بصورة أو بأخرى ؟ ! .

على كل .. فانها بادرة تشير الى أصالة الثقافة العربية ، والتعاطف معها والرغبة فى الابقاء على مظهر كان من القيم الحميدة فى المجتمع العربى ..

ولعل البيئة الدينية التى نشأ فيها ، والمظاهر الاسلامية التى طالعته فى القاهرة القديمة ، وهو يتفيأ ظلالها ، فى منزل جده (بالمغربلين) ، ومسكن خالته (بالدرب الأحمر) .. ويتجول فى جنباتها صباح مساء — لعل هذه البيئة وما شغل به نفسه من تدريس مفاهيم الدين واللغة والأدب — كان داعية الى الاحتفاظ بالنسب ، الفا لهذه العادة ، ورغبة فى أن يغرس فى نفس صغيره حب العروبة فى عادة من عاداتها .

وقد يكون هذا الأمر امتدادا لطبيعة المرح فيه ، التى تنحو منحى المفارقات ، والحاحا على أهمية ما لم يعد فى حسبان الآخرين ..

★★★

أما الوالدة — فاطمة — التى تمتاز بحدة الذكاء واللباقة وقوة الشخصية — فهى ابنة الشيخ على عامر الخولى ، المشهور بالشبهى ، نسبة الى القرية ، على عادة ابناء الأزهر الذين ينتسبون الى قراهم ، تعريفا لهم ، وتعصبا لأقاليمهم ..

وقد أتم الشيخ (على عامر) الدراسة فى الأزهر ، مع تخصص فى القراءات ، واشتغل اماما وخطيبا فى جامع السلطان شاه بعابدين ، مع تدريسه القراءات بالتعيين فى مسجد المؤيد . وكان يسكن فى (زقاق المسك) بالمغربلين .. ومن ثم نشأت ابنته

فى هــذا الجــو القــاهرى ، حتى زفت الى ابن أخيه بشاشاوى ، وعاشت عمرها هناك ..

وانتقل (أمين) الى القاهرة فى السابعة من عمره تقريبا ، ليعيش فى كنف جده (الذى كان أشهر عالم فى القراءات) ــ كما حكى الشيخ السنهورى ــ وفى رعاية خاله الشيخ (عامر على عامر) الذى حصل على (الأهلية) من الأزهر ، واشتغل اماما وخطيبا بمسجد (ايتال اليوسفى) بالخيمية ..

وكان شوق الخال الى الأبناء شديدا ، لأنه لم يعقب ولدا ، ففاض حنانا على ابن أخته (١) ..

كتب الأستاذ الخولى عن صباه الباكر :

(حوالى سنة ١٩٠٢ حمل من الريف ، والقى به فى حجر خالته ، تحت رعاية جــده لأمه ، وعم أبيــه ، فى الوقت نفسه ، وهو شيخ أزهرى ، يعيش هو وابنه ــ خال الغلام ــ وأصــهار لهم كذلك ، خدمة للعلم بالأزهر الشريف ... ودفعوا به لصغره الى مدرسة مدنية ، كانت مرحلة بين التعليم الأولى والابتدائى ولكن جده الشيخ لايكتفى بما كان فى مثل هذه المدارس أو المكاتب من حفظ القــرآن ، فأخــذه بحفظ لوح كبير كل يوم ، حتى يوم الجمعة ، وحفظ القرآن بدءاية وعيادة ، فحفظه متنى تجويــد القرآن (التحفة ، والجزرية) ، وجود له قراءة حفص فى بضعة أشهر ، يقرئه كل يــوم ربعين ، وأخذه فى زمن التجويــد بحفظ المتون ، فى التوحيد والفقة والنحو ، كمتن السنوسية ، والكنز ،

---

(١) تقول الدكتورة عائشــة عبد الرحمن ان الخال انجب بضعة عشر ولدا تكلهم جميعا ، وأخيرا انجب بنتا مات عنها صغيرة ، فعاشت فى كفالة الأســتاذ الخولى ووصايته .

والأجرومية ، والألفية ، وبدأ بحضره دروسا له فى التوحيد وغيره) (١) .. كما علمه مبادىء العلوم والحساب ..

والحقه سنة ١٩٠٧ بمدرسة (القيسونى) التى خلف مسجد (القيسونى) .. وهى من (الكتاتيب) المشتركة التى كان يتعلم بها بنات الأسر العثمانية ، التى تمثل الطبقة الأرستقراطية .. وكانت المدرسة تعد لامتحان الفقهاء والعرفاء، الذين يقومون ــ بعد التخرج ــ بالتدريس فى هذه (الكتاتيب) .

وقد التقى فى هذه المدرسة بالشيخ (محمد الطوخى) ناظرها القوى الشخصية ، الذى كان يمارس نوعا من حياة المغامرة ، اذ كان تاجرا ، ثم حصل على قدر من المعرفة ، وصل به الى نظارة المدرسة .. وكان جريئا ، فاهما للحياة فهما قويا ، له مواقف ذات تأثير كبير فى نفس تلميذه النجيب .. هذا الى أنه استطاع ان يتعرف على قدرات تلميذه ، ويرهف صفاته الطيبة ، وبخاصة الصدق والشجاعة ..

يقول الأستاذ الخولى : حين كانت احدى الاجازات أعددت خطبة ، رآها (العريف) ، فلم تعجبه ، وجاء الشيخ (الطوخى) وقرأها ، وأبدى اعجابه .. ثم أوقفنى على المكتب ، ودعانى أخطب .

وحين انتقلنا من (درب الأغوات) الى حارة (المردانى) بعمارة (حمزة بك) ــ وكانت مدرسة (خواند بركة) تشركنا نفس العمارة ــ امطرت السماء ، فذهب المدرسون الى حيث يحتمون من المطر ، وبقينا فى الفناء .. فقلت قولا معيبا فى الشيخ (أمين الجندى) ــ ناظر (خواند بركة) ــ وعلم بالقول فأخبر

---

(١) مجلة الأدب ــ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م .

الشيخ (الطوخى) ، واعترفت بما قلت ، فسامحنى الشيخ (الجندى) لصدقى ، وضربنى الشيخ (الطوخى) تهذيبا لى وترضية للشيخ (الجندى) ..

ولما زار المدرسة الأستاذ عبد العزيز جاويش المفتش الأول للغة العربية اشتبك مع الشيخ (الطوخى) فى جدال ، أدى الى استقالته من الوظيفة ، وافتتح قسما فى مدرسة حرة ، اسمها (المحروسة) ، فتحول معه عدد من الطلاب ، وبينهم تلميذه (أمين) ..

ولم ينجح الشيخ (الطوخى) فى عمله الجديد ، فاقتصر على (المأذونية) التى كان يشغلها من زمن ، ولكنه لم يبتعد عن تلميذه ، لأنه كان صديقا لخاله الشيخ (عامر) ، كما كان على علاقة قوية بأهله ..

اذا كان (أمين) قد حفظ القرآن سنة ١٩٠٥م وكانت لديه الفرصة - قبل الالتحاق بمدرسة (القيسونى) - ليجود القرآن ، ويحفظ (المتون) ، ويحضر على جده أوائل دروس الأزهر - فان هذا الجهد من الجد كان تأهيلا لدخول صغيره الأزهر ، حتى يصبح صورة منه ومثلا يرتضيه ..

لكن (الفتى) كان زاهدا فى الأزهر زهدا كبيرا ، لا لأن الزى الأزهرى لم يكن محببا اليه - وقد كان يحضر فى المدرسة بالزى المدنى (افندى) .. ولا لأن طلاب الأزهر كانوا يحضرون دروسهم جالسين على الحصر ، بينما يجلس طلاب المدارس على مقاعد خشبية .. ولا لأنه كان مختلطا (بالمجاورين) من أبناء القرية ويرى من عاداتهم وأحوالهم المعيشية المقفرة ، فينفر أشد النفور وان كان مضطرا الى اصطحابهم تخفيفا من اعباء الدراسة ، اذ كان (الجد) لا يفتأ يختبره فى القرآن و (المتون) ، فاذا كان يوم الجمعة خرج معهم يزورون (المشايخ) ، ويجوبون القاهرة

على الاقدام فى غير طائـــل ٠٠ ولا لأنه كان يرى من حيـــــاة المدنيين ما يزيده رغبة فى المظاهر التى تطالعه من خلال العثمانيين الذين تغص بقصورهم المنطقة التى نشأ فيها ، ومن خلال السلطة المدنية التى تأخذ زينتها وأبهتها فى المناسبات المختلفة ــ ولكن. الى ذلك .. كان الشيخ (محمد السكرى) ــ الذى يسكن بيت خالته ــ مدرسا بمدرسة (الحسينية) ، وهى مدرسة ابتدائية ، فيهـا قسم (للحفاظ) ، تقع أمام باب (الحسين) الغربى ،و تتبع احدى الأميرات ، وكان أخوه (عبد الكريم السكرى) ــ ترب (أمين) ــ يتعلم فى مدرسة (خليل أغا) ، وهى أيضا مدرسة ابتدائية بها قسم للحفاظ ٠٠ واذ كان بين الصغيرين ألفة ومودة كما أن عبد الكريم يعطى صورة القدوة ، لأنه كان ينتسب الى الحزب الوطنى ، ويطبع مع زملاء يكبرونه جريدة على (البلوظه) فقد ازدادت رغبة (أمين) فى الالتحاق بالمدارس المدنية ليصبح مديراً (١) ، كما قال لوالده ذات يوم وهو بسبيل التأثير عليه ٠

ولجأ الى الشيخ (محمد السكرى) يســتعين به ليلتحق بمدرسة (الحسينية) ٠٠ وتحققت رغبته بعد أن أدى اختبـارا يسيرا ٠٠

وأصر الجد ، وهدده بأن (من ترك القرآن فلن يفتح الله عليه ٠٠ ولم يقنعه ما فى قسم الحفاظ بمدرســة الحسينية من تمسك بالقرآن ٠٠

---

(١) كان منصب المدير فى ذلك العهد ، أكبر مناصب الاقليم (المديرية) ، ويطلق عليه الآن (المحافظ) ، ولم يكن أبناء الشعب فى الأقاليم يرون منصبا أعلى منه ٠ ويروى الأستاذ ــ تندرا ــ قصة ذلك الريفى الذى حظى بلقاء الخديو فى زيارة لعاصمة المديرية ، فدعا للخديو بأن يرفعه الله الى منصب مدير (تعليق الدكتورة عائشة عبد الرحمن) ٠

وأبى الغلام أن يحمل محفظته ويذهب بها مع مجاورى بلده الذين كان منهم من يسكن فى بيتهم ، ولم يقاوم الاب رغبة عمه الجد ، وانقطع الطريق الى الحسينية ..

وهام الغلام على وجهه فى الشوارع التى كان يرى فيها غلمانا فى سنه يغدون ويروحون بعمائم صغيرة ، وجبب وقفاطين أيضا لكن لايذهبون الى ناحية الأزهر ، بل يسيرون الى الجنوب ، حين يوجد الأزهر فى شمال مسكنه ، عثر فى جولاته بمفرده على المدرسة الالهامية ، وفيها تلامذة مشايخ) (١) ..

ورأى أن يجمع بين العمامة والدراسة المدنية ، ليستعيد رضا الجد والوالد ، وليحقق ارادته ، ويرضى نزعته ..

ومن ثم اتجه من تلقاء نفسه الى المدرسة الالهامية .. فاستقبله الناظر استقبالا حسنا ، بعد أن اطلع على معلوماته ، لكنه أبدى أسفه لعدم تحقيق رغبته ، اذ ان المدرسة فى فترة تصفية ، تنتهى بعدها الى مدرسة ثانوية مدنية ..

فاتجه الى مدرسة (عثمان باشا ماهر) فى شارع (قره قول المنشية) بمنطقة « السيوفية » ، وهى مبنى معد أجمل اعداد ، مزود بفناء كبير ، وفصول منظمة ، وفيها مكتبة حافلة .. وكتب (استمارة التحاق ، موقعا فى مكان ولى الأمر باسم جده) .

واجتاز اختبار شفويا بتفوق ، فقد كانت المدرسة تقبل من يحفظ القرآن ، وله المام بالحساب ، وصاحبنا كان قد تعلم فى الرياضة حساب المائة والربح البسيط والمركب والنسبة والمساحات والحجوم ، وفى الاملاء والعلوم قدرا كان يدرس فى حينه لأمثاله ،

---

(١) الأدب ــ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م .

بالاضافة الى ما شغل نفسه به من القصص الشعبية التى كانت تباع بقروش زهيدة يوفرها من الملاليم التى تجتمع فى يده آخر الأسبوع .. ومن ذلك ــ ما ظلت تعيه ذاكرته ــ قصة تمدن الفلاح ، والقط والفأر ، والسلك والوابور .. ويقول ان شعبيتها لا ترجع الى جهل بمؤلفها ، ولكن الى طريقة تناولها وتقديمها للجمهور ..

واهلته معارفه ومستواه فى الامتحان لدخول السنة الرابعة فى الوقت الذى كانت الدراسة بالمدرسة خمس سنوات ..

وقد طلب دخول السنة الثالثة ليكون له الحق فى دخول مدرسة القضاء ، التى كانت تشترط أن يقضى الطالب فى هذه المدرسة او فى الأزهر ثلاث سنين ، لكن الناظر رفض أن يعدل به عن السنة الرابعة الى الثالثة .

ودرس فى هذه المدرسة الكتابين الثالث والرابع فى النحو لحفنى ناصف وحمزه فتح الله ، وهما لايبعدان كثيرا عن شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك .. كما درس خلاصة متن التخليص فى البلاغة لزكريا الأنصارى ، وقدرا من التاريخ والجغرافيا على خرائط انجليزية ، اذ ان الخرائط العربية لم تظهر الا سنة ١٩١٠ ، واخيرا أعطته المدرسة شهادة تقول :

(تشهد مدرسة المرحوم عثمان باشا ماهر بأن التلميذ أمين ابراهيم الخولى أمضى بها ثلاث سنوات بصفته طالبا متعلما وأنه لم يسبق الحكم عليه بأمر يخل بالشرف) ..

يقول الأستاذ الخولى :

(وكان زميلى السنة الرابعة الأستاذ أحمد زكى صفوت ، الذى كان الأول على الفرقة ، وكنت الثانى ، فلما دخل دار

العلوم أول السنة الخامسة صرت الأول عند التخرج ، واتجه اخوانى الى القضاء ، وأردت الذهاب الى دار العلوم) متعللا بأنها ترسل بعثات الى الخارج ، على حين كنت أريد الهروب من مدرسة القضاء الشرعى – مع أن هواى معها – لأنها تفصل من يرسب بها (١) ..

ولكن الشيخ (عبد الرحمن خليفة) – المدرس بمدرسة عثمان باشا ماهر ، وكان أديبا يقول الشعر – شجعنى على دخول القضاء ، بحجة ان من هم أقل منى تفوقا اجتازوها بنجاح) ..

ودخل امتحان القبول : شفويا فى القرآن كله والمطالعة ، وتحريريا فى الفقه والنحو .. وكانت سنه وقتئذ (خمسة عشر عاما وخمسة اشهر وستة أيام) على حد قوله ..

فى مدرسة القضاء الشرعى :

(ومال التطور به ميلة ليست بالحقيقة ، وان كانت الى تجربة فى جمع الثقافتين ، الدينية الشرقية والمدنية الغربية ، والخروج بمزيج منهما ، تجد فيه مصر المتطورة ذاتها ، وتحتفظ بشخصيتها التى يجهد المستشار الانجليزى (دانلوب) فى وزارة المعارف لاخفائها منذ أعوام طويلة ..

كانت قافلة التطور تسير ، مع صراع عنيف بين الثقافتين ، تبدو فيه مناظر مضحكة ، من نوع (المساخر) ، يرتكبها مفكرون احرار كبار .. فحتى يونية سنة ١٩١٥ م كان صاحبنا – أمين الخولى – مع الذين يحلقون لحاهم ، حتى لا يظهر فيها من الشعر

(١) علقت الدكتورة عائشة عبد الرحمن على الخبر بقولها : (ما اتصور وقد عرفته كما لم يعرفه سواى – انه اشفق من احتمال الرسوب ، او ادخله فى حسابه) ، ولكن الأوهام كثيرا ما تتجسم فى هذه المرحلة من العمر ، وكبرياء الشباب كثيرا ما تصل بصاحبها الى أقصى الطرفين ..

أطول من نبات يوم واحد ، وفى أكتوبر من السنة نفسها صار صاحبنا مع الذين يجب أن يكون فى لحاهم نبات أسبوعين على الأقل ، والا عوقبوا) (١) ..

.. لكن هذه (المساخر) لم تكن لتقلل من الدور الذى نهضت به مدرسة القضاء الشرعى ـ التى أنشئت سنة ١٩٠٧ م ـ ليتلقى الطلاب (التجربة السياسية والعلمية والاجتماعية التى أرادتها مدرسة الاصلاح الدينى الحديث ، من شيعة (محمد عبده) . وعلى رأسهم (سعد زغلول باشا) ، فأرادوا فى السياسة تجربة استقلالية مصرية ، فى معهد لا تمتد اليه يد أجنبية ، ويتولى أمر نفسه فى استقلال ادارى وثقافى لاصله له بوزارة المعارف ، ومستشارها العتيد اذ ذاك ، كما أرادوا تجربة علمية تلتقى فيها الثقافتان القديمة والحديثة ، والشرقية والغربية ، التقاء معتدلا رزينا ، لا تجور فيه واحدة من صاحبتها . ولا تنكر واحدة منها أختها .. وأرادوا مع ذلك تجربة اجتماعية فى الاصلاح بالقدوة والمثل ، ليشهدها المجتمع ، فيرى ويسمع ويعى) (٢) .

وان كانت هذه المدرسة تفرض على طلابها الذين انتهوا من المرحلة الثانوية ان يعفوا اللحى ، فما ذلك الا ليكون إبناء المرحلة العالية أقرب الى الوقار ، تأهيلا لمنصب القضاء ..

وكانت الدراسة فيها ـ كما يقول الأستاذ الخولى ـ فوق مستوى المدارس الثانوية فى المواد المدنية ، الا ان الدراسة جميعها كانت باللغة العربية ..

---

(١) الأدب ـ ديسمبر سنه ١٩٦٤ م .

(٢) هل أدى الأزهر رسالته الاجتماعية ـ جريدة المصرى ١٩٥٢/٤/٢٨ م

كان يدرس الجبر والهندسة النظرية والفراغيةوعلم الهيئة ومبادىء الفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا . بجوار أصول القانون ، وشرح لائحة المحاكم الشرعية ونظام المرافعات ، والتفسير والفقة والحديث والتوحيد ، هذا سوى النحو والصرف والأدب .

وقد اختار سعد زغلول – ناظر المعارف – لهذه المدرسة التي أولاها عنايته (ناظرا من أكفأ الناس وأقربهم اليه ، وهو عاطف بك بركات ، واختار هو والناظر خيرة المدرسين من كل نوع من أنواع التعليم ، كما استعان بخبرة علماء الأزهر ليدرسوا العلوم الدينية .. فكنت ترى مزيجا من الأساتذة .. هذا شيخ أزهرى تربى تربية أزهرية بحته ، ودنياه كلها فى الأزهر وما حوله أستاذ للتاريخ على آخر طراز ، تخرج فى جامعات انجلترا ، وأستاذ للطبيعة تخرج فى أشهر جامعات فرنسا ، وعلى رأسهم ناظر تعلم فى الأزهر وفى دار العلوم وفى انجلترا . وكل من هؤلاء يلون طلبته بلونه ، ويصبغهم بصبغته ، ويعلمهم على منهجه ..

فكنت اذا أصغيت الى درس من الدروس ، فكأنما تصغى الى درس يلقيه مدرس من القرون الوسطى ، فيما يقال ، ثم يليه درس تسمعه فكأنما تسمع درسا فى جامعة أجنبية ، لا يفرق بينهما الا أنه يلقى باللغة العربية ... ثم تنتقل من ذلك الى درس له شبه من هذا وشبه من ذاك ، فموضوعه من موضوعات القرون الوسطى ، ومنهجه منهج حديث .. وكذلك المدرسون فى عقلية قديمة لم تسمع عن شىء اسمه الجغرافيا ، ولا تعرف أن الدنيا قارات خمس ..

اراد بعضهم أن يتظرف ، ويبين انه رجل عصرى ، فقال الدنيا تنقسم الى ثلاثه أقسام : آسيا وأفريقيا وقارة ...

يقدسون ماورد فى الكتب حتى الخرافات والأوهام ، ومن أقوى حججهم على صحة الرأى أنه ورد فى كتاب من الكتب القديمة .

وعقلية حديثة على اخر طراز ، جالس اصحابها أرقى الأساتذة الأجانب ، واستفادوا منهم ، وعاشوا فى المدنية الغربية ، وعرفوا آخر نوع من طرازها ، وليس عندهم فكرة مقدسة الا ما قام البرهان على صحتها ، ودلت التجارب على ثبوتها . .

وبين هذين الطرفين انواع من الأساتذة يأخذون بحظ منهما قل او كثر . .

وفى هذه البوتقة المكونة من هذه العناصر كلها وضع الطلبة ليأخذ كل منهم حظه حسب فطرته واستعداده ، وأحيط كل هذا باطار خلقى يشرف على تنفيذه ناظرها : يلتزم النظام الدقيق ، ولا يسمح بالخروج عنه قيد انملة . . ان دق جرس الصباح أغلق باب المدرسة ، ولا يدخلها طالب ، وتحرك الأساتذة فورا الى دروسهم ، ويذهب الطلبة أول العام الدراسى فيجلس كل فى مكانه ، ويفتح درجه ، فاذا فيه كتبه وأدواته جميعها ، لا ينقصها شىء . .

وعدل فى معاملة الطلبة والأساتذة ، لا ينحرف ، فمن نجح من الطلبة فبالعدل ، ومن رسب فبالعدل ، وان رقى أستاذ فبالعدل ، لا يقبل فى ذلك رجاء ، ولا شفاعة . . وكل طالب معروف لأساتذته وناظره ، ولكل طالب صفحة فى سجل كبير أمام الناظر ، قيد فيها اسم الطالب والأخطاء التى ارتكبها ، والعقوبات التى وقعت عليه ، والمكافآت التى نالها ، فمن أخطأ خطأ جديدا ذهب الى الناظر ففتح صفحته ، وعرف مكانته . .

ونظافة فى المدرسة بالغة أقصاها .. حريقة جميلة رسمت رسما بديعا ، وملئت بالأزهار الجميلة ، وحركة مستمرة من الخدمة فى تنظيف مستمر ..

فى هذا الجو كله وضع الطلبة ؛ واشتهرت المدرسة فى مصر، يزورها كبراؤها ، وفى العالم الشرقى يؤمها عظماء الوافدين المعنيين بشئون التعليم والراغبين فى الاصلاح) (١) ..

وفى عاطف بركات باشا القوى الشخصية ، الواسع المعرفة، الجم النشاط الشديد الاخلاص ، وجد الطلاب الأب والرائد الذى يعدهم للوطن دعائم قوية ..

كان بالمدرسة أكثر من أربعمائة طالب ،ومع معرفته شئونهم ومراقبته سلوكهم ، واشتراكه فى حل مشكلات كل منهم ، وتبصيره بواجبه — كان يثير بينهم موضوعات للبحث ، ويقترح مجالات للنشاط ، ويعمل مسابقات فى القراءة الصيفية ، ويجزى بمكافآت سخية ..

كان طابع سلوكه الواضح اشعار كل فرد بأنه الساهر على مصلحته الخاصة ، وكانت لديه القدرة على اشعار كل واحد انه أبوه .. وكان حريصا كل الحرص على دفع أبنائه إلى الاعتداد بالشخصية ، والثقة بالنفس ..

دخل عليه طالب متهيبا ، فطرده ، وقال : (ادخل على رجلا) وتكرر الطرد والدخول احدى عشرة مرة ..

واذ كان الطلاب يتناولون وجبة الغذاء بالمدرسة ،

---

(١) حياتى لاحمد أمين ط ٣ سنة ١٩٥٨ — ص ٩٦\٩٩

ويتقاضون كل شهر جنيها ونصفا ، فقد كان يحرم الراسبين والذين لا يحفظون القرآن من المكافآت ، ويوزعها على المتفوقين ..

كان مؤمنا بعمله .. يقدمه على كل شيء ..

عرضت عليه وظائف كبرى مختلفة ، فرفضها ليباشر هذا الحقل التربوى الذى كان يفسح فيه لنمو الشخصية الى أقصى حد ..

يقول الأستاذ الخولى : كان ثمة اعلان : (ممنوعة القراءة بعد الغداء) .. ورآنى فى الفناء أقرأ فى كتاب (الصناعتين) لأبى هلال العسكرى ، فسار فى هدوء حتى أصبح الى جانبى ، وقال : ألم تر الاعلان ؟ فقلت : (قبل ان تطلب الى الا أقرأ ، أغلق المكتبة) ، فطلب ازالة الاعلان فى الحال . .

وشكونا اليه — ونحن فى نهاية القسم الثانوى — مدرسا مهملا عنيف السباب .. فحضر فورا الى الفصل ، واستأذن من المدرس ، ثم قال : المدرسة ليست الناظر ولا المدرسين ولا المبانى ، بل الطلبة فقط .. وانا لا أعاقب احدكم الا كارها ، حرصا على مصلحته . .

وطلب الينا أن نتمسك بحقنا فى الاستفادة من الأستاذ ، وعد نفسه الملوم لحدوث شيء دون علمه ..

ولقد قال عنه الأستاذ احمد امين فى حفل تكريمه بعد عودته من سيشل — منفاه —

مساء الجمعة ٦ يوليه سنة ١٩٢٣ م :

(عرفته صديقا للحق ، يناضل عنه بكل ما آوتى من قوة لا يبالى من يكون خصمه ، مهما عظم ، حتى لقد عادى فى ذلك من كانت تحنى الرؤوس اجلالا لاشارته ، وطوعا لأمره .. وهو فى دفاعه عن الحق صريح شديد ، لايدارى ولا يمارى ، ولا يعنى بطلاء الشكل عنايته بجوهر الموضوع ، حتى ليؤلم أحيانا ، ولكنه لا يلبث هذا الألم أن ينقلب حبا واعجابا وميلا الى التقليد ..

يسلط علينا نفسه فيصهرنا ، ويصبنا فى قوالب تتخذ أشكالا هى تقليد لشكله) (١)

يقول : (كانت ميزة له في عقله قوة التحليل ، وسلامة التفكير ، وحرية الرأى ،وقوة الحجة ، والالحاح فى الاقناع ، وسعة الصدر للرأى المخالف .،. وكانت حريته فى عمله ، فهو فى اصلاحه متحفظ ، يقدر كل الظروف المحيطة ، ويعمل فى حذر ، وأكبر ميزة له فى خلقه أداء الواجب ، من غير أى اعتبار آخر ، وعدله التام ، ولو لقى فى ذلك العناء ، فى بلد تسره المجاملة ولو بالظلم ويفرح بالوعد ولو بالكذب ، وحبه للنظام الدقيق ، فكان يشيد بذكر (كانت) اذ كان يرى أداء الواجب لذاته ، واذ كان الناس

---

(١) مجلة القضاء الشرعى ــ عدد ١٢ ذو الحجة سنة ١٣٤١ هـ

وقد علقت الدكتورة عائشة عبد الرحمن على (عملية التقليد والصهر فى قوالب) بقولها :

سمعت الأستاذ الخولى يعلق على هذا بان عاطف بركات كان يربى شخصيات طلابه ، ويكره ان يكونوا نسخا منه أو من سواه ويرفض التقليد ، وان أكبر القدوة .. ولاحظت أن الأستاذ أحمد أمين نوه فى تأبين عاطف بركات بحرصه على أن يعود طلابه الاستقلال فى الفكر والعمل .

يضبطون ساعاتهم على موعد خروجه ، وصدق فى القول حتى لم يأخذ عليه طالب ولا أستاذ كذبة ..

..ان عيب عليه شيء ، فهو قلة مجاملته حتى حيث لا تضر المجاملة بالخلق ، وصراحته التى قد تحرج ، فى موقف لا يدعو الى الصراحة فيه دفاع عن حق ، ثم نظامه العسكرى فى غير ترفيه) (١) ..

ولهذا التكامل الخلقى والعلمى والادارى ظل الأستاذ الخولى يذكر (عاطف بركات) فى اعتزاز وتقدير وحب .. فقد كان له أبلغ الأثر فى تكوين شخصيته ، ودفعه الى المثل العليا ينشدها ، ويأخذ بأسباب تحقيقها ..

★★★

ولقد مارس (أمين) فى هذه المدرسة الوانا من النشاط الأدبى والسياسى .. ففيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٧ م تكونت بالمدرسة جمعية اخوان الصفا ، من مجموعة متفاهمة من الأصدقاء عبد الوهاب عزام ، ومحمود أبو بكر حسن ، ومحمد أمين السمالوطى ، ومحمد عبد الرحمن الجديلى ، وحلمى خاطر ، وطه نجاتى ، وأمين الخولى ..

وشغل أعضاء الجمعية بالمسائل الأدبية والفنية، واتجهوا الى تعلم اللغات الأجنبية بمدرسة فرنسية بباب اللوق ، واكتسبوا الكثير من الخبرات والمعارف عن طريق التبادل الفكرى والمناقشات الحرة .

وكانوا يجتمعون فى بيت أحدهم أسبوعيا ، فى ندوة تمتد من الغداء الى المساء ..

---

(١) ص ٢١٧ و ٢١٨ حياتى لأحمد أمين .

هذا الى أن الأستاذ الخولى ـ كما روى صديقه الشيخ فرج السنهورى ـ كان ـ خلال مدة الطلب بالمدرسة ـ على اتصال مستمر بمكتبة (عم حسنين الكتبى) الذى كانت له مكتبة فى درب الجماميز ، أشبه بالقبو ، تضاء بذبالة واهنة .. فكان بعد انتهاء اليوم الدراسى يصحب صديقه السنهورى الى هذه المكتبة ، ينقب فيها ، ويشترى بأى ثمن ، لا يبـــالى ما دام يمتلك هذا الثمن ، وكان وجوده فى رعاية جده وخاله يوفر عليه ما يثقــل زمــلاءه النازحين من الريف ..

وكان كذلك عميلا دائما لكتبى متجول ، كان يحمل أسفاره الى المدرسة خلال (الفسحة) .

ولقد بلغ شغفه بالأطلاع أن يكتب على الحجرة التى كان يسكنها فى بيت جده (هنا دواء النفوس) بخط بارز .. (١)

وفى حديث مع صديقه السنهورى عن قيمة وجود الانسان فى الحياة وضرورة فعاليته تعاهدا على أنه اذا جاوز أحدهما الثــلاثين ولم يكن له عمل نافع وجب على الآخر أن يقتله ..

---

(١) اضافت الدكتورة عائشة عبد الرحمن ان الأستاذ الخولى كان يطلق على حجرة المكتبة فى البيت : (المعبد) ..

مع المسرح

وفى هذه الفترة عالج الكتابة المسرحية ، وكانت أول الفنون الأدبية التى أخذ نفسه بها ، على غير عادة الناشئة، يبدءون بمعالجة الشعر أو القصة ، نظرا لأن العمل المسرحى يحتاج الى دراسة ونضج فنى وخبرة بالحياة ، حتى تتوفر للكاتب المقومات الأساسية لكتابة المسرحية ..

وقد مثل له (اخوان الصفا) مسرحية (أسيرة عمورية) فى نادى المدرسة نهارا ، وبلا ملابس ، كما قرئت مسرحية (الراهب المتنكر) فى احدى ندوات الجماعة ..

ولقد سألت الأستاذ الخولى عن سبب اشتغاله بهذا الفن اول الأمر ، مع أن البيئة التى تحيط به آنذاك لم تكن تهيىء له .. فقال : كان الابتداء بالمسرحية صدى لحب المسرح .. وأول مرة دخلت فيها المسرح كان سنة ١٩١١ م ، ورايت (جورج أبيض) فى (تياترو الأزبكية) القديم يمثل (لويس الحادى عشر) ، واستولى على هذا الممثل الكبير باجادته الفائقة ، مما لفتنى الى اهمية العمل المسرحى وعظمته ، تأليفا واخراجا وتمثيلا ، وأن العمل الأدبى فيه أبرز منه فى القصة ، وبخاصة أن القصة ، لم تكن شيئا يذكر .. (١)

---

(١) أضافت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أنه :

ظل طول حياته ، يحب المسرح . وقلما كان يذهب الى السينما الا أن يكون (الفيلم) ذا قيمة ، على حين لم يكن يدع فرصة تفوته ، وبخاصة فى رحلاتنا كل صيف الى أوروبا ، لشهود المسرح ، وحيثما عرضت هنا بمصر مسرحية هامة ، بادر الى مشاهدتها .

وكان قد ذهب الى المسرح نزولا على راى صديق ، الح عليه اشد الالحاح ، فلم يكن ليذهب الى المسرح بمحض ارادته ، والوسط الذى يعيش فيه يؤمن بأن العزف حرام ، بل أن حضور (الموالد) كان شبه محرم مثله ، لما يحدث فيها من بدع ومنكرات .. وحين رغب الى خاله ـ ذات يوم ـ في حضور (مولد الحسين) سار به من بعيد ، ليرى مواكب تتحرك فقط ..

ولكن .. بعد رؤية العمل المسرحى العظيم المناقض لما ترسب فى نفسه عن المجتمعات المحفلية ، زاد اكباره للمسرح ، واصبح هوايته ، فكان يذهب الى المسرح أربع مرات فى الأسبوع .

ولقد حفزه الى الكتابة المسرحية ميل قديم الى القصص والتاريخ .. ولم تقف قراءته عند القصص الشعبية التى يشتريها بالقرش والقرشين ، أو كتب التاريخ التى وجدها فى مكتبة جده ، مثل كتاب (ابن زينى دحلان) فى التاريخ العام ، الذى يحوى الكثير عن الملوك والسلاطين ، ومثل كتاب السيرة للشيخ شاكر ، بل كان يقرأ الشعر مثل كتاب الجوهر النفيس فى أشعار الامام محمد بن ادريس الشافعى المجموع سنة ١٩٠٣ ، كما كان يذهب الى دار الكتب وينهل من مناهلها .. وكثيرا ما منعه بواب الدار الدخول لصغر سنه ..

ومما لاشك فيه أن بريق النهضة التمثيلية حينئذ كان يخطف الأبصار ، مع أن العهد بالتمثيل جد قريب .. (١)

---

(١) بدأ من التمثيل يظهر فى الاسكندرية سنة ١٨٨٠ م على أيدى أديب اسحق وسليم رمادون النقاش وانطون الخياط ، وكانت فرقة الخياط تقدم الوانا بسيطة من المسرحيات فى سرادق بالمنشية .. وقد ترسم آثارهم فى القاهرة القرداحى وسليمان الحداد وأبو خليل القبانى الذى قدم الى مصر على رأس فرقة تمثيلية من دمشق ، هاربا من قسوة الأتراك ، وقدم لونا جديدا من المسرحيات =

واستجابة لهذه النهضة بدأ (أمين الخولى) محاولاته المسرحية سنة ١٩١٣ م ، بعد ان انطبعت فى نفسه صور كثيرة مؤلمة للحياة الشرقية بأكاذيبها وأوهامها ، مرتبطة بآفات الحجاب ، وتحكم

= يخالف مسرحية النقاش المترجمة ومسرحية أبو نضارة المقتبسة ، اذ كان يستلهم موضوعات مسرحياته من التاريخ العربى والاسلامى ، وجعل الغناء والعزف عنصرا هاما فى المسرحية ، كما أدخل الرقص الايقاعى فى بعض مشاهدها .. وجاء سلامة حجازى فشاد مسرحا غنائيا ، اعتمد على صوته مغنيا ومنشدا .. الى جانب فرقة (جورج أبيض) التى تزعمت المسرح الدرامى ، ومثلت لكبار المؤلفين ، وحظيت باعجاب الجمهور .. و (الجوق الدمشقى) لنقولا مصابنى ، وكان يقدم المسرحيات الهزلية والغنائية والرقص السورى .. و (شركة التمثيل الأدبى) لسليم وأمين عطا الله .

والجوق السورى الجديد .. ومجتمع التمثيل العربى ، وفرقة عزيز عيد . والجوق المصرى العربى للشيخ أحمد الشامى . فضلا عن نشاط الهواة الذين ألفوا فرقا عديدة كان لها أثر كبير على نهضة الفن ، مثل جمعية محبى التمثيل ، ومحفل الهلال الأدبى والمجتمع الأخوى التمثيلى ، وجمعية النشـاط الوطنى ، ثم جمعيه أنصار التمثيل التى كانت تهدف الى ارسـاء قواعد الفن الصـحيح ، وتثقيف الشعب عن طريق المسرحيات الموضوعة التى تدور حول فكرة خاصة تهم الجمهور ، وتعبر عن بعض أحاسيسه ، أو تحل طرفا من مشكلاته .. وكان لبعض المدارس والجمعيات والنوادى فرقها التمثيلية التى لعبت دورا لا بأس به فى ميدان المسرح .

وفى ذلك الحين ظهرت محاولات فى النقل والتحوير ، وأحيانا الابتكار فى التأليف المسرحى ، على نحو ما فعل محمد عثمان جلال وغيره فى نقل المسرحيات الفرنسية ، وبخاصة كوميديات موليير التى تماشى المزاج المصرى المولع بالفكاهة والنكتة اللاذعة ، كما وضعت بعض المسرحيات المشتقة من التاريخ ، وتخللتهـا مقطوعات غنائية مجاراة للمزاج المصرى ..

ووقف الى جانب روايات شكسبير وموليير وغيرهما روايات عربية جيدة التأليف مثل (مصر الجديدة) لفرج أنطون (أول رواية انتزعت من حالتنا الحاضرة ، ومثلت على مسرحنا الحديث) و (مقاتل مصر أحمد عرابى) للأستاذ العبادى ، و (أبطال الحرية) لأنطون الجميل و (أزواج شريرة) لنسيم الجاهل ، (بنت الخليفة) لابراهيم رمزى ..

الرجال فى النساء ، ومكايد النســاء للرجــال ، وما يــدور خلف الحجاب من تهتك وضياع ..

(وما تزال حتى اليوم صور النساء العاريات فى الحمامات العامة ، وأحاديثهن المختلفة العارية ــ حية فى ذاكرتى ، مع أن ذهابى الى هذه الحمامات ــ مع قريبة لى ــ كان قبل السابعة من عمرى) ..

ويصور لنا ادراك نســـاء الجيل لحقيقة الصــدق والكذب بقوله :

(سرت مع سيدة من العائلة ، فالتقينا بأخرى سألت عن خالى ، فانكرت قريبتى وجوده فى البيت ، مع قولها : « ان شاء الله » فلما جابهتها بالكذب قالت : لقد قلت : ان شاء الله !!) ..

ولذا نجده ينظر الى المرأة فى ذلك الجيل على انها أقرب الى الخطأ منها الى الصواب ، ثم يستدرك قائلا :

عناصر الضعف فى الناس عامــة ، ومظــاهرنا تختلف عن حقيقة ما يختلج فى نعوسنا كل الاختلاف .. واذا كنا نستطيع أن نزيف مشاعرنا بالحركات والتصرفات المهذبة ، فان لحظات كثيرة تمر بالكائن البشرى فتكشفه على حقيقته .. ينقض ليفترس وينتهك أو يعرى فى خســة ولؤم وخــداع .. وعلى ذلك فلا لوم ولا عتاب على من يخطئون ، لأن هذا هو واقعهم ، ولكننا نكبر من يسيطر على شهواته ، ويتحكم فى انفعالاته ، ويتمسك بالقيم الخيرة والمثل الكريمة ..

ولقد كان لهذه الانطباعات القاسية أثرها فى مجالسه وأحاديثه الخاصة ، لا فيما يدون ، لأن الكلمة المدونة تحكمهــا اعتبــارات

مختلفة ، ومن ثم يزنها بميزان خاص ، ويخشى فيهـا كلمـة التاريخ ..

ومن هنا كادت محاولاته الأولى ـ التى تتسم دائما ، فى أعمال الكتاب ، بالاندفاع والميل ـ أن تخلو من هذه القسوة ، وتجلت فيما حاول من أعمال مسرحية رغبة قوية فى الاصلاح ، وابراز ما فينا من عناصر كريمة ، حتى لا يغلبنا اليأس على أمرنا ، بينما التيـارات الغربية تهب علينـا بريحها النتن فتفسـد من بقايانا الطيبة ..

★★★

ومسرحية (جريمة الآباء) أولى محاولاته ، بطلتها تلك السيدة التركية التى كانت تسكن فى حى (النبـوية) بجوار مسـكن (المؤلف) .. ومع ما كانت تتمتع به من جمال . فان زوجها كان سيء السيرة ، مما أدى الى فصله من العمل ، وظلت الزوجة تقاسى فى بيته شظف العيش وسوء المعاملة ، والضيق برجل لاتحبه ، فقد أرغمتها على الزواج منه زوجة أبيها التى حرصت بعد ذلك على أن تدس وتكيد لها عند أبيها ، حتى حرم عليها دخول بيته ..

وأصيبت بالسـل ، وهى تعانى من زوجهـا الذى يزداد مع الأيام قسوة وعنتا .. وبلغ بها المرض مرحلة الخطر ، وهى جاهلة بأمره .. وجاءها أبـوها وهى تموت ، فتـألم أشـد الألم لما أصاب ابنته ، وادرك أنه فرط فى حقهـا .. واراد أن يكفر عن خطيئته ، فأوى اليه ابنتها ، وقام على تربيتها ، ورعايتهـا خـير رعاية ..

ومسرحية (ابن العمدة) التى (يسدل ستارها على هتاف مصر للمصريين ، يحيا الاستقلال) - يتمثل الصراع بين الخير والشر بين واقع نعيشه ، وأمل ننشده ... وبعد جهاد مرير يتغلب الخير ، ويجتمع الشمل ، وتلتئم الجراح ..

(فالعمدة) رجل مستبد ظالم ، تسول له نفسه الشريرة الفتك بامراة ارسل زوجها الى السودان مع حملة (هكس) ؛ فأتى بها الى بيته ، وأخبرها أن الحملة قد أبيدت ، وأن زوجها قتل .. واخذ يراودها عن نفسها ، ولم يكن بوسعها أن ترفض ، فلجأت الى الحيلة .. طلبت أن تذهب أولا الى البيت لتقضى حاجة لكنه لم يأنس الى موافقتها ، فاحتجز صغيرها حتى تعود ، وارسل خلفها أحد رجاله ... وحين علمت انه قد أحيط بها ، انطلقت تجرى ، وخلفها تابعه ... ولما اقتربت من بئر ساقية ألقت فيه حجرا ، واختفت فى الظلام بين أعواد الذرة ..

وعاد الرجل يخبر العمدة أنها رمت نفسها فى البئر ...

وظلت مختبئة فترة حاولت فيها الحصول على أبنها ، ولما يئست ذهبت الى القاهرة تكدح فى سبيل العيش ...

اشتغلت بتطريز (الطرح والمناديل) وخدمة المنازل ، بينما ظل ابنها فى بيت العمدة ، فلما أصبح قادرا على العمل أرسله العمدة الى القاهرة ، ليكون فى خدمة ابنه التلميذ الفاسد سيىء السلوك ...

وتشاء الصدفة أن يقيم (ابن العمدة) فى نفس البيت الذى تسكن (المراة) حجرة على سطحه ... ويستعين بها (ابن العمدة) فى اعداد مأدبة .. فتلتقى بابنها الذى كان يشغل فراغة بكتب سيده ، ولكنها لم تتعرف اليه ...

وتحكى المسرحية أن زوج (المرأة) بعد ابادة حملة (هكس) فر الى الغابات فالتقطه احد رواد أعالى النيل .. واستعان به فى تعلم العربية ، ثم أخذه معه الى أوربا ليلتقى مع (العمدة) فى فرنسا ..

ذلك ان (بنايوتى) زين للعمدة السفر الى أوربا ليتمتع ويلهو ما وسعه الأمر ، والقى بالعمدة فى البحر طمعا فى ماله ، فالتقطته سفينة وقد أصيب بحالة عصبية الزمته الوجوم ..

ويقضى (العمدة) فى صحبة (الزوج) عشر سنين يكون فى خلالها (ابن العمدة) قد لجأ الى الجريمة ، بعد أن غرر بفتاة ، ويكون ابن (المرأة) قد انصرف الى التعليم ، وتخرج ليصدر جريدة (الأمل) ، ويصبح من الساسة الذين يهيئون لحياة جديدة ، ويكون قد تعرف الى أمه ، وطابت لهما الحياة ..

يعود (الزوج) الى مصر فى صورة مستشرق ، ومعه (العمدة) ...

وفى تجوالهما بمعالم القاهرة يصلان الى مكتب جريدة (الأمل) ، فى الوقت الذى يدبر فيه (ابن العمدة) السطو على ادارة الجريدة ، ويلقى القبض عليه ...

وتذهب (المرأة) الى مقر الجريدة لتطمئن على ابنها ، فتلتقى بالجميع ويصدم (العمدة) بها تقول لابنه : خاسر بن خاسر ، فيفيق من حالته العصبية ، ويتم التعارف .. بينما المظاهرات تدوى فى الخارج بحياة الاستقلال التام والعمدة يلهج بقوله : من لم يربه والداه ربته الأيام والليالى ..

جريمة أخرى من جرائم الآباء ، مع اختلاف البيئة والأحداث ومزيد من التعقيد في خيوط المسرحية ، مما يدل على وفرة في النماء ، وسعة في الخيال .. وان اشتركت المسرحيتان في كونهما أحداثا اخبارية ، لهجت بها الألسنة ، فصرفته نوعية الحدث ورومانسيته عن أبعاد الموقف ودلالاته ، مكتفيا بالاطار العام ، وارادة الخير فيه .. وان تكن المسرحية الثانية لفتا الى عوامل الفساد ، مع بيان أثر التعليم ، وقوة عناصر الخير ، ممثلة في الابن الذى يقود الى (الأمل) .

فالأحداث تتتابع ، مبتدئة بصراع مع القوى الشريرة ، لتنتهي الى الأمل المرجو ، في الوقت الذى يبلغ فيه صراع الشعب مع الاستعمار ذروته ، رجاء أن يحقق آمال الأمة في الاستقلال التام .



وتنشب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)وتبذل بريطانيا كل ما تملك من جهود لاستنزاف موارد البلاد ، والتآمر على كل مقوماتها حتى تصبح قطعة لا تنفصل عن الامبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس .

وتم اعلان الحماية البريطانية على مصر ، وأعلنت الأحكام العرفية للتنكيل بشعب مصر ، كما تم تخويل القوات البريطانية حقوق الحرب في الأراضي والموانى المصرية ، ونفذت بالقوة والعنف الرقابة على الصحف وقوانين منع التجمهر ، وملئت السجون والمعتقلات بالأحرار من المواطنين المصريين ، وحشد مليون ومائة وسبعون ألفا من الفتيان الأشداء في فرقة العمال والجمالة ، فرقوا في ميادين القتال ، واهملوا أسوأ اهمال ، وانقطعت أخبارهم عن أهليهم ، وانتهبت الدواب والغلال وأموال الخزانة العامة من أجل جيش الامبراطورية ، وأنفقت الملايين على حرب الترك والسكة

الحديدية في صحراء سيناء ، وقيدت أسعار القطن ، وانقطع الرجاء بالفلاح ، وأحاطت المحنة بالناس ، وبدلت رضاءهم وامنهم ضيقا وفزعا .

.. ولم يكن بد من خلق ألوان فيها تعزية وقدر من الترفيه والتسلية ، فبدا المسرح الفكاهي بفرقة عزيز عيد ، تضم في طليعة أفرادها نجيب الريحاني الذي سرعان ما استقل بفرقته على مسرح (الاجبسيانة) حيث تخصص في الغناء المسرحي الممزوج بالفكاهة وقدم روايات (الفودفيل) التي كان يترجمها له المرحوم امين صدقي ترجمة تكاد تكون حرفية ، ثم تتصرف الفرقة فتضع لها أسماء شعبية تكفل اقبال الجماهير في (الفجالة) والأحياء الشعبية المجاورة مثل (سهرة بنت دين كلب)، و (ياست ماتمشيش كده عريانه) ، و (ضربة مقرعة) ، و (ابقى قابلني) و (وصية كشكش بيه) الخ .. (١)

وافتتح الى جانبه مسرح (كازينو دى بارى) برياسة أمين صدقي ، ثم على الكسار .

وأخذت هذه الفرق تتنافس فيما بينها ، مما عاد على هذا اللون من الفن بمزيد من النشاط والثراء ..

وكان من أثر اقبال الجماهير أن مالت الفرق الأخرى الى هذا اللون من الغناء والفكاهة ، ومن ذلك فرقة (جورج أبيض) زعيمة المسرح الدرامي التي مزجت انتاجها بالغناء المسرحي

وألفت جمعية التمثيل المصرى التى كان من أهدافها خلق

---

(١) من مذكرات نجيب الريحاني ــ ط دار النجيب ــ ص ٨

المسرحيــة المصرية باللغــة العامية ، وجمعية محاربة التمثيل الهزلى التى ألفت من بعض الكتاب والأدباء والفنانين ٠

★ ★ ★

ويتابع (أديبنا) الشاب هذا النشـــاط المسرحى المتنوع مستفيدا من تجاربه السابقة ، ومن الأحداث المتتابعة من حوله ، فينهض ـ وقد قوى قلمه ، واتسعت مداركه ، يفتش فى التاريخ عن المواقف التى تصور أفكاره ، وتحكى أهـــدافه ، أكثر رحابة وعمقا ٠

ويجد طلبته فى (الراهب المتنكر) (١) ٠

قصة تتنــاول تأثير الحضــارة العربية على أوربا عن طريق (الأندلس) ، كأنما يهيب بالعرب أن ينهضوا وينفضـــوا عن أنفسهم عماية الجهل وذل الاستعمار ويأخذوا من ماضيهم الثقــة والايمان بأنفسهم ، والحذر من عوامل الفرقة والأطماع الشخصية التى ذهبت (بالفردوس المفقود) فى أسبانيا ٠

أحداث كثيرة متشابكة ، تدل على ذكاء ومهارة ودهاء ، استطاع (أديبنا) النامى المتطور الذى لم يتجاوز الثانيـــة والعشرين أن ينسقها ، ويصب أفكاره العربية الاسلامية فى ثناياها ، ومن خلال حوار أبطالها ٠

وبهذا استطاعت المسرحية أن تجد سبيلها الى المسرح ٠٠ فقد قدمها (أديبنا) الى الشيخ عبد الخالق عمر ـ مدرس اللغة العربية بمدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩١٧ ـ الذى قدمها بدوره الى ابنه

(١) نشرتها فى مجلة الأدب ـ يناير سنة ١٩٦٩ ـ

الذى كان يدير متجرا لبيع الدخان ·· ويعجب بها الابن ــ وقد كان على صلة برجال الفن ــ فقدمها الى (جوق عبد الله عكاشة) (١) ·

وعرضت المسرحية بصورة لا يسره منها مواقف بعض الممثلين بسبب عدم ادراكهم للنص ·

وقد مثلت هذه المسرحية للمرة الرابعة أو الخامسة بدار الأوبرا بينما كان المؤلف اماما للمفوضية المصرية فى ايطاليا ، وأشرف على ضبط نصها الشيخ السنهورى ·

وبعد نجاحها هذا ، وافق الصديقان على انها عمل يستحق أن يحل صاحبه من العهد الذى سبق أن تعاهدا عليه ·

أما الشيخ السنهورى فقد حكم فى ابريل سنة ١٩٢٠ م ــ وهو قاض بمحكمة نجع حمادى الشرعية ــ بالنفقة للمرأة الفقيرة فى بيت مال المسلمين ·· وأثار الحكم ضجة كبيرة ، وخاف الأصدقاء عليه من جراء هذا الحكم ، فطلبوا اليه أن يعجل بترحيل أسرته ، استعدادا للسجن أو للتشريد ·

---

(١) قالت عنه مجلة الزهور ــ أكتوبر سنة ١٩١١ م : ــ

(الجوق العربى : مديره عبد الله عكاشه ، وقد جمع واخواته (كذا) الى رخامة الصوت حسن الاستعداد ·· وواضع رواياته الياس فياض ، الكاتب المعروف بالرزانة والطلاقة ·· ومسرح تمثيله التياترو المصرى ، وقد ألبس حلة جديدة بادارة صاحبه اسكندر فرج ·· وأعضاؤه افراد جوق الشيخ سلامة ، وهو أحسن جوق عرفناه ·· ومتعهد ملابسه كبريتى متعهد ملابس الأوبرا الغربية ·· ونحن لا نقول ان الجوق قد بلغ آخر مراحل الكمال ، فهذا مالا يرضاه مديره الأديب ، ولكننا نشهد أنه باذل همة تشكر فى سبيل ارضاء الفن ، وحق القيام بشروطه ، ولا جدال فى أنه خطا خطوة واسعة فى ترقية التمثيل العربى) ·· عن زكريا احمد نصبرى أبو المجد ــ أعلام العرب ص ٨٤ ــ ٨٥ ·

ولكن – بعد لقاء بمسئول أعجبته شجاعته واخلاصه – رقي منقولا الى الوجه البحري .

وحاول الشيخ السنهوري أن يحصل على موافقة صاحبه (أمين) على أن يكون هذا الحكم اخلالا له من العهد .. لكن الصاحب العزيز العنيد ظل حتى آخر أيامه يرى أن هذا الحكم صدر بعد أيام من تجاوز الشيخ السنهوري حد الثلاثين .

★ ★ ★

وبعد أن توثقت علاقة (أمين) بالفرقة كتب لها مسرحية : سفير الرشيد أو الانتقام .

قصة تاريخية اجتماعية تتناول تأثير الحضارة العربية على اوربا عن طريق الشرق ، وتصحح خطأ وقع فيه بعض المؤرخين والكتاب ، حين نسبوا نكبة البرامكة الى العلاقة بين جعفر والعباسة .

(فاسيد) شاب مجهول النسب من الهاشميين .. كان لأبيه (العباس) رأى ضد الرشيد ، فلما تم للرشيد الأمر نزح (العباس) الى الموصل ، بعيدا عن بغداد .. وخوف أن تصل اليه يد الرشيد التحق بالصائفة لغزو الروم .. ويأتي خبر عن مقتله ، فتضيق بالزوجة حالها .

وفي احدى غارات الخوارج على الموصل فقد (أسيد) واشتدت أحزان الأم ، وكادت تفقد بصرها ، حين أصيبت عيناها برمد أرمضها .

ولما عاد (العباس) من حرب الروم بحث عن زوجته وابنه في الموصل ، فلم يجدهما ، فذهب الى بغداد متخفيا يبحث عنهما .

في ذلك الحين كان (أسيد) قد أصبح من الفرسان المبرزين المقربين الى البرامكة ، فأختير مع البعثة التي سافرت الى (شرلمان) تحمل هدية الرشيد ، وتقوم بالسفارة بين العاهلين الكبيرين ، وتطلع على شئون الروم .

وحدثت نكبة البراكمة في غيبة البعثة .. وعاد (أسيد) من بلاد الروم ليقاتل في صفوف البرامكة ، وكان قد وقع في حب (سمحة) بنت محمد البرمكي .

ويجد (العباس) نفسه مع حزب (الفضل بن الربيع) عدو البرامكة .. ويلتقي مع ابنه في معركة ، ويجرح الابن .

وفي محاولة الابن للنجاة يلجأ الى بيت (محمد البرمكي) الذي لم تنله النكبة لوقوفه على الحياد ، وميله الى المسالمة .

وتقوم (سمحة) برعاية الحبيب الجريح ، وبينما هي تضمد جراحه ترى وشما قديما على صدره .

وفي حديث بين (سمحة) وأم (أسيد) ـ التي كانت تتردد على بيت (محمد البرمكي) لعلاج عينيها ـ تتعرف الأم على ابنها الذي افتقدته من صغره ، فتسمى بغير اسمه .

وحين يقبل (العباس) مع طائفة من الجند ليلقى القبض على (أسيد) تعترض الأم سبيلهم ، دفاعا عن ابنها الجريح ، وتلتقي بزوجها .. ويتم التعارف ، ويجتمع الشمل .



نفس الاتجاه الى الخاتمة السعيدة التى تمثلت فى مسرحياته السابقة ٠

ولما كنت لم أحظ بقراءة هذه المسرحيات فيما عدا (الراهب المتنكر) ، وما دونته ليس الا نقلا أمينا لرواية المؤلف ، بعد أن أصبحت فى غير حوزته ، لأن الذين حصلوا عليها ذهبوا بها ـ فانى لا أستطيع الحكم على طريقة المعالجة ، ولا على طبيعة الحوار ، الا من خلال هـــذه المسرحية ٠٠ وقد ذكر المؤلف أن الحوار فى جميع مسرحياته كان بالعربية ، أما حوار (ابن العمدة) فكان مزيجا من العامية والعربية ٠

وفى مصير (سفير الرشيد) يقول محرر بريد مجلة (الأدب) على لسان الأستاذ الخولى : (أما « سفير الرشيد » بعد جوقة عكاشة ، فقد أخذها السيد محمد متولى مفتش السينما اذ ذاك فى وزارة المعارف ليخرجها اخراجا سينمائيا عالميا فى فرنسا ، التى كان يسافر اليها فى بعثة ، ولكنه فى هزة عائلية أخرجهـا من الحياة ، فلم أرها بعدها ، وأنا واثق أن لها أصلا ، ان لم يكن فى ادارة المطبوعات ، اذ كان القانون يقضى بأن يقدم الجوق بضع نسخ قبل الاذن بالتمثيل ، وقد رأيت هذه النسخ ، فحاولت أن أجدها فى محفوظات قلم المطبوعات القديم ، ولكن وسائلى فى ذلك لم تؤد الى نتيجة ، كما لم تؤد الى شىء محاولة الظفر بنسخة من سفير الرشيد بواسطة الشيخ عبد الحميد عكاشة الذى يعرف مقر نسخ هذه الروايات كلها عند أخيه عبد الباقى أو عبدالله أو أولادهما ولا جدوى فى هذا السبيل حتى الآن) (١) ٠

---

(١) الأدب ـ ابريل سنة ١٩٦٢ م ٠

والصدفة السعيدة وحدها هي التي أتاحت لي الحصول على (الراهب المتنكر) بعد أن قال فيها محرر بريد الأدب - العبيدم نفسه - على لسان الأستاذ الخولي :

(أما « الراهب المتنكر » » فلم يكن عندي الا مسودات استخلصت منها صورة لها ، مختصرة ، مثلتها مدرسة رقي المعارف منذ بضعة عشر عاما ، وقد أعطيت هذه الصورة المختصرة لولدي الأستاذ الدكتور محمد القصاص منذ أكثر من عام ، ليري فيها رأيه اليوم ، فقال خيرا كثيرا ، وصل الى حد أن معهد التمثيل سيطلب لها جائزة التأليف المسرحي ، وتركت له حرية التصرف التامة في اعادة اخراجها ، فالتزم بذلك ، وشغل بما لا يستطيع دفعه من المشاغل التي لا يمكن معها سؤاله عن شيء)

لكني تلقيت من السيدة الجليلة الدكتورة عائشة عبد الرحمن مجموعة من المخطوطات لمحاضرات الأستاذ الخولي في بداية حياته الجامعية ، فعثرت بينها على مسودة كاملة (للراهب المتنكر) ، حاولت جاهدا تحقيق الصورة الأصلية - وقد أكل الزمان الكثير من حروفها ، وتعرجت السطور والتوت بمحاولات التهذيب والتنقيح - لنشرها في مجلة الأدب ..

وتقع المسرحية في ثلاثة فصول ، خمسة مناظر (١ - ٢ - ٣) جرى قلم المؤلف فيها بالتصحيح المرة بعد المرة بالرصاص الأحمر والأسود وبالحبر ، مما يفيد أن التصحيح جرى في المسرحية كلها .. ثم ان بها خطأين لغويين ، مما يفيد أن عملية التنقيح والتهذيب جرت في أيام الطلب ، فقد جاء على لسان (جلوب) في الفصل الأول : (كلا ، كلا ، بل سيدة ، وان شئت قل أميرة) بحذف الفاء في جواب الشرط ، كما جاء في المنظر الثاني من الفصل

الثالث على لسان الملثم : (وكيف ننسى سوابقك فى الميادين ، ومكانك بين المجاهدين ، وصولاتك بين الأبطال ، وبلاؤك فى منازلة الرجال ، أذهب كل ذلك ؟) بعطف مرفوع على منصوب ..

وفى الصفحة الأولى للمسرحية يقول المؤلف انها (مثلت على مسرح الأوبرا أول مرة مساء ١٩١٧/١٢/١٦ م) .

والناظر فى المسرحية لا يجد مشقة فى الحكم بأن المؤلف وفق غاية التوفيق فى التعبير عن البيئة العربية فى الأندلس ، وفى تصوير الخوالج النفسية للابطال من خلال حوار مسلسل تام سريع نابض ، يعيش قارئه مع اخلاص الحبيب ووفائه ، وإباء القائد وشجاعته أمام الموت ، ونبل (الحكم) وعفوه عند المقدرة ، ودهاء الخليفة وسعة حيلته ، وتنكر رجل الأمن لكل علاقة خاصة فى سبيل واجبه ، وانسانية السجان ..

ولم تخل هذه الدراما العنيفة من طابع الفكاهة .. (١)

---

(١) الا أنا ـ مع هذا ـ نجد هذا الحوار لا يخلو من تعبيرات قرآنية وأمثال عربية ، قد توحى بالصنعة التى لا تسوغ مع المسرح ، وان كانت البيئة الأندلسية تقتضيها .. كما أننا نجد ألفاظا قد يتعثر معها النظارة مثل (ينهد فى رفقتك جيشى .. قتلها بثها .. فاجاها مرض حافدها .. مكثت فى بلادهم نحو ستة الاشهر .. ما حملت لديهم خطة خسف فى دين ولا عرض .. لادر درك من مورط خبل .. لا حس بها ولا ذماء) ..

ثم انا نجد (الناصر) فى آخر المنظر الأول من الفصل الثالث يقول : (لا يقتل سعيد حتى أراه) ، ومع ذلك يهيىء السياف عنق سعيد للضرب ويرفع سيفه ، ويكاد يقتله ، لولا دق الباب !! كما نجد (الملثم) يبادل السجان اشارة فيتقدم للامساك به ، ويفهم من ذلك أن السجان يعرف حقيقته ، ثم يتبين غير ذلك !!

. . ومع ذلك كله نستطيع الاطمئنـــــان الى نجاح المسرحية فى حينها .. فقد اهتمت فرقة (عكاشه) بعرضها على مســـــرح (الاوبرا) لمؤلف مجهول ، ثم أعدت (سمير الرشـــيد) للتمثيل وأعلنت عنها ، نتيجه لنجاح (الراهب المتنكر) ، وان حالت ظروف ـ بعد ذلك ـ دون عرضها .

وقد حاولت (الفرقة) الاتفاق مع المؤلف على الاستمرار فى تقديم ما يشغل برنامجها السنوى ـ وكانت تقدم اربع تمثيليـات فى العام ـ مقابل عشرين جنيها ذهبيا . لكنه رفض العرض ، بحجة أنه لا يستطيع أن يكتب ما يطلب منه ، بل اذا واتته الفكرة، وتهيأت له الدوافع الفنية ، فان المؤلف لا يكتب حوار مسرحية فحسب (بل يعرض مع ذلك الجو الخارجى لحوادثها ، ويعــرض الجو النفسى لأشخاصها) .. ثم (ان المسرحية تعيش فى نفس مؤلفها ، ويشهد فى نفسه أشــخاصها ، وهم يمارســون حيــاتهم عند الحوادث التى يعرضها ، ومن حياتهم فى دنيا خواطره ، وعن طريق هذه المشاهدة الداخلية يكتب حوارهم حين يتكلمون ، مع شىء من الاشارة الى انفعالاتهم) .

ولا يتيسر هذا العمل الفنى متكاملا لمجرد الارادة ، فلابد من المعايشة ..

هذا هو رأى الأستاذ الخولى ، وقد أكدته عبارته سنة ١٩٥٦ فى العدد الأول من مجلة الأدب ..

ولم يتوفر لى الاطلاع على حديث له بهذا الصــدد قبــل هذا التاريخ المتأخر ، وان ذكر أنه (أصل رأيى القديم فى أن المسرحية لا تقرأ) ، وفيه ما يبرر عدم احتفاظه بأصول مسرحياته ، أو عدم إصراره على الحصول عليها ممن وقعت فى أيديهم ، لأنه يرى أن (المسرحية ليست أدبا معــدا لقراءة القارىء ولا صـــالحا للقراءة

القارىء) ، فالعمل الفنى – الى جوار الحوار – يقدم (نقطا سردية عن الجو الخارجى ، يستعملها المخرج فى اعداد المنظر ، ثم اشارات مجملة خاطفة عن الحركات والأحوال النفســية للأشخاص ، حين يرى ضرورة الاشارة اليها) .. ثم (يترك كل هذا الفراغ ليملأه الممثل ، على قدر ما يتمثل من حياة الشخصية التى يملثها) .. و (الممثل وحده هو الذى يشعر بحساسيته الفنية بما شـاهده المؤلف داخليا ، وعلى قدر قوة هذه الحساسية فى الممثل ينعكس على نفسه ما أحسه المؤلف فأودعه فى حواره من روح القصـــة . وعلى قدر استشفاف الممثل لهذه الروح ، واستطاعته المعيشة فى جوها – يـكون أداؤه الفنى لدوره ممتـــازا أو مقـاربا أو عاديا أو ضعيفا) (١) .

وان يكن لهذا الرأى من قوة الدلالة فان قارىء المسرحية ينبغى أن يتزود بالقدرة على التكيف بجوها وتقمص شخصياتها ، وتمثل حوارها تمثلا واقعيا ، بحيث يتمكن من اتخـــاذ موقف منها .. فلا يكون مجرد قارىء أحداث ، تشغله الخيوط المتشابكة والعقد المثيرة ، وما يستعلن من تعبيرات ترتبط بنوازع خاصة به .. ثم ان العمل الفنى فى أى صورة هو الذى يترك للقـارىء مجـال المشاركة الفكرية ، ومن ثم كان الرمز والايحاء والايجاز .. الى آخر المجالات الأدبية التى تعتمد على ذكاء القارىء .. هذا الى ما نجده من لذة فى قراءة الحكيم وتشيخوف وشو وكامى ويونسكو وكافكا .. الخ .. واذا كان الممثل لا يصـل الى حقيقة العمـل الفنى (الا بعد دراسة لدوره ، ينتهى بها الى تمثله تمثلا واضحا ، وادراكه ادراكا يمكنه من أن يعيش فيه) فان الممثل ليس الا قارئا ذكيا ، بالاضافة الى شىء آخر لا تحتاجه الا خشبة المسرح ، ليكون واسطة

---

(١) العدد الأول من مجلة الأدب – مارس سنة ١٩٥٦ م .

بين الجمهور والمؤلف ، أو ليكون هو مع زملائه والمخرج صانعين عملا آخر تضاف عظمته اليهم لا الى المؤلف ..

وعلى كل فقد أعفانا الأستاذ الخولى من مشـــقة الجدل لأنه لا يرى هذا الرأى (رأيا تقريريا) ، وللقراء أن يعتبروه (سؤالا واستفتاء يجيبون عنه بما يشاءون) فالرأى قديم لديه (منذ عانيت هذه التجربة) .. و (لست اليوم من كتاب القصة بأى صنف من صنوفها) (١) .

---

(١) العدد الأول من مجلة الأدب ـ مارس سنة ١٩٥٦ م .

ولا نستطيع أن نربط اتجاه (المؤلف) نحو المسرحية التاريخية بما كان يعرض فى ذلك الحين من مسرحيـــات تاريخيـة مصرية لشكسبير وغيره ، ومسرحيات تاريخية عربيـة للعبادى والجميل وابراهيم رمزى وفرح أنطون وغيرهم، أو نربطها بالقصص التاريخية الكثيرة العدد لجورجى زيدان فقط ، بل الى ذلك بالدراسات التى شغل نفسه بها وهو يعيش فى هذا الجو الأدبى .

واذا نظرنا الى مراجع بحثه عن (السياحات الاسلامية) الذى تقدم به لمدرسة القضاء الشرعى عام (١٩١٥ ـ ١٩١٦ م) ـ وهو فى كراستين كبيرتين أخذهما الأستاذ أحمد حسنين الرحالة المعروف ، ولم يعدهما ـ عرفنـا أى تطور سريـع فى دراسة هذا الطالب النجيب .

لقد اتخذ لبحثه مراجع : مروج الذهب للمسعودى على هامش ابن الأثير ، ورحـلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير ، والمســالك والممالك لابن خرداذبة ، ومسالك الممالك للاصطخرى ، والخراج لقدامة بن جعفر وأحسن التقاسـيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ، وغيرها .. على حين كانت قراءاته قبل قليل فى قصص بلا أسماء مؤلفين ، مثل : تمدن الفلاح ، والقط والفار ، والسلك والوابور .. فاذا كان له أن يوسع ميدانه قرأ منهل الظمآن فى تاريخ آل عثمان .

ولقد نشر قدر من هذا البحث بمجلة الهلال فى الجزء الرابع من السنة الثلاثين (أول يناير سنـــة ١٩٢٢) .. قدمه المحرر بقوله :

(هذا بحث طلى ، شيق ، جليل القدر ، خطير الشأن ..

وقد كتب هذا المقال أستاذ فاضل منقب ، جمع معلوماته من المصادر الوثيقة ، فرتبها أحسن ترتيب ، ونسقها أجمل تنسيق) .

.. وفى عام ١٩١٧ م جعل موضوع رســـالته الدراسـية (الجندية الاسلامية ونظمها) .. (شغفا بتاريخ فروع الحضارة الاسلامية ، وذكرى لمجد آباء سلفوا) .

وقد قدم لهذه الرسالة سنة ١٩٦٠ م حين نشرها فى كتاب (الجندية والسلم .. واقع ومثـــال) بقوله : (قطعة من تاريـخ الفكر ، فى حياة الجيل الماضى ، بما هو انعكاس لاتجاهات الجماعة على فرد منها ، وتفاعل من هذا الفرد مع الجماعة التى يحيا فيها ، وبهـــا) ..

فقد كانت عوامل الثورة على الاستغلال والفساد تعمل عملها ، والرغبة فى بناء أمة متكاملة متحررة قوية تجيش فى نفوس أبناء مصر وغيرها من بلاد العرب .

واتخذت هذه (الرسالة) سنة ١٩٣٨ م (وسيلة لعمل قوى فعال ، يحول صرير القلم فى الحديث عن الجندية أزير طائرة عربية فى سماء الحرية القوية) عن طريق طبعها والاسهام بثمنها فى شراء طائرة بثمنهـا هدية لمصر المسلحة .. وقدم هذه الطبعة اللواء عزيز على المصرى (باشا) المفتش العام للجيش المصرى بقوله: (انى أرى الأستاذ أمين الخولى فى سفره هذا كشف لنا عن طلائع حركة جديدة ، واتجاه جديد ، لا يكون بدونه استقلال ، ولا تكون حرية . وانى ــ وأنا أطالع هذا الكتاب ــ أشعر بتفاؤل واستبشار بالمستقبل وبدنو جيل جديد ، يختلف عن الجيل الماضى الذى كان جيل كلام ، فما ينتج عن الكلام من مباحثـات ، ومناقشـــات ، فتفرقة ، فضعف) .

وشبت نار الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٦٩ م . (ووقف المشروع - حينذاك بعد طبع ملزمة واحدة من تاريخ الجندية) .

والبحث يقع في مائة وعشر صفحات رجع فيه كاتبه الى الهداية في الشريعة ، وتفسير الخطيب الشربيني ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتاريخ ابن اياس ، وخطط المقريزي ، والكامل لابن الأثير ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ الدولة العثمانية لمحمد بك فريد ، والأحكام السلطانية للماوردي ، وتاريخ الأتراك العثمانيين للأستاذ حسين لبيب ، وفتوح البلدان للبلاذري ، ونفح الطيب للمقري ، وآثار الأول في ترتيب الدول للحسن بن عبد الله ، وفقه اللغة للثعالبي ، والمخصص لابن سيده ، وتاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان ، وكتاب الانتصار لابن دقماق ، القاموس المحيط ، وصبح الأعشى ، وأحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم للهمذاني ، وكتاب الأنيق في المجانيق ، وتاريخ بغداد لابن طيغور ، والأحكام الملوكية والضوابط القاموسية لابن منكلي ، وايضاح المرامي لشرح هداية الرامي الى طريق المرامي للشيخ محيي الدين السلطي ، والسيرة الحلبية ، وسيرة ابن هشام ، والكامل للمبرد ، والمفردات لابن البيطار ، ودائرة المعارف للبستاني ، وحاضر العالم الاسلامي ، لشكيب أرسلان ، والعز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع ، والحضارة الاسلامية لزكي باشا ، وتاريخ ابن خلكان ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وزبدة كشف الممالك ، والمزهر للسيوطي ، وقرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون (مترجم عن الفرنسية) وقوانين الدواوين لابن مماتي ، وسفن الأسطول الاسلامي لعبد الفتاح عبادة ، وسيرة صلاح الدين لابن شداد ، وحقوق الملل ومعاهدات الدول لأرسلان ، وشرح أدب الكاتب للبطليوسي ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ، والحيوان للجاحظ .

- ثبت طويل من المراجع الكبرى ـ عدا مجلتي الهلال والمقتطف ـ سند طالب مدرسة القضاء الشرعي ، ليقدم بحثا مدرسيا ..

صـــــورة للبيئة الثقافية التي صـــدر عنها في مسرحيتيه التاريخيتين ، كما جاء في مقدمة (الجندية والسلم) :

(واجه الجيل السابق الحياة والدعوة الى الشعور بالذات ترتفع ، فبدأت ، وبدأ يشعر بنفســه في ظل آمجاد آبائه ، وعظمة أسلافه ، بالحديث عن الحضارة الاسلامية ، والحضارة المصرية حينا ، واستجابة لهذه الدعوة ألفت للمسرح قصـــتين ، مثلت احداهما ، وهي تصور تأثير الحضارة العربية على أوربا ، من طريق أسبانيا ، وأعدت الثانية للتمثيل ، وهي تصور تأثير الحضارة العربية على أوربا ، من طريق بغداد ، بمثل صلة الرشيد بشارلمان) .

مع ثورة سنة ١٩١٩ م

وضعت الحرب العالمية أوزارها ، وأخذت الدول الصغرى تفتش عن نفسها بين الكومات المتراكمة من الدعايات والإدعاءات .

وتألف الوفد المصرى ، وأخذ ينهض بمسئولية الدفاع عن حقوق البلاد ، ويسعى لرفع الحماية البريطانية ، وتحقيق الاستقلال .

لكنه أراد أن يدعم مركزه في الجهاد ، وأن يبرهن للانجليز على أنه وكيل عن الأمة ، ينطق بلسانها .. فضلا على الصفة النيابية التى كانت لأكثر أعضائه في الجمعية التشريعية ..

وكانت الفكرة متجهة — بادىء ذى بدء — الى الاكتفاء بتوقيع أعضاء الجمعية التشريعية على هذا التوكيل ، لأنهم بصفتهم النيابية يعبرون عن رأى الأمة بأجمعها .. لكن بعض ذوى الرأى من الأمة — من غير هؤلاء الأعضاء — أرادوا أن يشتركوا في التوقيع على هذا التوكيل ..

زد على ذلك أن نبأه اتصل بالناس ، واهتموا به فرأى الوفد أن يعرض التوكيل على الهيئات الأخرى ، فسارعت الى امضائه .. وأخذ الاقبال يزداد على التوقيع عليه من جميع الطبقات .. فطبعت منه نسخ عديدة ، وأرسلت الى جميع أنحاء القطر .. (١)

وفى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ طلب أعضاء الوفد من السلطة العسكرية جوازات سفر الى أوربا للمطالبة بحقوق البلاد ، فأجابت القيادة العليا للجيوش البريطانية بأنه قد عرضت صعوبات تمنع من السفر .

---

(١) هذه حياتى « لعبد العزيز فهمى » (كتاب الهلال عدد ١٤٥) — ص ٨٦

وتوالت الحوادث بعد ذلك ، وقدمت الاحتجاجات الى المعتمد البريطاني ، والى ممثلى الدول الأجنبية ، حتى كان يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ م ، وهو اليوم الذى اعتقل فيه الزعماء الأربعة سعد وصدقى والباسل ومحمد محمود ، ونفوا الى مالطة ٠

وفى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩م تأججت الثورة المصرية التى اشترك فيها الشعب كله ، والتى قدم فيها الآباء والأجداد أرواحهم الطاهرة الزكية (فى سبيل الحرية والاستقلال) ٠

كانت ثورة شعبية قادرة لو أنها أوتيت القيادة القادرة ٠

كان الفلاحون يهاجمون القطارات المسلحة البريطانية ، ويقطعون قضبان السكك الحديدية ، ويفقدون فى كل معركة المئات ٠٠

كانت منظمات الشباب فى المدن تقوم بدور القناصة للدوريات الانجليزية ، وتدمر وتخرب منشآت الاحتلال وعملائه ٠

والنساء يطفن فى تظاهرات ينددن بالاستعمار ، ويلهبن المشاعر ٠

والموظفون أضربوا ردا على اللورد كيرزن الذى صرح بأن الثورة المصرية لايؤيدها المثقفون ، لأن المثقفين ـ وهم موظفو الحكومة ـ يعيدون عنها ٠٠ وأسقط الاضراب الوزارة القائمة ، اذ لم تجد موظفا يعاونها فى العمل (١) ٠

ولم يكن بد أمام (أمين الخولى) ـ والبلاد تتمزق قشورها الجافة فى عنف واصرار ، لتكشف عن حيويتها ونضارتها ـ من

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٢٦\٩٠\٨٨ ٠

ترك الميدان الفني ، بعد أن تحولت (جمعية اخوان الصفا) الى نواة للتفاهم السياسى ، واتسع أمامها مجال العمل .

وكان المفهوم عن الثورة أنها سبيل لاعلان حرص مصر على الاستقلال ، وحقها فى تقرير المصير ، حسب مبادىء ولسن .. لكن مجرى الأحداث كان فى صورة (التحدى كعمل مقصود لذاته) .

وكانت مدرسة القضاء (تغلى من هذه الأحداث كما يغلى غيرها من المدارس ـ العليا ، وزاد غليانها أيام تكون الوفد ، وعلى رأسه سعد باشا زغلول ، اذ كانت المدرسة تعد نفسها صنيعة من صنيعاته ، وعملا من أعماله الجليلة ، وان الوطن والوفاء معا يوجبان عليها تأييده ، ما استطاعت ، وعلى رأس المدرسة عاطف بك بركات من أقرباء سعد ومن أقرب المقربين اليه) (١) .

واشترك طلاب المدرسة فى المظاهرات التى تتردد على السفارات ، وانتهت الأحداث بكثير من الطلاب ـ ومنهم جماعة اخوان الصفا ـ الى طبع وتوزيع المنشورات السرية ، والى تشكيلات للاغتيال .

والأستاذ الخولى يقرر أنه لم يشترك فى عملية اغتيال مباشرة ، وان قام بتوزيع الأسلحة ، واشترك فى خطط الاغتيال الضرورى ، ولم ينهض بعبء داخل جمعية سرية الا فى صورة تحضيرية لوجودها ، أو لممارسة عمل .. ونشط فى التوعية بالقرى ، وجمع التوقيعات للوفد ، كما جمع التبرعات .. وقد بلغت حصيلة التبرعات التى جمعها من قريته وحدها مائتين وخمسين جنيها .

---

(١) حياتى ـ لأحمد أمين ـ ص ١٩٩

يقول صديقه وزميله الشيخ السنهوري عنه في هذه الفترة :

« كان الوطني الثـائر ، اذ كان عنصرا من أهم العناصر الثورية في سنة ١٩١٩ م ، كان يعمل في شتى ميادينها ٠٠ كان يعمل بين اخوانه الطلاب في مدرسة القضاء ، والاجتماعات بالطلاب في الخارج ، وفي كل ناحية يكون فيهـا يشعل النفوس فيها ، ويقويها ، ويشد من أزرها ٠

وأذكر أن أول مظاهرة من أجل ثورة سـنة ١٩١٩ م كان موعد خروجها من الأزهر الشريف ، وتم التجمع ، ولكن محافظ العاصمة آنذاك (رسل باشا) اجتمع هو وضباطه وجنوده وحاصروا الأزهر ، ليمنعوا المظاهرة ٠

وكان (أمين) من حملة الأعلام ، وفي الطليعة ٠٠ ووصل الانذار اليهم بالتأخر ، والا أطلقت عليهم النـار ، فلم يتراجع ، بينما تراجع كثيرون من حوله ، ومازال ثابتا في مكانه يحمل علم مدرسته حتى كان هو وحده ٠٠ وبقي من موعد الانذار دقائق ، فكشف عن صدره ، وقال : هانذا ٠٠ ولكن الله سـلم ، وانتهى الأمر على أن تخرج المظاهرة ، ورسم لها خط السير ٠

وأخذ الأستاذ أمين - رحمه الله - عند الحكمدار ليضمن سير موكب المظاهرة في طريقه المرسـوم ، حتى اذا وصلت الى ميدان السكة الجديد خطرت لأمين فكرة لم تخطر على بال أحد ، اذ اتجه بالمظاهرة من أول شارع الفجالة ، وهو ينادي بصوته القوي : فليحيا اخواننا الأقباط ٠٠ واستمرت المظاهرة حتى كان مرورها على الواقف في مكان واحد يستغرق أكثر من ساعتين » (١) ٠

---

(١) الأدب - ابريل ومايو سنة ١٩٦٦ - عدد خاص بالتابين ٠

ولم يقف نشاط (آمين الثائر) عنـد هذا الحد ، بل (رن صدى نشيد فى سنة ١٩١٩ م ، هتف به هاتف ، سمع صوته ، ولم ير شخصه ، ولم يعرف اسمه ولا رسمه ، فكان وحيـا من الفن ، وفنا من الوحى ، تصدق به وفيه المعانى الكبرى فى حقيقة الفن وثورته ، وحقيقة الفنان ورسالته .

وكان مطلع هذا النشد :

يا بنى الأوطان هيـا نطلب العـلم سـويا
وتعـالوا نتفـانى نرفـع الظلم الشـديد

وبعد هذا المطلع مباشرة يهتف النشيد :

ساعدونا يا عسـاكر بائـع الأوطـان كافر
اننا نرجـو نجـاة من يـد البـاغى العنيد

وفى النشيد وراء ذلك معان من عظمة النفس المصرية وبسالتها، وبذلها ، تظل أبد الدهر تردد ، فتجد فيها النفس شعار الثورة .. والثورة دائما) (١) .

(ويستطرد النشيد فى مواجهة الأعداء :

أوثقـونا بالحبـال وأذيقونـا النكـال
نحن فى الهيجا رجـال لا نبـالى بالوعيـد
اضربونا بالرصـاص فالحياة فى القصـاص
كلنـا نبغى الخلاص مـن بقـاء لا يفيـد

(١) الأدب ــ يولية سنة ١٩٦٤ تطهير الأدب للأسـتاذ الخولى ، وقد علقت الدكتورة على هذا النشيد ، بأنها غير واثقة من نظم أستاذنا له .. وقد سـألت الشيخ اسهرى فى ذلك فايد نسبة النشيد الى الأستاذ الخولى ..

أضربونا بالمدافع ما لأمر الله دافع
نحن في البأس نداشع بقلوب من حديد (١)

وقل من كان يدرى أن هذا الصوت الثائر هو صوت طالب مدرسة القضاء الشرعى أمين الخولى الذى كان أجهر الأصوات فى قيادة المظاهرات ٠

يروى الشيخ السنهورى أنه لما قتل فتى صغير لأب يبيع (القباقيب) برصاص الانجليز أصر الشباب على تشييع جنازته ، وسارت المظاهرة تحمل الجثمان ، ويهتف (الخولى) فى مقدمتها : (فلتسقط بريطانيا السفلى) ٠٠ وتحت وابل من الرصاص ، والجموع تجرى وتتساقط فى منحدر جامع السلطان حسين ، كان (الخولى) يجرى ويهتف : (الثبات ٠٠ الثبات) ٠

ويقول الأستاذ الخولى : (كنا نعد علما يحمل عبارة معبرة ، واضحة التعبير عن رأينا فى تقرير مصيرنا ٠٠ وهنا كانت حيرة ٠٠ أنكبت الاستقلال الكامل ، أو التام ، أو ما يشبه هذه العبارات ، التى لم يكن قد سار منها وصف للاستقلال ، ولكن ٠٠ ما العبارة التى تحقق المعنى القانونى الدولى ؟

وفى هذه الحيرة ، ومع ضيق الوقت ، وبرغبة شديدة فى ابراز لفظ الاستقلال وضاء واضحا ، فزعنا الى مخلص من ثقافتنا الاسلامية ، وتذكرنا قضية أصولية سائرة هى : أن المطلق ينصرف الى الكامل من نوعه ٠

وبسرعة طلبنا أن يكتب باللون الأخضر فى العلم الأبيض لفظ الاستقلال كبيرا بعرض العلم كله ، فيكون المطلق الكامل) (٢) ٠

---

(١) الأدب ــ أكتوبر سنة ١٩٦٤ ــ ميكروب الوثنية للأستاذ الخولى ٠٠
(٢) الأدب فبراير سنة ١٩٦٦ الفن رفيع دائما للأستاذ الخولى ٠

في جريدة السفور ..

وامتد نشاطه الى الصحافة .. فأعاد اتصاله بجريدة السفور (١) ، وكان أول مقال له بها عن المشهورين والعظماء ، أراد به أن يفرق بين ما تحدثه الشهرة من ضجيج ومعنى العظمة الحقيقية

يقول فيه : (مثلى الأعلى كان دائما كالأفق ، كلما تقدمت منه وجدته يبعد أمامي) .

ويقول : (ان الأحياء المعاصرين من أدبائنا المشاهير كالجياد التي تجرى فى حلبة السباق ، لا يحسن الحكم عليها الا بعد اتمام أشواطها ، أى بعد وفاتها أو اعتزالها العمل) (٢) .

ولكن مقالاته ما بين ٩ يناير سنة ١٩١٩ و ٦ مارس سنة ١٩١٩ ـ أى قبيل قيام الثورة ـ كانت مطبوعة بطابع الاصلاح الثورى .. (ان ما يفيد الجزء يفيد الكل .. وما يضر جزءا من الجسم يضر الجسم كله) .. (ما بين مكتباتنا والمكتبات الافرنجية هو ما بين تفكيرنا وتفكيرهم) .. (لماذا يحتقر الناس من يسرق من جيبك جنيها أو ريالا أكثر مما يحتقرون من يضيع عليك ساعة أو ساعتين .. مع أن سارق الجنيه أو الريال سارق عرضا من أعراضك ، والثانى سرق جزءا من حياتك ؟) .. (ان الصلابة للمصريين خير مما طنطن به اليونان ومشايعوهم فى مدح التواضع والاحسان ونحوهما مما قال عنه (نيتشه) انها أخلاق العبيد لا أخلاق السادة) .. (أكبر دواعى الفساد فى الشبان أن يفسحوا لخيالهم المجال ، فيأتى لهم بصور ملهبة ، وأشكال فاتنة ، وتصورات وأوهام تعمى العقول ، وتضل المهتدين) .

---

(١) صحيفة أدبية اجتماعية نقدية ، صدرت فى ٢١ يوليه سنة ١٩١٥ امتدادا للجريدة التى كان يحررها أحمد لطفى السيد ، ومن كتابها محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وأحمد أمين . وظلت تصدر حتى قيام الثورة .

(٢) ص ٧٢١ النثر العربى المعاصر فى مائة عام لأنور الجندى ط سنة ١٩٦١م

ولكن ..

هل استطاع هذا المصلح الأريب الذى عالج قضايا ذات شأن فى بناء الأمة ، وتصدى فى العددين الأخيرين لمشكلة زواج الطلاب ، وكيف تتسلل الأوهام الفاسدة الى نفوسهم وتحكم تصرفاتهم هل استطاع أن يحكم تصرفاته هو فى بيئة يطلع فيها على كثير من أحوال النساء دون أن يجد من نفسه القدرة على أن يخطو الى التجربة ؟

لقد توفى والده فى هذه الأثناء ، فتزوج مكرها من ابنة عمه التى تربت فى بيتهم ، بعد أن مات والداها ، وقد خطبت له منذ الصبى .

ولكن الزمن تقدم به ، واتسعت مداركه ، وتغيرت صورة المرأة فى نظره . واشتدت به الحيرة ، لحرص والدته الشديد على الزواج من قريبته .. وكان المتنافسون عليها كثيرين ، لأنها بيضاء ، (الماء يبين من زورها) ، ولأنها ممتلئة ، تهتز باهتزاز أعطافها قلوب الشباب فى القرية .

وكاد النزاع يغلو بطلابها ، فقرر الزواج منها ، حسما للخلافات .. وقال : سأتزوجها على شرط ألا تخرج من البلد ، وسأتزوج عليها .. فاذا وافقت كان بها .

ووافقت ، لأن القاعدة أن الرجل يختلف كثيرا بعد الزواج عنه قبله ، وبخاصة اذا قيدته امرأة بروابط الأبناء ، فضلا عن المسئوليات العديدة التى تشغله عن نفسه .

وكان من الممكن أن تتوثق العلاقة بين الزوجين ، لو أن قلب الزوج خال من الروابط العاطفية التى تشده الى القاهرة ، بعيدا عن الزوجة التى بقيت فى القرية .

فمنذ سنة ١٩١٤ وفتانا يلتقي ـ في طريقه الى مدرسة القضاء الشرعى ، أو عائدا منها ـ بعينين جميلتين ، تقعان من نفسه موقعا لايفلتهما •

وشغلته العينان الجميلتان حتى عن جسم صاحبتهما القصير الذى (لم يكن فيه متعة الجسم ولازينة العين) كما قال لها فى احدى رسائله •

ولعل ظمأه الى الحب ـ فى بيئة يطلع فيها على كثير من أحوال النساء دون أن يجد من نفسه القدرة على أن يخطو الى التجربة ـ جعله يحس بكثير من الفراغ الذى يشبه الاحساس بالغربة ، مما جعله يتعلق بأول أشعة خضراء أستشعر معها الأنس والأمان •

بل ان الجو الفكرى من حوله كان مشحونا بالاتجاه الرومانسى المرتبط بغادة الكاميليا وبول وفرجين وماجدولين والشاعر ومجنون ليلى ، وباسلوب المنفلوطى الذى كان يتمثله الناشئة جميعا فى كتاباتهم •

(كانت موضوعات الانشاء كلها تنتهى بالبكاء على بطل من الابطال المألوفين فى النظرات والعبرات ، وهم كلهم أناس يبكون ويبكى عليهم ، لأنهم مخذولون منكسرون ، أو مضيعون فى ذمم اللئام وقرناء السوء ، وقل منهم من هو مسئول عن خيبته ، أو هو قادر على انصاف نفسه والاقتصاص لها ممن يجنى عليه •

وكان من ديدن التلاميذ اذا كان الموضوع فى غير هذهالأغراض أن ينحرفوا به الى عبارة محفوظة يستطردون بعدها الى مناسبة للبكاء والشكوى يشردونها أحيانا بكلماتها المسطورة فى القصة أو المقال) •

---

(١) العقاد ـ رجال عرفتهم ـ كتاب لهلال عدد ١٥١ ـ ص ٦٥

واذا كان ما وصلنا من أسلوب الأستاذ الخولى ــ فى نشأته ــ لايفيد أستاذيه المنفلوطى ، فانه كان ــ دون شك ــ يتنسم هذه الأنفاس التى تشيع فى بيئته الثقافية ، ولعل مقالات (السفور) تحمل أثارة من ملامح المنفلوطى •

واذا كان الحب الأفلاطونى الخالى من المصلحة أو الشهوة هو الذى يحرق أنفاس الشباب ، ويزين الضباب والوهم فى عيونهم ــ فقد أصبحت فتاة ليست على حظ كبير من الجمال شغل فتى مكتمل القوة ناضج الفكر ، لأنه اذا أحب مثلها (أصبح الحب بريئا) !!

وعرف ان صاحبة العينين الجميلتين تعمل ناظرة مدرسة (خوانك بركة) التى كان أولاد خاله تلاميذ بها •

وتمضى الأيام وصاحبنا لايقوى على مخاطبة محبوبته ، واذ برح من الحب أرسل اليها رسائل تفيض بلواعج قلبه •• رسائل يتمثل فيها وجودا أدبيا خالدا ، وكأنه يريد أن يجعل من نفسه (فرتر) يتحدث الى (شرلوث) أو (ابن زيدون) يكتب الى (ولادة) ••

(يافاتنة •• دلى كما تشائين ، واعبثى كما تشائين •• ولكن •• اعلمى ان كنت تشائين ، انى سأحبك كما أشاء ، ولو أنك لاتشائين) ••

لكن الفاتنة لاترق ، وتستمر فى دلالها ، أو قل ان التقاليد كانت أحسن من ارادتها ، فلم تكتب اليه حتى سنة ١٩٢١ . بعد أن يكون قد تزوج وفى الوقت نفسه قد خطبت له أخرى بالقاهرة ••

وينجب •• لكن ابنه البكر لم يخفف حدة عاطفته ، ولم يدعم الروابط بين الزوجين •

وفى سنة ١٩٢٠ يولد للسلطان (فؤاد) ولى عهده (فاروق) • وتخرج المظاهرات تهتف ضده ، ويتزعم صاحبنا زملاءه هاتفا بسقوط

(ابن السفاح) ..ويحرض زملاءه على عدم مغادرة المدرسة فى اليوم الذى منح فيه الطلاب اجازة تعبيرا عن الفرحة بولى العهد ..

وحين يحذره (عاطف باشا) من مغبة هذا التصرف ، ويصفه بأنه (نهلسنى) — يصر على موقفه ، وان استعان بالشرطة .

وتمر (الأزمة) بسلام بسبب حرص (عاطف باشا) على مصلحة أبنائه ..

وتنتهى مرحلة الدراسة بتفوق ، وان كان ترتيبه الثانى ، على غير ماتعود ، فلما عاتبه صديق عمره الشيخ السهنورى فى هذا، اعتذر بمرضه خلال شهرين قبيل الامتحان ..

وفى ١٠ مايو سنة ١٩٢٠ عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى ، وسكن فى طابق من بيت خالته ، وحرصت الخالة على تزويجه من ابنتها ، بعد أن تأكدت من فشل الزيجة الأولى ..

وترد مع ابنة الخالة رسالة من صاحبته تقول :

(أيها الأخ الفاضل ، كفى اجهادا لنفسك ، أنا واثقة مما تقول) ..

فيعلن الى خالته قصة حبه .. وتعمل الخالة على التقريب بين الحبيبين . اذ لا سبيل الى العدول به الى ابنتها ..

ودعيت الحبيبة الى بيت الخالة مرة ومرة ، وصارا يلتقيان فى البيت وخارجه ، وامتلأت الرسائل المتبادلة بشحنات عاطفية ملتهبة .. وتتابعت موجات النهر الخالد سريعة الى المصب .

وذهب الى عم محبوبته يخطبها ..

وانقسم الأهل ، مشايعين ومعارضين ..

كانت الخالة الى جانبه ، بينما الخال والجدة يحملان عليه ، ويحاولان احراجه ماديا ، عن طريق تقسيم الأرض ، حتى يشغل نفسه بالزراعة وقتا أطول ، ولم يكن قد قطع بينه وبينها ..

وتم زواجه الثانى فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ بعد ثمانى سنوات من قصة حب طويلة ، كان يمكن أن تصبح تاريخا حيا ، لو أن هذه الرسائل المتبادلة لم تذهب بها قصة أخرى فى حياته ، بعد أن وقعت فى يد بطلتها ، كما حكى الأستاذ الخولى ، وان كانت بطلة الرسائل قد ذكرت أنها أحرقتها فى ساعة ثورة نفسية جامحة ، بعد ما تصاعدت خطوات القصة الجديدة ..

ومما يثير الدهشة أن قصة حب قوى ، يتحدى العرف والتقاليد ، كهذه ، لم يخلدها صاحبها الأديب ، مع أنها وقعت فى مرحلة مبكرة من حياته ، وفى وقت كان الفن يشغل من فكره وجهده حيزا كبيرا .. وعادة الأدباء والمتأدبين فى هذه السن أن يصطفوا هذه القصص ، ويعيشوا فيها بوجدانهم ويعمل خيالهم من خيوط الحرمان نسيج الواقع .. فاذا كان الواقع يغص بالمواقف الحية النابضة ، فهل من الممكن ألا يتناولها الأديب من قريب أو بعيد ؟ .

قد يقال ان تناول الكاتب لها كان من خلال حب سعيد بن المنذر لطروب فى (الراهب المتنكر) وحب أسيد لسمحة فى (سفير الرشيد) .. لكن قصة الحب فى المسرحيتين لم تكن الا عملا ثانويا ، اذا قصد لذاته لم يخرج عن كونه تكملة للصورة الاجتماعية ، والنوازع الانسانية ، فى اطار فنى تام ..

وللشيخ السنهورى ــ الذى تولى عقد قران الحبيبين ، وشهد فصولا من قصة حبهما ــ رأيه الخاص فى هذا الصدد ، فهو ينكر أن يكون الأستاذ الخولى صاحب هوى ، أو أن للعاطفة سلطانا عليه ..

وقال : انه لم يحب قط ، ولكنــه كان يتخذ من هذه العاطفــة سلهاة ومتنفسا ، ولا يفتأ أن يجد نفسه ــ تحت تأثير الالحاح وبدافع المروءة ــ يستسلم ، ويتزوج ·· غير أن هذا قد يكون مجرد انطباعة خاصة ، لأن الواقع الذى رواه الأستاذ الخولى فى أخريات أيامه ، وأيدته بطلة القصة بعد ذلك ، ينافى تماما ما ذهب اليه الصديق السنهورى ·· ولعل السر فى اختلاف الحكم يرجع الى ما ينعكس على صورة الحب من عوامل نفسية مختلفة ، يكون منها الانكار والتمويه ، كما يكون منها المبالغة والاختلاق ·· واذا كانت هــذه العوامل النفسية المختلفة تحيط بالصورة في حين وقوعها ، فما أحسب البطلين ــ بعد أن غطى الرماد النار زمنا ، وعصفت الريــح بالنار والرماد معا ــ فى حاجة الى أن يدعيا ما لم يكن ، بل كان الأقرب الى ما جرى عليه العرف أن يصفا هذا الماضى البعيد بأنه نــوع من العبث البرىء تحتمله التقاليد ، ولا يخرج على وقار تحرص عليه الناظرة وينمسك به شاب معمم ··

اما أن يروى الأستاذ الجامعى المجمعى تفاصيله ، ويشير الى أنه كانت له وثائق مدونة ، وتعترف (السيدة الكبيرة) ــ كما يتحدث عنها (الأمناء) المقربون ــ بما جاء فى رواية الأستاذ الخولى ــ فمما لا يجعل للشك مجالا فى حقيقة هذا الحب وواقعه ··

واذا كان هذا الحب لم يثمر قصة أو عملا فنيــا معينــا ، فمما لاريب فيه أنه أثمر فى حياة الأستاذ الخولى أعمالا كبيرة أخرى . اذ كان من حوافز نبوغه وتفوقه ، كما كان عونه على الكفاح الطويل الشاق ··

وفى عام ١٩٢٣ سافر الى ايطاليا اماما للمفوضية فى روما ، ومستشارا شرعيا للقنصليات الموجودة فى دائرة السفارة ، وكان

(من أشد المحرضين على تنفيذ هده الفكرة ـ فكرة التمثيل الدينى فى الخارج ـ حتى نفذت) (١)

وفى الفترة ما بين تعيين الأستاذ الخولى مدرسا بالقضاء الشرعى واماما بمفوضية روما أشرف على اصدار :

مجلة القضاء الشرعى ..

مجلة (تتألف من قسم شرعى .. ينتظم صحيح الأبحاث فى أسرار الشريعة الغراء وحكمها ، وقوى الحجج والبراهين فى الدفاع عنها وحماية حوزتها ، وصـادق النظر فى تطبيقها ووقوعها موقع الحاجة والمصلحة من حياة الناس ، وما يجد الممارسون لذلك من جليل الموضوعات التى يعوزها دقيق البحث والنظر ، وما يرون من وقائع الحياة العامة ، وما يحوج الى التقصى والاستقصاء ، ويحسن التنبيه عليه والارشاد اليه ..

وقســم آخر أدبى ، يشتمل الطريف الشيق ، من جديد المباحث ورشيق الموضوعات ، مما لاتندفع حاجـة طالب الشريعة اليه ، وليس للعالم عنه غنى أو اكتفاء (٢) .

وصارت المجلة سجلا للأحكام والوقائع ، والمنشورات الخاصة بالمحـاكم الشرعية ، وحفلت بمقالات تتناول النواحى الشرعية ، وتشرح القوانين الدينية والمدنية ، مع كلمات أدبية من شـعر ونثر ..

---

(١) أنور الجندى ـ النثر العربى المعاصر فى مائة عام ـ ص ٧٢١

(٢) من المناحية العدد الأول ـ ذو العقدة سنة ١٣٤٠ هـ .

وبصـدد استفتاء عن تنفيذ الشريعـة الاسـلامية فى العـدد الثاني ـ جمـادى الثانية سنة ١٣٤١ هـ ـ قال الأسـتاذ الخولى : (ان الشريعة الاسلامية قانون تركيا والأفغان ومراكش ، ولم تنطبق سماؤها على أرضها حتى اليوم) وأنحى باللائمة على المقصرين فى هذا الجانب ..

وفى معرض الحديث عن النظام القضائى فى الاسـلام وعند الغربيين ـ صفر سنة ١٣٤٢ هـ ـ بعد نشر رسالة الشيخ أحمد محمد المولد قاضى محكمة جرجا الشرعية ، التى قومها الأستاذالخولىفى امتحان العالمية ـ بين حاجتنا الى كتاب يتناول نظام القضـاء فى الاسلام ، وأشـار الى كتاب ترجمه أحمـد صفوت بك عن النظام القضائى فى انجلترا ، ثم بين الصعوبات التي تواجه من يتعرض لهذا البحث فى الكتب المأثورة ..

وأخيرا بين مكانة القضاة عندنا وعند الانجليز ، بتصوير تقدير الدولة والناس لهم ، والرواتب التى يتقاضونها ..

ووعد باستمرار تناول هذا الموضوع لاستكماله كلما سنحت فرصة .. ولم تسنح ..

وفى العددين ـ ربيع الثانى وجمادى الأولى سنة ١٣٤٢ هـ ـ عقب على تحريم الخمر فى تركيا قائلا ، (ان من الفضول واللغو أن نتحدث بمضار الخمر ومفاسدها بعد ما حرمها القرآن وكان الحكم عليها فيه أعدل حكم وأبعده عن مغالاة) .

وعرض لموقف الحكومات الاسلامية من هذا التحريم ، ثم لتحريم أمريكا اياها ، واشتدادها فى تنفيذ القانون .. ثم عرض بالتفصيل للقانون التركى الذى وضـع موضع التنفيذ فى الآسـتانة يوم ٧ أكتوبر من نفس العام الذى نشر فيه المقال ، وبين عـدد الحانات

ومستودعات المسكرات ومصانعها المقفلة بموجب هذا القانون بأربعة آلاف ، وأن سبعة آلاف أو ثمانية آلاف من الروم والأجانب سيضطرون الى مغادرة الآستانة بسبب تنفيذ هذا القانون الذى أوصد باب الكسب فى وجوههم ..

وأخيرا تحدث عن جماعة فى مصر تجاهد فى سبيل منع المسكرات ، ودعا الى تأييدها ، ورجا لها نجاحا ، داعيا كل مسلم غيور أن يؤازرها .. فيصلح أمر الشعب ، وتقل الجرائم ، وينتشر الأمن ..

★★★

و (صدر المرسوم الملكى فى يوم ٧ نوفمبر سنه ١٩٢٣ م بتعيين أئمة للسفارات الأربع المصرية المنشأة فى لندن وباريس وروما وواشنطن، وهم حضرات أصحاب الفضيلة الشيخ عبدالوهاب عزام للندن والشيخ محمد البنا لباريس والشيخ أمين الخولى لروما والشيخ محمد حلمى طمارة لواشنطن .. وقد أبحر الأخيران الى منصبيهما الجديدين مساء الجمعة ١٤ ديسمبر ١٩٢٣ م) ..

وطلع عدد رجب سنة ١٣٤٣ هـ من مجلة القضاء الشرعى تحت اشراف الأستاذ محمد ابراهيم الجزيرى يقول فى افتتاحيته :

(نرى حقا أن نعترف بالصنيعة لربها ، وبالفضل لصاحبه ، فنذكر للزميل الأول آثره الخالد فى انهاض هذه المجلة الفتية ناشطة تترسم أحسن المثل فى خدمة قضاء الله وشريعة رسوله ..

لقد كان الأستاذ أمين الخولى محتسبا فى سبيل المجلة بكل عزمه وصبره ، فما تروعه العقبات الجابهة ، وانها لكثيرة ، ولا يعيى بالجهود المبذولة وانها لمضنية) ..

ومن هنـــاك ..

(اتصـــل الطريق الذى بـدأ برحلة رفاعة الطهطاوى الى باريس ، فى رحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوى الى سان بطرسبورج ، ورحلة الافغـــانى ومحمد عبده الى أوربا ، ورحلة طه حسين الى فرنسا ، ورحلة أمين الخولى الى روما وبرلين) (١) ..

***

وكان الأستاذ الخولى قبل سـفره قد وثق من صلته بمجلتى الهلال والمقتطف فنشر (السياحات الاسلامية ؟ فى الهلال ـ يناير سنة ١٩٢٢ ، ونشر بحثه الرائع عن (المدينة العربية فى صقلية) بالمقتطف ـ فبراير وأبريل سنة ١٩٢٣ ـ ولعله رسالة العالمية .. تحدث فيه عن تأثير الاسلام فى صقلية منذ الصـــدر الأول قبل فتحها ، وعرض للحضارة العربية ، مبينا أن المســـلمين ظلوا دعامة الحضارة بها حتى بعد سقوط دولتهم ..

وفى عدد ديسمبر سنة ١٩٢٣ من المقتطف مقال عن (الأسلحة النارية فى الجيوش الاسلامية) لم يخرج فيه عما سبق فى (الجندية فى الاسلام) ، وختم المقال بقوله :

(هل يحرك ذلك أريحية خلفاء هؤلاء الأمجاد ، فينهضوا لبناء مجد عملى واستقلال قوى وحرية صحيحة ؟! اللهم فاستجب) ..

بين روما وبرلين ..

وفى ايطاليا توفر الأستاذ الخـــولى على تعلم الايطالية ، حتى أجادها ، وعلى تنمية ثقافته وتعميقها ، مراقبا الحياة الدينية والتعليم الدينى فى أوربا ، راصدا شئونها ، ليفيد نتائج مقابلة ذلك كله

(١) رشدى صالح ـ الأخبار ١١ مارس سنة ١٩٦٦ م .

بما فى مصر ، متتبعا ذلك فى ايطاليا مقر البابوية ، بمعاهدها الدينية ، وفى المانيا وغيرها بالجامعات المدنية (١) ..

وفى ذلك يقول :

(حين رحلت الى أروبا ، واستقر بى المقام أول ما استقر فى روما ، أو مدينة رومية العظمى ، كما كان يسميها العرب قديما ، وهى مقر البابا وعاصمة الكاثوليكية ، فقصدت الى دراسة الخطط والاساليب التى تتبع فى الدراسة اللاهوتية ، كما نظرت فيما حولى من الدول الدينية القائمة فى عاصمة الدولة المدنية بايطاليا .. وطال تتبعى لهذه الدراسات اللاهوتية فى اقطار أوربية عشت فيها بعد ذلك كألمانيا ، أو اقطار زرتها مجرد زيارة) (٢) ..

(وتابع صاحبنا ما جرى ويجرى من ذلك ، وجعل يتخير منه ما يمكن أن تنتفع فيه الحياة هنا بالاسلام ، سواء ما كان من ذلك فى روما ، أو فى دول غيرها ، تقيم الكليات اللاهوتية لدراسة الدين ، وتابع ارسال تقاريره بذلك الى مصر فى تصميم واصرار ، فكانت تلك التقارير مما هش له التطور الاجتماعى الشرقى حينا ، وان لم يكن أثره العملى واضحا ، لكنه شىء فى الجو ، يسمع وينصت له بعض الأوقات ..

وذاكرة الزمن من وراء هذا كله لا تنسى شيئا ، ولا تضل أبدا) (٣) ..

---

(١) جريدة المصرى ١٩٥٢/٤/٢٨ هل أدى الأزهر رسالته الاجتماعية ؟ .

(٢) الأدب — يناير سنة ١٩٦٢ م .

(٣) الأدب — ديسمبر سنة ١٩٦٤ م .

واطلع على كثير من كتابات المستشرقين امثال لويجى رينالدى والسنيور جلستينو سكيابارتى اللذين اتخذهما مرجعا لبحثه عن « المدنية العربية فى صقلية » ..

وفى سنة ١٩٢٦ انتقل الى برلين ليباشر نفس المهام التى وكلت اليه فى روما ، ويتعلم الألمانية ، ويكتب بها مقالين عن الخلافة فى جريدة (العلم المصرى) التى كان يصدرها طلاب الحزب الوطنى بالالمانية فى النمسا بمدينة « بتسبرج » .. وليس لهما أصل عربى ..

ونشر فى مجلة (دويتش مجازين) التى تصدر بالالمانية والانجليزية والاسبانية بحثا تعيسا عن (شخصية مصر فى التاريخ » هو (صرخة عميقة فى وجه القائلين بأن مصر كانت مستعبدة طوال تاريخها منذ سقطت دول الفراعنة) (١) ..

وظهر فى عدد فبراير سنة ١٩٢٦م من مجلة المقتطف مقال عن (أسلوب الفكر العلمى فى مصر خلال نصف قرن) للاستاذ اسماعيل مظهر ، يعتمد على قاعدة للاستاذ مرتز تقول : أن الحياة الكامنة فى الأمم تتكون من مجموع الآمال الغامضة المبهمة التى تجيش فى صدور الآلاف من بنى آدم ، وهم عاجزون على (كذا) اقناع شهوتها ، أو التعبير عن حقيقتها ، والسقطات والهزائم التى تمر فى عالم الحياة من غير أن يعرفها أحد أو يهتم

---

(١) اعاد نشر هذا البحث باللغة العربية فى عدد شعبان ورمضان سنة ١٣٤٤هـ من مجلة القضاء الشرعى .. وقد علقت الدكتورة عائشة عبد الرحمن على ما جاء فى هذا البحث بقولها : ظل طول حياته يجاهد لابراء تلاميذه ومواطنيه من عقدة النقص تجاه الغربيين ، التى رسخها الاستعمار الطويل ، وكان فى رحلاته الى اوربا يعامل الأوربيين وهو يفرض عليهم كبرياء مصرى عريق ، عمره فى التاريخ الحضارى أكثر من عشرة آلاف سنة .

بها انسان ، والرغبات التى تعيش فى صدور الناس ممتده فى سلسلة من التواصل والتتابع غير متناهية ، أو تتشكل فى صورة ما من صور حياتهم ، والمحاولات التى يتشبث بها الناس ابتغاء الوصول الى حل المشكلات العلمية التى يمليها الطمع عليهم ، أو تبعث بها الحاجة فى النفوس ، وتلك الساعات الطويلة التى ينفقها محبو العلم سدى !! طمعا فى الوقوف على أسرار الطبيعة ـ جماع هذه المجهودات المخبوءة وراء أستار الحياة ، هى التى تكون ذلك الهيكل الذى نسميه (فكر الأمة) ، ولايطفو منه ظاهرا على سطح الحياة الا جزء ضئيل بارز فى صور من الأدب أو العلم أو الشعر أو المنتجات المادية) ..

وقد (خصت بعض عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة وحوادث عظيمة ، امتصت كل القوى العاملة النشيطة ، واندمجت فيها كل العناصر العقلية والتخيلية ، حتى انك تجد أن تلك الحركات قد مضت مستبدة بأمرها ، اما لتخضع كل القوى المنيعة فى عصر ما للعمل فى سبيل ابراز غرض معين ، أو تثبيت فكرة بذاتها ، واما أن تلغيها وقد جرفت أمامها كل شيء الى جو من التنازع والجلاد ، يوجه بكل ما فيه من مختلف الصور والقوى الى تزكية الحادث الرئيسى الذى تلتف من حوله قوة الفكر والعناصر) ..

ومن هذا المنطلق يسوق الاستاذ مظهر حملة على مصر ، اذ (لم يترك فتح نابليون من أثر بين فى تغير أساليب الفكر) .. ويتخذ من الأفغانى سبيلا الى النيل من الثقافة العربية ، ذاكرا أنه تعلم (الأساليب العلمية العتيقة التى عكف عليها العرب منذ القرون الوسطى .. وهو بنزعته السياسية اشبه الأشياء فى عصره بالهياكل الحفرية التى تعيش بيننا بجثمانها ، وان رجعت فى تاريخها الى أبعد العصور ايغالا فى أحشاء الزمان) .. ولما

كانت الثورة العرابية مرتبطة بالحركة الفكرية التى كان الافغانى من مشاعلها فان (نظرة واحدة فى الثورة العرابيــة كافية لأن تثبت لنا أن هذه الثورة كثورة سنة ١٩١٩م لم تمس من الحياة الكامنة فى الأمة شيئا ، وأنها لم تتناول الا ظاهر الحياة بآثار سريعة الزوال ، كتلك الآثار التى تخطها يد الصبية فوق الرمال على شاطىء البحر ، يكفى للذهاب بآثارها مد موجة واحدة من موجاته) .. ولما كانت الثورتان تعبيرا عن فكر الامة ، وفكـر الأمة فى مصر نتاج الفـكر العربى ، فلابد من اهــدار دم هـــذا الفكر .. وهاجم المؤلفات الفلسفية والعلمية والطبية عند العرب لأنها مترجمات لا مبتكرات ..

وقد تصدى الاستاذ الخولى ــ من برلين ــ للرد عليه ناقدا عاتبا فى عدد أبريل ســـنة ١٩٢٦م : ومجمل ما قاله فى دحض اتهام العقلية العربية الممثلة فى جمال الدين أن (هذه العقلية قد ورثها جمال الدين لتلميذه الاستاذ الامام المرحوم الذى كتب منذ حوالى ربع قرن عن حديث السنن الكونية ما كتب ، حـين تفضـل بمناقشة صــاحب كتــاب فلسفة ابن رشــد فى دعوى كهذه ... ولايزال ما كتبه فى حكمته ومتانته خير صورة لأسلوب الفكر العملى) ثم أحاله على ما قال أمثال (سيديو) و (لوبون) وأســاتذة الجامعات الحديثــة عن العقلية العربيــة وانهم واضعو قاعدة (جرب واحكم) .. وبين له أن دارسى آثار العقل العربى يشكون مر الشكوى من امعان القوم فى الأفكار وتقليب الفروض، والمطالبة بالبرهان ، حتى ينتهى الامر الى بديهته ، ويرتكز على المشاهدة او المسلمات العقلية ، ولا تزال قواعد القوم فى البحث (اسلم منطقية وأمتن مما نرى الآن ونسمع) .. وعرض لدعوى اللاهوت فى الاسلام بأن (الاسلام اصلاح عملى حيوى ، لا يقدس

شخصـا ، ولا يتقيـد بشيء ويحض على نظـر ما فى السموات والأرض ، ويجعل استعمال العقل شكرا لمنحه) ، وكشف له عن المؤلفات العلمية الصرفة والفنية العلمية التى اتخذت أساسا لنهضة أوربا ، ولا يزال الكثير منها يدرس فى جامعاتها ..

وختم مقاله بقوله : (آمل أن يتقبل الكاتب الفاضل ما قدمت بروح الحب للحقيقة وطلبها حيث كانت) .

ولكن الاستاذ مظهر عاد أشد عنفا ليقول (مهما كان يقينى فيماكتبت ثابتا ، ومهما كان اعتقادى فى صحة ما أرى فى أسلوب الفكر العلمى عند العرب راسخا ، فانى لا أتوقع مطلقا أن أقنع به رجالا عكفوا على أساليب المدرسة القديمة) ..

ولم يعد الاستاذ الخولى الكرة ، وترك الأمر للأمير مصطفى الشهابى ..

عودة الى مدرسة القضاء الشرعى ..

وجاء الوفديون (١) فألغوا وظيفة الامامة سـنة ١٩٢٧ م ، وعاد الأستاذ الخولى الى مدرسة القضاء الشرعى التى افتتحت مرة ثانية لتزود بطلاب تجهيزية دار العلوم (٢) .. وكان فى ذلك

(١) الوفد حزب شعبى تشكل بعد ثورة سنة ١٩١٩ م

(٢) ظلت المدرسة منذ انشائها تتقاذفها التيارات الفكرية والسياسية ، وكانت على صراع مع الأزهر حتى سنة ١٩٢٣ ، فالغيت ، وحل محلها قسم القضاء الشرعى والتخصص ، ليأخذ من علماء الأزهر طلابا يدرسون ثلاث سنوات ، وفى سنة ١٩٢٧ اعيدت على أساس أن يدخلها طلاب تجهيزية دار العلوم ، وكانت التجهيزية تحت اشراف مدرسة القضاء الشرعى .

الحين قد أضاف، الى اجادته الايطالية والألمانية ، وتعرفه على حركة الاستشراق ، واتصاله بكثير من المستشرقين ـ تمرسه بالأعمال ألدبلوماسية ، بعد أن وضع لائحة لاعمال القناصل ، وأشرف على التحرير العربى ، اذ كان معظم الموظفين من الأتراك وحين حدث خلاف بين سكرتير القنصلية فى برلين وبين الملحق السياسى احيل الملحق الى الاستيداع ، وقام الامام الخولى بعمل الملحق والمحرر .. وظل فى عمله هذا ستة أشهر ، جاءه فى خلالها الاستاذ عبد الخالق حسونة ، فدربه على الأعمال القنصلية ..

وفى مدرسة القضاء الشرعى اخـذ يدرس لطلاب القسم العالى مذكرة فى آداب البحث والمناظرة (ضوابط وقواعد .. تبين صحيح البحث من سقيمه ، وتعين المسموع منه والمردود ، حتى لا يضل المناظر ، ولا يشرد) وضمن هـذه القواعد آداب المتناظرين ، والتصديق الصريح ، والتصديق الضمنى ، والمنع، والتعليل ، والنقض ، والمعارضة ، والتقسيم ، والمناظرة فيه ، واقساما اخرى جزئية كثيرة ، سبق اليها فى كتب عديدة ، لعل اقدمها ما صنفه ركن الدين العميدى الحنفى صاحب كتـاب الارشاد والمتوفى سنة ٦١٥ هـ .. كما يقول الأستاذ محيى الدين عبد الحميد فى (رسالة الآداب) التى طبعها سنة ١٩٢٩ فى هذا الميدان ..

واهمية تدريس هذه المذكرة ترجع الى التكوين الجـدلى للأستاذ الخولى ، وتدعيم قدرته على الحجاج الذى اشـتهر بها ، وكانت من أهم ما تميز به ..

(كان الشـيخ أمين يحب .. أن يستغرق فى الجـدل . يلتذ به ، لذة الفلاسفة وأهل المنطق .. وكان يسلط هذا الجدل العقلى على القضايا الموضوعة امامه ، فلا يتركها حتى ينفذ فيها

الى الأعماق ، وقليلا ما كان يرفع راية الاستسلام) (١) ..

.. ثم ان التزامه بآداب البحث والمناظرة كان سبيله الى الأخذ بالمنهج ، وتمسكه بقواعد واصول أوجب على الباحث ان يلتزم بها ..

وقد درس لطلابه ـ فى هذا العام ـ مذكرة فى الأدب العربى وتاريخه على أساس منهج متحرر لا يلتزم فيه بالتقسيمات السياسية التى جرى عليها مؤرخو الأدب ..

وقد قدم بين يدى القول فيها (تعريفا للعرب ، ومن هم من الناس ، فالعربية ومكانها من لغات الدنيا ، فالادب ما هو قديما وحديثا ، وكيف ندرسه ، فتاريخه ما يكون وكيف يتناول ، حتى نضع بين يدى الدارس تخطيطا لطريق يعرف به مكانه من غايته ، وما قطع فى سبيلها من مراحل) ..

ولم يكن لى سبيل إلا الى الملزمة الاولى من هذه المذكرة التى قال عنها :

(لم اسبق الى هذا المنهج الصحيح الا بما فعله الأستاذ حسن توفيق العدل فى « ادبيات اللغة العربية » اذ كان له التخطيط الأول لتقسيم العصور الأدبية ، بعد عودته من اوربا) .. لكن الدكتور طه حسين قد قال بذلك فى نقد جورجى زيدان سنة ١٩١١ ، وفى الأدب الجاهلى سنة ١٩٢٦ ـ كما سيأتى بيانه ـ وان كان الدكتور طه حسين يعترف بفضل الأستاذ العدل حين يقول :

---

(١) رشدى صالح ـ (امين الخولى .. الفتى الدائم) جريدة الأخبار ١١/٢/١٦ م

« كان أول من حاول أن يبـدأ هـذا التطور أحد المصريين الذين تخرجوا فى دار العلوم أو فى غيرها من المعاهد . ذهب الى أوربا ، ودرس فى احدى جامعاتها ، ورأى كيف يدرس الأدب العربى وتاريخه على نحو ما رآهما يدرسان فى الجامعة التى كان يختلف اليها .. ولكنه لم يزد فيما يظهـر على أن نقـل عنـوان دراسة تاريخ الأدب الى اللغة العربية ، وحاول أن ينظم هـذه الدراسة شيئا ما ، ولكنه فيما أظن لم يتعمق نهج الأوربيين ، وانما عرف ظاهرا منه ..

واذا صدقتنى الذاكرة فقد سـمى منهجه تاريـخ آداب اللغة العربية » (١) ..

.. وفى هذا العام أيضا درس الاستاذ الخولى لطلبة السنة الأولى من القسم العـالى (تاريـخ العقيدة الاســلامية .. بحث تاريخى اجتماعى دينى) (٢) قال فى مقدمته :

(هذا بحث مستحدث ، يراد به تاريخ العقيدة الاسلامية ، ومكانها من الأديان السماوية ، وماذا كان حال الناس حين دعوا اليها ، وكيف تدرج بها التنزيل ، والى أين امتـد بهـا التأويل ، وما مدى هذا الخلاف ، وبم تأثر ، وفيم أثر ، وما كان من ذلك سياسيا ، وما كان اعتقاديا ، مع تاريخ ما كان للعقائد من علم تدورس ، وكتب صنفت ، الى الالمام بحديث التصوف والصوفية ، وما لهم من طرائف ومذاهب ، وأصل ذلك ومأتاه ، ومنزلته من العقيدة الاسلامية ، ومبلغ ما تأثرت به الحياة الاسـلامية من ذلك قديما وحديثا ، الى ذلك العهد الحاضر ، والزمن الشاهد ،

---

(١) فى درس الأدب وتاريخه لطه حسين ـ الأدب ـ ابريل سنة ١٩٥٩ م .

(٢) مخطوط فى ١٧ صفحة حجم الفولسكاب بمكتبة الأستاذ الخولى .

تاريخا تتناول بعده دراسة العقائد على بصيرة وجلاء ، وتعرف به مكانك من سلفك ، ومكان قومك من أمم هذه الدنيا فى حياتها العقلية والدينية ..

وهذا بحث لم يمهد له طريق ، ولم يعبد اليه سبيل ، بل هو بدد فى كتب التاريخ والعقائد ، وطوايا الأبحاث الفلسفية ، وأنا — بعون الله — باذل فيه جهد المستطاع ، ومؤثره بمطالعات ومراجعات ، آمل أن تخطط اساسه ، وترسم طريقه ، حتى يكمله ترداد الدرس ، وتقليب البحث ان شاء الله)!

..و فى نفس العام — كذلك — انتدب للتدريس بالأزهر ، فدرس لطلاب كلية أصول الدين مذكرة فلسفية فى الأخلاق تحت عنوان كتاب الخير (١) .. قال انه (دراسة موسعة فى الفلسفة الأدبية مطبقة على الحياة الشرقية والتفكير الاسلامى)!.. وقال فى اهدائه : (سأل أحد التلاميذ طاليس الفيلسوف : لم أبلغ الوفاء فى شكرك ؟ فقال له طاليس : لا شىء أكثر من أن تقول : هذا ما علمنى طاليس .. فأنا أقول وفاء — كلما ذكرت هذه الدراسة فى الفلسفة الأدبية : هذا ما علمنى أستاذى الكبير المرحوم محمد عاطف بركات باشا ، تغمده الله برضوانه) ..

كان عاطف مدرس الفلسفة الأدبية ، أى الأخلاق ، يترجم فيها عن الانجليزية ، مثل رسالة المنفعة لاستيوارت ميل ، وكتاب الأخلاق لماكنزى ، ولكن ليس هذا هو الهام ، بل العمل المؤثر هو : مزج التفكرين ، الشرقى والغربى ، فى مسألة الخير ، وهو تطبيق المذاهب الفلسفية الخلقية القديمة والمحدثة على التفكير الاسلامى ، دينيا ومدنيا ، وتفسيره بها ... وكل أولئك

(١) مخطوطة .. عندى منها نسخة بخطى فى ٢٤٧ صفحة من القطع المتوسط .

بطريقة لما تستقر فى الجامعة ، رغم أنها عاشت أكثر من ربع قرن .. وتلك الطريقة هى آلا يملى أمالى ، ولا يعطى مذكرات . ولكنه يشرح ليفهم الطلبة ، ثم يكتبوا ما فهموا بأقلامهم وأساليبهم ولهم الله فى الامتحان وأسئلته التطبيقية على صور من نشاط الحياة الجارية المتجددة) (١) ..

وكانت هذه الدروس منطلق كل من الأستاذ الخولى والأستاذ احمد أمين الذى أشار فى كتابه (حياتى) الى أنه اعتمد مذكرات عاطف بك بركات فى الأخلاق ، ثم توسع فى موضوعاتها حتى تكاملت ، وزاد فى طبعاتها الأولى زيادات عدة — تكاد تكون فى كل فصول الكتاب — رأى الحاجة ماسة اليها ..

ولما كان الأستاذ احمد أمين سابقا ، اذ كانت الطبعة الأولى من (الأخلاق) سنة ١٩٢٠ ، والثالثة سنة ١٩٢٥ م ، فقد وضع الأستاذ الخولى فى اعتباره ان يكون جديدا ، فاختار (الخير) بدلا من (الأخلاق) ، وأضاف الى مذكراته اضافات ذات فائدة ، كايضاح لغوى للأخلاق فى العربية واليونانية ، وتعريف للفلسفة قديما وحديثا ، وعلاقة الفلسفة بالدين ، وعلاقة البحث الخلقى بالعلوم الطبيعية ، بالمنطق وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد السياسى ، والسياسة ..

ومن خلال التمهيد للبحث نجد أنهما متفقان تماما حتى فى الأمثلة التوضيحية والعبارات المقتبسة من أرسطو عن تأثير دراسة المبادىء الأخلاقية فى الادارة ..

وعرض الكاتبان مقدمة نفيسة (للاستعانة بها على فهم الأعمال المبحوث عنها فى الأخلاق) .. وقد أشار الأستاذ الخولى

---

(١) اتجاه التطور الأدبى للأستاذ الخولى — الأدب — مايو سنة ١٩٥٩ م .

الى ان الكاتبين فى علم النفس يتعرضون (لتلك الأبحاث ، الا أنهم لايوفونها ، ولايعنون ببيان ارتباطها بالأخلاق) ولذا آثرها (بدراسة منفردة) بذل فيها جهد الباحث الواعي الحريص على تقديم الصورة الكاملة ، وان لم يبعد كثيرا عما فعله الأستاذ احمد امين ..

وقد فرق بين الوجدان والضمير على غير ما فعل زميليه (فالوجدان قوة ادارك اللذة او الألم ، والضمير قوة حكم خلقى ، وحث ، تعقبهما اللذة او الألم .. واذا كانت الكلمتان فى بضع لغات أوربية تشتقان من مادة المعرفة Conscience كما يرى الأستاذ أحمد أمين ـ فان الوجدان يخص بالمعرفة النفسية ، ويخص الضمير بالمعرفة الخلقية الأدبية .. و .. نحن نحتفظ بهذه التفرقة ، ولانقر من سوى بينهما من كتابنا).

وقد اعتمد الأستاذ الخولى كتاب (الأخلاق) فى مراجعه بدليل قوله فى الحديث عن تدرج الحكم الخلقى فى التاريخ : (راجع المنقول عن ماكنزى فى كتاب الأخلاق للاستاذ أحمد أمين بذيل ص ١٤٨ الطبعة الثالثة ، ولم أر من كتابنا القليلين فىالأخلاق من حاول ذلك فى الاسلام والشرق ، وهو ما سنعنى به أن شاء الله فى بحثنا) ...

وبينما نجد الأستاذ احمد امين يوجز القول فى تاريخ البحث الخلقى ، ويتناول الحقوق والواجبات فى الثلث الاخير من الكتاب، نجد الأستاذ الخولى يهتم بالمقاييس الخلقية عملية ونظرية ، لتقدير قيم الأعمال ، حتى يمكن الحكم عليها) . ومن ثم يعرض للعرف والتقاليد ، وللقانون ، على اسس وضعية او الهية ، ويبين ان الأخلاق منطق الارادة ، و (ما يضبط تلك الارادة اما القوة الشهوية من ميل وعاطفة واما الادراكية من عقل وفكر واما منهما معا وعلى هذا توزعت مذاهب الباحثين) بين الغاية والواجب

والكمال ومن هذه المذاهب الثلاثة يكون مدخله الى الرواقيين الذين يمثلون مذهب الواجب، والسوفسطائيين والقورينائيين والأبيقوريين أصحاب مذهب الغاية ، فالسقراطيين أصحاب مذهب الكمال والتوسط ..

وقد توسع الأستاذ الخولى فى شرح هذه المذاهب الثلاثة ، مستطردا الى مذهب القانون الطبيعى ومذهب القانون العقلى .. وخص فلسفة أفلاطون وأرسطو بمزيد من الايضاح والربط بالفلسفة الاسلامية ، واورد نقده لهما ، ثم أضاف ما جاء فى كتاب (الأخلاق) للأستاذ أحمد أمين نقدا لنظرية أرسطو ..

ثم انتقل الى مميزات وخصائص أسلوب الفلسفة الحديثة وأفرد مذهب النشوء والارتقاء ببحث مستفيض ، فاهتم بالأدوار الكبرى للتطور ، وبتاريخ الفكرة مما قبل اليونان ، ثم نقدها بأن الأدلة الحفرية ومشاهدات الأحياء لم تنهض ببيان الحلقات الموصلة بين الأنواع المختلفة والتى لا تزال تعتمد على العرض فقط .. وبين أن المذهب ــ على صورته هذه ــ لايتنافى مع الدين الاسلامى ، وان أقام قيامة رجال الكنيسة عليه لأنه يخالف تفصيل الخلق كما جاء فى التوراة ..

وأخيرا تناول تاريخ علم الأخلاق (من يوم عرف الانسان البحث الى الآن) ماضيا (فى بيان ذلك على ترتيب أدوار التاريخ العام الثلاثة ، قديم الى القرن الخامس الميلادى ، متوسط الى القرن الخامس عشر ، حديث الى اليوم) ..

ولكنه لم يمض فى بحثه الى نهايته .. فالمذكرة تقف عند الدور القديم ، بل الى ما قبل الأبحاث الاغريقية التى ــ كما يقول المنصفون من غير الشرقيين ــ ليست الا الانعكاس الشاحب للأضواء التى ظهرت على شواطىء النيل ودجلة والفرات والسند والكنج وفى سهول ايران والصين ، من الحضارات الشرقية القديمة ..

واذا عرفنا أن المذكرة بقلم احد طلابه نقلا عن محاضرات الأستاذ أدركنا أن الزمن المحدد للدراسة هو الذى حدد مسار البحث ، ووقف به قبل تمامه .. ولعل هذا التعليل ينصرف الى كثير من محاضراته وابحاثه التى لم تتم ..

فى الجامعة ..

وفى ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٨ عين مدرسا بالجامعة المصرية .. ليكون أحد اركانها ، بل احد بناتها .. أفرغ جهده فى تدعيمها ، ووضع القواعد من حريتها واستقلالها ومناهجها ..

كان يتقدم الجيل بعد الجيل ، يرتاد ، ويرسم ، ويعمر أرضا جديدة ..

ولم يكن الجديد منطلقا من الفراغ .. خاصة وأن الميدان الذى كرث حياته من أجله هو ميدان العروبة والاسلام ، وللعروبة تاريخ وتراث ، وللاسلام كتاب العربية والانسانية الأكبر ..

ومن ثم كان لابد من قتل القديم بحثا وفهما وتهذيبا ، حتى لايكون التجديد تبديدا ..

واذا كان الماضى ركيزة الحاضر ، ففى وسع الحاضر أن يعمل فى الماضى ، وتتفاعل الحضارتان مؤذنتين بالغد الذى نرجوه ..

ولما نظر الأستاذ الخولى فى (التراث) وتعرف الى ما قدم الأولون للأجيال الخالفة ، استطاع بثاقب فكره أن يتبين حاجة هذا التراث الى ما وصل اليه الفكر الانسانى من علم ومعرفة ، حتى يؤتى ثماره ، ويظل ـ على الدهر ـ فى قدرة على الحياة

والنماء .. كما استطاع أن يحدد دوره ومن أين يبدأ الطريق . وفى ذلك يقول :

« القدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الاسلامية ، قد قسموها ثلاثة أقسام :

علم نضج واحترق ، وهو النحو والآصول ..

وعلم نضج وما احترق ، وهو علم الفقة والحديث ..

وعلم لا نضج ولا احترق ، وهو علم البيان والتفسير ..

ويشاء الله أن يكون علم البيان وعلم التفسير من أول ما أقوم على خدمته فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .. فيكون قول القدماء أنفسهم بعدم نضجها أذنا صريحا منهم بالمحاولة المجددة فى حياة هاتين المادتين ، وقد تقدمت الى هذه المحاولة تحت الشعار الذى اتخذته لنفسى ، وهو أول التجديد قتل القديم فيها) (١) ..

وليس معنى ذلك أن جهد الأستاذ الخولى وقف عند حد أن يضيف مصنفا الى مصنفات البلاغة ، أو يؤلف كتابا فى التفسير .. لكنه الجديد الذى صنع مدرسة ، لها تقاليدها الفكرية وأسسها المرسومة ، وأعلامها الثائرة ، ولها القدرة على أن تقلب التربة ، وتبذر البذور ، وتسقى الزرع ، وتفيض بالثمار ..

---

(١) ص ٣٠٢ مناهج تجديد للأستاذ الخولى .

التجديد فى الدين

..فى مقال للأستاذ الخولى بمجلة الرسالة أول فبراير سنة ١٩٣٣ – ذكر أن (التجديد فى الدين) :

(حقيقة صحيحة صريحة ، لافكاهة فيه ولا مروق – ان شاء الله – ففى الدين فكرة واضحة عن التجديد ، تبين ناموسا كونيا ، وتنبه الى سنة اجتماعية مطردة ، لاتتبدل ، اذ ورد فى الحديث : « ان الله يبعث على راس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها » .. أو ما هذا معناه) .

ولما كان الخوض فى هذا الميدان مظنة اتهام من المحافظين – خاصة وأن تجربة الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى) ليست بعيدة – فقد لجأ الأستاذ الخولى الى فهم القدماء للتجديد الذى هو (نفع الأمة ، ودفع المكاره عن الناس ، ونصرة الحق وأهله ، واحياء ما اندرس من أحكام الشريعة ، وما وهى من معالم السنة ، وما خفى من العلوم الدينية) ..

وذكر انهم يتحدثون عن تغيير الحياة ، واستحداث أشـــياء تحتاج الى تناول جديد ..

وحسبك من قولهم فى معنى التجديد ما ورد فى (بغية المقتدين ، ومنحة المجدين ، على تحفة المهتدين ٠٠ الخ) للشيخ محمد المراغى الجرجاوى — من عبارة النظم والشرح ممتزجين :

(انما كان مجددا لأنه اى المبعوث فينا مجتهد ، وشأن المجتهد التجديد) ، (ولئن اكتفوا فى الأزمنة الأخيرة بالاجتهاد المفيد ، فبحسبهم أن ناطوا التجديد بالاجتهـــاد ، وفسروه به ، وأبعدوه عن التقليد الذى هو آفة العقول وعلة الجمود) ٠٠

ومن ثم وجد سبيله الى النيل من الذين (يقاتلون المبعوثين لهـذا التجـديد ، ويجمدون على ما وجدوا عليـه آباءهم) ، لأنه (اذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتدينين وفضلا من الله ونعمة) ، فانهم (لا يأثمون بجمودهم اثما واحدا بل آثاما كثيرة اثما لانهم لا يتجددون واثما لانهم لا يجددون واثما لأنهم يعوقون المتجددين المجددين ، فى تعنت أصم ، لا يميز الخبيث من الطيب مهما تبينا ، ولا يعرف داعى الله من داعى الشيطان) ٠٠

وبين دور مصر (المتجددة بجهـاد شبانها) فى ذلك ، بأنها (قد اضطلعت من تجديد الدين بالحظ الأوفر ، وساهمت فيه بالنصيب الأكبر ، على سعة الامبراطورية الاســـلامية ، وترامى أرجائها وانتظامها الواسع لأفيح أقطار الدنيا القديمة) ..

وعرض لثبت المجددين من القرن الأول الى الرابع عشر الهجرى ، مبينا (أن الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية رجال أنجبتهم وآوتهم ، وعلمتهم مصر ذات الفضـــل العتيـد على المدنية منذ عرفها بنو آدم) ...

وبهذا تبين لنا من أول لقاء مباشر بالتجديد ، أن الأستاذ الخولى يرمى الى مشروعية التجديد وضرورته ، ويؤكد دور مصر فى هذا المجال ، حتى يقطع على المتفيهقين الطريق وحتى يحفز الى العمل فى هذا الميدان من يجد فى نفسه القدرة على أن يركب الصعب ..

★★★

لكنه ينظر من حوله فلا يرى (فى الجامعتين) ـ الأزهرية والمصرية ـ الا (محافظين مسرفين ، ومجددين مسرفين) وقد يرى هؤلاء حيث لا يتوقع ان يراهم ، ويجد أولئك حيث لا يدور بخلده أن تقع عينه عليهم ، كما يرى فى الناحيتين من لم يتجددوا ولم يحافظوا ..

لـذلك .. لم يجـد من هؤلاء وأولئـك من يطمئـن الى أساليبه :

(ولكل أسلوب فكرى مضـطرب فاسـد . ينتهى به الى نتائج تزيد مسافة الخلف بينه وبين الآخرين) ..

واكتفى بأن شرح لنا خصائص أسلوبهم ، وكأنما يقول لنا : ان الطريق خالية ، وما أحوجنا الى من يرتادها ، فهل من رائد جديد ، يبين لمن أسلوبهم الفكرى :

(يجول العقل فى مسارح الكون على أن يظل حبله فى يدهم ، أو يد الدين ، كما يفهمونه ، لا كما هو فى طبيعته وحقيقته) ..

... ويكفكف من غلو من (يرسلون العقل ، أو قل يرسلون أنفسهم ارسالا ..

فكما يسمون النتيجة التجريبية علمـا ، يسـمون النتيجة النظرية علما ، ويسـمون الفرض الاضطرارى علمـا ، ويسـمون

الحل المؤقت الذى يبعثه العجز عن الحقيقة الصحيحة علما ، فيزعمون أن ذلك كله من مملكة العقل التى هو التى هو فيها حر مسيطر) .

ويحد من عنف من (يهجون على مخالفهم فى الفكرة ، قبل تأييد فكرتهم ، ولو كان هذا المخالف يتنـاول الموضوع من غير الناحية التى يتنـاولونه هم منها ، وبطريق غير طريقهم) معرفا الجميع بأن (الوشائج متصـلة بين الدين والفن ، وبين الدين والعلم ، فى أشياء كثيرة ، فالأنبياء والرسل مثلا من حق التاريخ ، والقرآن من متناول الأدب والتاريخ ، فلا جدوى على الحقيقة مطلقا فى أن ينتهى باحث فى مثل هذه الأشياء الى رأى استقرائى او حكم تاريخى فيكون همه تأكيد أن غيره من كلام الدينيين خداع أو اتجار أو نحو ذلك ، مما يعزز حكما ، ولايدعم رأيا ، بل لاينفى عنه مظاهر ضعفه ، على حين يثير المعتقدين فى غير طائل ويفقد الحقيقة فرص الظهور والاتضاح) ..

مقال يوضح لنا ما هو مقدم عليه من بيان ما بين الدين والعلم، وما بين الدين والفن ، ومن تناول القرآن تناولا أدبيا وتاريخيا .

ومن ثم يمسك بزمام المبادرة ، لكن كمن يستخدم السيف مجسا فى طريق يكمن خلفه الأعداء .. فهو يهاجم فى صورة انكار ، وينكر فى حين يحمل هؤلاء وأولئك مسئولية (تمزيق وحدة الشبان ، وافساد الجيل ، وقطع أو اصر التآلف النفسى والتمازج الروحى قطعا يعوق التعاون الأجتماعى الذى يتطلبة الوطن ملحا من هذا الجيل) (١) ..

وهو يحس دون شك أنه مقدم على مخاطرة .. يعرف اولها ولا يعرف آخرها .ومن ثم يضع بين يديه علامات على الطريق .

---

(١) أنظر مقال (الأساليب) ـ مجلة الرسالة ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ م

(ان مالا يعقل قد يعتقد ، وان العقــل ومنطقــه شيء ، والاعتقاد وسلطانه شيء آخر ..) (١) ..

ثم يقول (لا يقال لناقل الخبر انك خاطيء ، بل يقال انك كاذب أو غافل أو غير متحر ، أو ما الى ذلك) (٢) ..

فاذا ما نشر الأديب عبد القادر على الجـاعونى مقـالا عن الأوزاعى (٣) يقول فيـه بعـدم تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى ، وجد الفرصة ليؤكد ما بين الدين والعلم ، فقال :

(انى أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعى غير مقبول من الوجهـــة الاجتماعيــة والنفسية) .. وبين خطأ اســتنتاجه ، وما ذهب اليه من الرأى (٤) .

ولكن الأديب صالح بن على الحامد العلوى اعترض على ما يقول به الاستاذ الخولى من أن الأوزاعى تأثر بالفقة الرومانى ، ولم يأخذ منه ، فقال :

(مهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر ، فكلا المعينين يجريان الى مدى واحد وهو أن يكون فى اصل الفقة الاسلامى ومزاجه شيء من الفقة الرومانى) (٥) ..

فبين الأستاذ الخولى أن :

(التأثر قد يكون سلبيا صرفا ، فنقول ان الوثنية العربية

(١) مشهد ومكة   الرسالة ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

(٢) رد على الدكتور عبد الوهاب عزام ـ الرسالة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

(٣) الرسالة ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ .

(٤) الرسالة ـ اول ابريل سنة ١٩٣٥ م .

(٥) الرسالة ـ ١٣ ابريل سنة ١٩٣٥ .

قد اثرت فى تحريم الاسلام للتصوير والنحت ولن ينتهى هذا الى أن فى مزاج الاسلام وأصله شيئا من الوثنية الجاهلية ، والنظر يقضى بأن التأثر السلبى قد يكون أقوى أنواع التأثر وأشدها ، فلا محل للتسوية بين التأثر والأخذ) ..

ثم قال :

(ان الرومانية حكمت الشام قطعا ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعا ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها للشام قبل الاسلام قطعا ، وكانت لها شرائع مدنية وعسكرية ومالية قطعا وكان الاسلام هو الذى خلف على ذلك كله بلا شك ، وكان لهذا على طول الزمن أثره الذى تختلف به الشام عن الحجاز مثلا ولابد ، والأوزاعى ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية ، فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرهما المحتوم فى تكوين الأوزاعى ، ولهذا التكوين أثره فى فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما) (١) ..

ولم يقتنع السيد العلوى بهذا المنطق الواضح ، أو لعله اقتنع ، لكنه وجد أنه :

(لم يأت الأوزاعى الا والشام فى دينه وروحه وثقافته اسلامى صرف ، ولم يبق به من ثقافة الرومان عين ولا أثر ، فالأوزاعى وليد بيئة اسلامية ، فتسرب الثقافة الرومانية اليه بعد أن اندثرت وسحب الدهر عليها ذيل النسيان ، وحل محلها ما هو خير ثقافة وأعدل حكما - من البعد بحيث لا يستسيغه عقل المتثبت الحازم) (٢) .

---

(١) الرسالة - ٣ يونيه سنة ١٩٣٥ .

(٢) الرسالة - ٢٢ يولية سنة ١٩٣٥ .

فختم الأستاذ الخولى المناقشة بقوله :

(أقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها ، فتقول لى : قد مضى على الرومان قرن أو اكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ، فرحم الله أسلافنا ، وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال ، وتقلبت أزمان ،ورحم الله منطقى مع هذا التراث ، مادام قرن أو أكثر لا يدع عينا ولا أثرا وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والغرس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فان البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ، والغارس فى مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطقى أنا ..

... واذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى اكرامه ، لعله لايحرص عليها ، لانه لايحب أن يخالف سنه الله التى لاتتبدل) (١) ..

واشترك مع نخبة من العلماء فى تأليف (تاريخ الحضارة المصرية) تناول فيه (الحياة الدينية فى مصر الاسلامية من ظهور الاسلام الى مطلع العصر الحديث) (٢) .

فقال عن وحدة الأديان :

(الدرس العلمى لظاهرة التدين والأديان المختلفة يمضى على منهجه المحرر ، فيحدث عن نشأة ، وتطور ، ومقارنات ، ونواميس تنظيم الحياة الدينية ، وسنن اجتماعية لها .. ونحو ذلك ..

---

(١) الرسالة ـ ١٦ اغسطس سنة ١٩٣٥ م .

(٢) المجلد الثانى من (تاريخ الحضارة المصرية) نشرته المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر .

.. وهو اتجاه يخشى ان يجد فيه صاحب دين سماوى : مسلما أو مسيحيا أو غيرهما شيئا من غضاضة ، أو مساسا بكرامة عقيدته ، اذا جمع المدرس بينها وبين ألوان من التدين البدائى أو المتطور ، لا يعدها صاحب الدين السماوى الا أساطير أو خرافات ، أو تحريفا ، شوهت عقائد سليمة الأساس ، كريمة المصدر) (١) ..

فالمقارنة لاتسىء الى الأديان السماوية فى شىء باعتبار (وحدة الأديان التى يقررها القرآن بوضوح وصراحة تكررت فى مثل : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين، ولا تفرقوا فيه .. الآية » فهو يقرر ان الحقيقة التى شرعها الله فيما وصى به الرسل المتعددين واحدة .. والوحى الذى أوحاه اليهم جيمعا متماثل .. وهذه الرسالات قد دخل عليها مع الزمن من التغيير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى (٢) .

وباعتبار (أن كل أمة قد جاءها نذير ، أى انه قد ألقيت اليها رسالة مبلغة ، كانت مناسبة لوقتها ، ملائمة لحالها ، وهو ما تقرأه قويا بصيغة القصر فى آية .. « وان من أمة الا خلا فيها نذير » .. وتظاهرها الى حد ما آية .. « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال : ان ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها على يد نذير ، وله أصل سماوى ... ثم تغير مع الزمن كما تقضى بذلك طبيعة التطور) (٣) ..

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٥٢٩ .
(٢) تاريخ الحضاره المصرية جـ ٢ ص ٥٣٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٣١ .

وبذلك يفسر ما جاء فى الوثنية المصرية عن الميزان الأخروى، على النحو الذى فى الكتب السماوية بعد ..

ثم تناول ملامح الشخصية المصرية الدينية ، متمثلة فى :

١ ـ عمق الروح الدينى .. وأورد قول هيرودوت (ان المصريين اشد البشر تدينا ، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجتهم فيها ، فان صورهم بجملتها تمثل ناسا يصلون أمام الرب وكتبهم ـ على الجملة ـ أسفار عبادة وتنسك) ..

٢ ـ قوة الايمان بالحياة الآخرة .. (فعقيدة البعث فى النفس المصرية هى محور النشاط العلمى فى وجودها ، وهى أوضح البواعث والدوافع فى أعمالها ، وهى سر تاريخها ، وخلاصة فلسفتها فى تفسير حياة الكون والانسان) ..

٣ ـ سعة الافق الدينى .. (ان هذه الشخصية المصرية الدينية قد هيأت لمصر المشاركة فى الأديان الكبرى ، بمعرفتها .. ولقائها .. وتقبلها فى أناة ويقظة .. وتمكينها امن الحياة فى بيئتها الاعتقادية ، ثم الوقوف الى جانبها بعد التمثل الصحيح لها ، وقوف المستشهد العميق الايمان) (١)

وبعد أن تكلم عن (حيوية مصر فى الاسلام) و (اسلام مصر .. بلا نحل ولا مقالات اعتقادية) و (مصر .. وراء الخلاف الفقهى) . قال .

(يبدو اسلام مصر منسق الجوانب ، متماسك الأجزاء ، فى روحيته التى قادت النصوص .. وفى ايمانه الذى لم يهش

---

(١) تاريخ الحضارة المصرية جـ ٢ ص ٥٣٤\٥٣٦

للجدل ... وفى فقهه الذى ارتفع عن الخلاف المذهبى المفرق ..
ودعا الى التوفيق الموحد منذ بضعة أجيال ..

وحاول فعلا .. وكل اولئك يؤيد ما تمثلنـــاه من ملامـــح
الشخصية المصرية الدينية .. فى عمق تدينها .. وسعة أفقه ..
وادراك الجوهر الصافى للدين) (١) ..

.. بهذه الخطوط السريعة للدراسة الطويلة التى قدمهـــا
الأستاذ الخولى نستطيع أن ندرك لماذا وقف طويلا عند الوحدة
الدينية ، ولماذا أكد عمق تدين مصر ، وســـعة أفقه ، وصـــفاء
جوهره ...

أحسب انه يشير الى ما يرمى اليه من تجديد قائم على
سعة الأفق وصفاء الجوهر وسلام دينى كما يشير الى واجب
رجال الدين نحو المجددين ، وهم يرثون حضارة ، هذه معالمها
الدينية ..

★ ولما قضى (أكثر النصف الأخير من سنة ١٩٥٦م فى أقطار
اسلامية فسيحة ، مثل أندونسيا والملايو والصين والهند) تعرف
فيها ـ ما استطاع ـ الحياة الدينية فى هذه البلاد فخرج (من
ذلك كله بأن هنـــاك من الأساليب الاجتماعيـــة العـــامة ، ومن
الأسباب الدينية الخاصة ، ما يوجب العنـــاية الجادة بالحيـــاة
الدينية ، عناية تتعاون فيها الأقطار الاسلامية المختلفة . لو وجدت
هيئة عاملة ، تستطيع تركيز قوى هذه الأمم وتوجيهها ، وتقوم
مصر فى ذلك بدور خطير ، لو يسرها الله لما هيئت له من رسالة فى
هذا الشأن) ...

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٥٥٥ .

ومن ثم كانت دعوته الى (سلام دينى يحتاج اليه الدين والحياة :

(... ان النتيجة المنطقيــة لهــذا الجــدال المصــطرع ، والخلاف الحادبين الأديــان هى القضــية المعــروفة : تعارضــا فتسـاقطا .... كل واحد قد قام من جانبه بكل ما يستطيع عقليا وعمليا ، لابطال ما عند مخالفه ، ونقضه ... ولا يسلم له ما فى يده الا حين يحس أنه فرغ من ابطــال ما عند غيره ، وأتم ذلك فى البيوت والمعابد والمعاهد والجامعات و ... و ... وبهذا أقام كل فريق الحجة على ضلال الآخر ، فبطل الكل فى تقدير الكل ، أو بطل الكل أمام من لا يدخل فى طرف من هذه الأطراف من الأحرار بل ان لهذا الصراع أثره القريب والقوى على كل حقيقة دينية عند أشد معتنقيها حماسا لها ، ويقينا فيها ، لأن الضجيج المثار حولها ، والابطال الدائم لأسسها ، له أثره النفسى الذى لاينكر فى زعزعة ثقة الواثقين ، فكيف بالضعفة والمتشككين !!

فهل نترك هذه الحرب الغريبة الدائرة الرحى سرا وعلنا ولخير من هذا ؟ لا أحدث عن الحياة والأحياء ، ولكن أسأل أصحاب الدين أنفسهم ، الخير الأديان والتدين هذه الحرب ؟

واذا كانت هذه الحرب لشىء من خير الأديان والتدين فى وقت ما ــ فهل هى لخير الأديان والتدين الآن ؟ وفى هذا الوقت الذى انتزعت فيه من أراضى التدين تلك المساحات الشاسعة التى تربو على نصف الكرة الأرضية ؟) (١) .

★ ويشــغل الأســتاذ الخولى ــ فيما شغل نفسه به من قضايا الاسلام ومشكلاته ــ بقضية الرق فى الأسلام ، تناولها

(١) المجلة ــ مايو سنة ١٩٥٧ م .

أكثر من مرة ، لما لابسها من جمود الفكر وجموح التعصب ، حتى ارتبطت بمسائل كثيرة تتعارض مع سمو الاسلام ونبل تشريعه ، وأخذه الحياة بتعاليم البذل والتضحية من أجل الآخرين .. .

وقد عالج هذه القضية على أساس من الوعى الكامل للتعاليم الاسلامية ، وللبيئة التى نشأت فيها هذه التعاليم مبينا أن فهم الدين يتأثر (فى كل عصر بالمستوى العقلى والاجتماعى لأهل هذا العصر ، اذ لن يستطيع الناس أن يسبقوا زمنهم ، ولا أن يرتفعوا على الدرجة الاجتماعية التى يضعهم فيها وقتهم ، ودورهم فى الحياة) ...

... (ومتى سلمت بتأثر الفهم الدينى فى عصر من العصور بحال المجتمع فى ذلك العصر ، سهل عليك أن تتقبل ما أعرضه عليك من فهم الاسلام بالأمس فى مجتمع تستطيع أن تتصوره) ..

.. (فالحياة بدوية التقاليد ، عمليا ، واقتصاديا ، ونظاميا ، وحكوميا ، على ما يتمثل القارىء من هذه الحال .. مع تقدير ما يمكن أن ينعكس على تلك البداوة من أضواء للأوضاع الاجتماعية فى مجتمع الدولتين الفارسية والبيزنطية ، وما يمكن أن يتسرب من تلك الأضواء بسبب الاتصالات المحتملة بمناطق الشرق الأقصى مثلا ، أو الغرب الاغريقى الرومانى ..

ومع التوسع والتفاؤل فى الانعكاسات على حياة الجزيرة العربية ومستواها ، يظل القارىء يقدر المستوى الاجتماعى والفكرى للبيئة التى ظهر فيها الاسلام ، ثم يقدر تأثير هذه البيئة على فهم أهلها للاسلام ، وفهم من تلقوا عن أهلها هذا الاسلام ... فيدرك لماذا بدت فى هذا الفهم اتجاهات مثل تقبل امتيازات لقبيلة قريش ، أو لأسرة كبنى أمية ، أو بنى العباس ، أو بنى هاشم ، وكيف يسند التشريع هذه الامتيازات ويبذل الجهود العقلية

لتأييدها ، ولماذا يقرر تفاوت الناس فى مراكزهم ، حتى يكون بعضهم كفئا لبعض ، وبعضم ليس كفئا ، وماسبب هذا الصراع المدمر بين العصبية والشعوبية فى حياة تلك المجتمعات . وكيف يستقر الأمر فيها - مع اسلامها - على نظام من الحكم الفردي تكون فيه الأرزاق والأرواح فى يد واحد أو آحاد معه ، ولا يجدون فى ذلك بأسا على تدينهم ؟ وكيف ؟ وكيف ؟ من ظواهر أخذت صورة النظم الاسلامية المقننة ، لن نتعرض لشيء منها الا (الرق) لاتصاله أوثق الصلة بمسألة العنصرية ، تلك المسألة الاجتماعية الهامة التى أحب أن يعرف العالم رأى الاسلام فيها ..

... ومع ما يجب أن نذكره من ترغيبهم فى حسن معاملة الرقيق ، أو الحث على تحريره ، أو ما الى ذلك ، فان الرقيق - على كل حال - كان موردا اقتصاديا ، ومادة مالية ، وأشياء فى المجتمع لا ترتقى الى مستوى الأشخاص ، وكان العتق هو الذى يسبب لهم صفة المالكية ... ويعقد بينهم وبين سادتهم الذين ملكوهم وأعتقوهم صلة كصلة النسب ، توجد بينهم رابطة أبدية هى الولاء ...

... وبالنظر الى أثر هذا الفهم على قضية الرق بالذات ترى أنه لا يعطف عطفا ايجابيا على تطور الانسانية فى سبيل التخلص من هذا الرق والقضاءعليه ، مادام يبقى الحرب سببا لاسترقاق الاسرى ، والحرب لا تزال حتى اليوم مشغلة البشرية الحمقاء)) ...

.. بهذا عرض لنا الأستاذ الخولى القضية ، بعد أن مهد لها بضرورة تجديد النظر وتطويره مع تطور الفكر الانسانى .. ثم بين موقف حركة الاصلاح الاسلامية التى (انفعلت بما حواليها من التطور والتحرر الفكرى فجعلت تفهم الاسلام فهما أكثر حرية

وأوسع أفقا) لكنها (قد تأثرت كثيرا بالهجوم السياسى العنيف على الشرق فى صور مادية ومعنوية ، من بينها الهجوم على الاسلام فبدت فى تفكيرها نزعة دفاعية تمنى بتبرير الأوضاع الاسلامية ، لأن لها نظائر وأشباها فى عقائد الناس ونظمهم ، وما الى ذلك من دفع اللائمة بأى وجه أو حجة ، أو تنظير أو اعتذار ، ولم يتجه الجهد الحق الى فهم الاسلام فهما أصيلا أو عاما شاملا ، أو مؤسسا على منطق معين ، ومنهج خاص) ... واذ كنا نجد فى التفكير الاسلامى القديم تطلعا الى (مشارفة عالم الملائكة) بل يدنى مستوى الآدمية الى (عالم الألوهية) (١) ..

فانه (لا يليق بنا اليوم أن نقبل فى فهم الاسلام ومقرراته ذلك الأسلوب اليائس المتداعى ، الذى يقوم على أن ليس فى الامكان أبدع مما كان من تقرير الفقهاء والمفسرين القدامى ، وواقع حياة المجتمع الاسلامى ، على عيوبه . فى عصبية الجنسية العنصرية ، وطبقيته المسترقة ، التى تبيع الانسان وتمتهنه بالرق (٢) .

.. وفى بحث كتبه للمؤتمر الاسلامى (٣) - فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ و (لا يعرف ماذا صنع به) - عالج القضية على الأساس الذى كان يجب أن تأخذ به حركة الاصلاح الاسلامية .. فبين أن العرب كان لهم (نصيبهم من نظام الرق ، وهم أولئك القوم البداة السذج الذين تبهرهم المظاهر ، وتزدهيهم المفاخر ..

---

(١) انظر (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) للامام الغزالى - ص ١٥ .

(٢) مجلة العربى - أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

(٣) نسخة بالآلة الكاتبة فى مكتبه .

والرقيق فى هذا الجو مفخر ومظهر ، وزينة ووجاهة ، فوق الذى فيه من رعاية المال ، وتوفير الشراء والخدمة الطيعة ..

وبكل أولئك تشتق مهمة الاسلام فى الصرف عنه ، والتنديد به ، والتدبير للقضاء عليه ، فكان الظن أن تكون محاولة الاسلام فى هذا السبيل متئدة ، متأنيــة ، متلطفة ، فى شىء من التباطؤ ، لكثرة ما يعمل لتغييره من نظم ، هى بالدين أمس والى جوه أقرب ، أو هى اقل أهمية فى حرص الناس وتوفير منافعهم وللدائذهم من ذلك الرق ..

فهل كان الأمر كذلك فى نظر الاســلام الى الرق وتــدبيره لتغييره ؟

هل خفف وقوعه وشيوعه وقوة الرغبة فيه حس الاسلام بسوء اثره ؟

هل عنى الاســلام بتغيير نظم غير الرق واخر اهتمــامه بمقاومه الرق الى ما بعد غيره ؟

هل أثر حرص السادة على الرق وانتفاعهــم على تــدبير الاسلام لمقاومته ؟

هل كانت مقاومة الاسلام للرق فعالة كافية للقضاء عليه مع الزمن والتطور ؟

بعد هذه التســاؤلات التى تكشف عن منهج تفكير الاستاذ الخولى ــ من حيث المواجهة الأصلية دون ان يتخذ آراء الآخرين مرآة أو قنطرة عبور .

بين (حسن الاسلام نحو الرق) على أساس أن

(الاسلام يسمى الانسان خليفة الله فى الأرض ·· وهو يأمر الملائكة بالسجود له ·· وهو يكرمه ، ويفضله ·· وهؤلاء الأرقاء بشر من أبناء آدم ، فهل ترى القران نسى أو تناسى لأى سبب هؤلاء الأبناء الذين قست عليهم ظروف العيش العملية ؟

···· ان القرآن لم يستعمل كلمة (الرق) ، ولم يسم هؤلاء الادميين الارقاء بل سماهم تسمية تؤكد انسانيتهم فى تقديره ·· انه يسميهم الرقاب ، والواحد منهم رقبة والرقبة جزء من الجسم الانسانى أصيل فى الحياة ، وموضع لهدم تلك الحياة بضرب الرقاب ، فوق ما فى العدوان على هذا العضو من علامة الذل والاهانة ···

··· والى جانب ذلك أيضا لم يستعمل كلمة (العتق) ، بل استعمال مكانها (التحرير) ، ومن معانى الحر فى العربية الأصيل ، والكريم ، والخالص الجوهر ، ففى الاستعمال القرآنى (تحرير رقبة) اشعار قوى بانسانية هذه الرقاب ، بل بأصالة انسانيتها ، كما استعمل (فك رقبة) ، وفى هذا الفك لفت قوى الى ما فى وضع هؤلاء الآدميين من سجن وضيق وأسر ··

··· ذلك هو الحس القرآنى السامى الذى كان الرسول عليه السلام يتمثله تمثلا قويا ·· فينهى عليه السلام القوم عن أن يقول أحدهم : عبدى وأمتى ، وانما يقولون بدل ذلك ، فتاى وفتاتى ، لأنهم كما قال عليه السلام ، اخوانهم) ·

واستنتبع ذلك بيـــان (مبادرة الاسلام الى مقاومة الرق) فقال :

(ان هذا القرآن قد قدم تأمين الحرية الانسانية على تأمين الحاجة المادية فبدأ فى بيـان كبرى العقبات بفك الرقبة ، وثنى بالاطعام فى يوم ذى مسبغة ، وهو تقدير جليل للحرية ، وصدى كريم للاحساس الاسلامى بقسوة الرق ، وقبحه ، وثقله ، وكم يؤكد ذلك وما اليه من سمو النظر وكرامة الهدف ، ما يكمل به القرآن بيان الايمان فى هذه السورة ـ البلد ـ وهو : (التواصى بالصبر ، والتواصى بالمرحمة) ..

اما (مقاومة الاسلام للرق) فتتجلى فى أن :

(أ) القرآن لا يسترق أحداً .. لأن معاملة الأسرى المغلوبين تحددها قوله تعالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعـد واما فداء حتى تضـع الحرب أوزارها) .. ولا نعـرف فى القرآن أية أخرى تعطى شيئا ثالثا فى معاملة الأسير ... وبحسبى أن يسلم لى هنا ما قررت قبل من أن القرآن لايسترق احداً وأن حسه النبيل ضـــد الرق . ومبادرته الرحيمـــة الى مقاومته .. و .. و ... من جليل اسلفنا من نظرة للرق يتسق كل الاتساق مع هذا الترفع منـه عن استرقاق أحد والتعرض لذكر ذلك فى آياته ...

(ب) الاسلام لا يوجب استرقاق الأســـير .. ومن ذلك ما قرر الفقهاء أن ضرب الرق على الأسير اختيارى ، مفوض فيه الحق للامام الذى يتولى أمر الأمة الاسلامية ... وامام المسلمين الممثل لمبادىء الاسلام أولى النـاس بأن يدرك هـذا الاتجاه الاسلامي ويتمثله حين يترك التصرف فى الأسرى ،

وتقرير مستقبلهم ، فلا يسترق ، ولا يذل ، ولا يخنق رقابا جعل القرآن فكاكها أخطر ما فى الحياة ..

(ج) تدبير الاسلام لتحرير الرقاب .. وخطوات الاسلام فى هذا التدبير للتحرير خطوات ايجابية فعالة ، ترى قوتها فيما يلى :

١ ـ ايجاب العتق ... فى كفارة القتل الخطأ ، وفى كفارة الظهار ، وفى كفارة الافطار فى رمضان عمدا ، وفى كفارة اليمين ...

٢ ـ الزام الدولة برصد اعتماد فى ميزانيتها من مورد ثابت ليصرف فى الرقاب وتحريرها (انما الصدقات للفقراء والمساكين ... وفى الرقاب .. الآية) ..

٣ ـ مطالبة الجمهور الاسلامى ببذل المال فى سبيل فك الرقاب وتحريرها ، لأن ذلك هو البر الحق .. (ليس البر ان تولوا وجوهكم .. وفى الرقاب .. الآية) ..

٤ ـ اثارة عواطف الجمهور الاسلامى ضد الرق ، ليبذل فى سبيل ذلك ما يستطيع بذله ، مدفوعا بالعاطفة الاسلامية الكريمة التى رباها الاسلام ، ولا سيما القرآن ، على الكراهية الحادة للرق ، واعتبار العمل فى سبيل مقاومته ، بل القضاء عليه ، من خير الاعمال التى يعملها المؤمن الحق ، المدرك لهذه المثل الكريمة ... (من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضوا منه من النار) حديث ..

(د) القرآن يقضى على الرق ... لئن كان القرآن لم يجعل الحرب مددا لنهر الرق المسموم ، بما سمعنا من تقرير مصير الأسرى باحدى الحسنيين ، المن أو الفداء ، فانه لم يدع الامر عند ذلك،

بل حارب الحرب نفسها ، بدعوة جادة الى السلام العام · (يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، انه لكم عدو مبين) ·· فاذا كان هذا الدخول فى السلم كافة ، فلا كانت حرب ، ولا كان أسر بغرى بالاسترقاق ، وان كان القرآن لم يجعله نصيب الأسرى منذ أول الدهر ··

ثم تناول الموضوع مرة أخرى على نطاق واسع فى كتاب (نظرات الاسلام الاجتماعية ·· أمس ·· واليوم ·· وغدا) (١) بعد ما بين (أن الدين فى هذه الحيـاة لا مفـر له من التفاعل والتبادل مع ما سواه من فهم وتنظيم لتلك الحياة) وأنه لن يكتب لهذا الدين (البقاء الا على قدر ما فيه من قدرة على هذه المسايرة والمفاعلة والاستفادة ، والانتفاع بما سـواه من التفسـيرات والتدبيرات الأخرى) ··

(وهكذا يتبين لنا فى وضوح ان الدين ـ فى أى حال من الأحوال ـ قد احتاج ويحتاج الى التطور والتجـديد على مدى الأدهار ، وبفعل العوامل القوية بل العنيفة التى تصطخب حوله ، وتتدافع أمواجها الجارفة فى قوة وجبروت) ··

ثم بين من خصائص الدعوة الاسلامية العامة الملائمة لما بلغت البشرية وتبلغه من التقدم والتطور والقادرة على تحرير البشرية من قيود الغيبية اللاهوتيـة ، ورفع الحواجز من طريق محـاولاته للمعرفة ، وجهدها فى تنظيم الحياة تنظيما صالحا موفقا :

١ ـ تقدير تجدد الحياة المستمر ، والحاجة الى ما يعنى بمقتضيات هذا التجدد الدائم ··

··· وامتد هذا الشـعور بالتجدد المسـتمر ، وعروض

---

(١) مكتوب على الآلة الكاتبة فى مكتبته ·

القضايا الجديدة الى حد تقدير جمهرة علماء الأمة انه لا يخلو أى عصر من مجتهد يبين للناس ما يحتاجون اليه من متجددات حياتهم ..

٢ ـ احترام المحاولات الانسانية التى يبذلها الناس فى استنباط حلول المشكلات العارضة والحاجات المتجددة ، على هدى التوجيه الدينى ... بل قال القـــائلون : ان لكل مجتهد نصيب ... وهو تقدير واضح السعة والعطف على هذه الجهود ..

٣ ـ الاعتراف بحق القوى الانسانية فى تفسير الحياة وتدبيرها، تفسيرا مستقلا منطلقا ، يعتمد على طاقة تلك القوى فى المعرفة ، والاستبانة للحقائق بوسائلهـا البشرية الخاصـة ... ويتضـح ذلك من تقـرير : أن النـاس أعلم بأمور دنياهم ..

٤ ـ تخصيص التفسير والتدبير الاسلامى للحياة بالشـــئون الخلقية المصلحة لنفوس الناس وقلوبهم ، والمقومة لسلوكهم، حتى يكونوا أخيارا طيبى النفوس ، يمارســون الحياة ممارسة شريفة جادة ، متعاونة على البر والتقوى ..

٥ ـ عدم خوض هذا التفسير الاسلامى فى شئون غامضة عن أصل الحياة فى الأرض ، أو نشأتها وتدرجها ، أو كيفية انتهائها، وما الى ذلك من الحقائق التفصيلية عن مثل هذه الجوانب، وبذلك لا يقيد النشاط الانسانى فى سبيل هذه الحقائق حين يرى أن يجد فى سبيلها ..

٦ ـ عدم خوض التدبير الاسلامى فى أمور جزئية ، ولا تنظيمات

تفصيلية ، لما يعرض له من الشـــئون الدينية والدنيوية جميعا) ..

.. وبناء على هذه الخصائص العامة ، وبسبيل تطوير الفهم الدينى يجب فهم القرآن الكريم (فهما لغويا أدبيا ، فى جو فنى ، من المستوى البلاغى الذى عرف للقرآن منذ أول العهد) مع مراعاة أن القرآن (لايقيد المستقبل ، ولا يحد مدى التقدم والرقى ، مع أنه يقدر الواقع الشاهد ويراعيه .. فخطته أن يبدأ من الواقع الماثل ويقدره ، ويمضى فى التدرج منه الى ما فوقه ، آخذا بيد البشرية الى أقصى ما تستطيع أن تبلغه من تقدم) ..

وعلى هذا الأساس تناول مشكلة الرق ، وانتقل منها الى تاريخ العنصرية ، ثم خلص الى موقف الاسلام من الوحدة الانسانية، فبين أن :

ما فى الاسلام من فكرة إنسانية ، وروح سامية ، طامحة للخير والسلام ، تقلل خسارة الحيـــاة بهذه العنصرية المحطمة المفسدة ..

٢ ـ نهى القرآن عن البحث فى الروح والســاعة وأشباه لها من مغيبات لا يحد نشاط العقل فى ميدان من ميادين المعرفة !! وانما هو توجيه الى التخلص من متاهات الغيبيات ، ومآزق اللاهوتيات ، ومجاهل ما وراء الطبيعة .. ليكون الســلام العقلى الذى ظفر به العقل منذ صدته عما وراء الطبيعة ، وردته الى العناية بالطبيعة ..

٣ ـ سلام عقلى يخرج العقـل الى بهرة النور ، ويريحه من ظلام الغيبية .. وانطلاق جاد فى السموات والأرض يهيىء له كل ما يستطاع من حرية فكرية ..

٤ ـ ربط المؤمنين بأخوة قائمة على وحدة النفس والأصل (انما المؤمنون اخوة) •

٥ ـ ثمة آيات تجهر بالخلق من نفس واحدة ، صريحا جليا ..

ووقف الاستاذ الخولى عند (وحـــدة النفس) وقفة طويلة مع ايماءات الآيات التى تحدث عنها ••

وتصدى بعد ذلك لأزمة التدين اليوم ، وعواملها وأسبابها (١)،

وتحدث عن مستقبل الاسلام ازاء هذه الأزمة (٢) ، فبين أن :

١ ـ الاسلام اذا صح أن يميز بشىء يمتاز به امتيازا واضـحا ، فانما يتميز بأنه رسالة المعرفة ••

ومن هنا يبدو مستقبل الاسلام من ناحية صلته بالعلم مستقبلا مأمونا ، لا خطر فيه ، ولكن على شرط أن يدرك المسلمون أن ما كان من أخطاء بعض أسلافهم فى هذا السبيل ، اذ حرموا علما ، أو اضطهدوا معرفة ، أو حددوا منطقة جولان العقل •• الخ •• ان ساغ أن يقع والانسانية فى مرحلة دون ما هى فيه اليوم ، فلن يسوغ اليوم وقوعه مطلقا ، ولا يؤمن الاسلام فى هذا المستقبل الا أن يحرر العقل والعلم أكمل حرية يمكن أن تتحقق لهما ••

٢ ـ العقيدة الاسلامية ـ كما حملتها أصولها الأساسية ، وكما تلقاها المسلمون الأولون ـ قد نجت تماما من أســـباب التعقيد والغمـــوض ، وظفرت بأكثر ما يمكن الظفر به من

(١) الاسلام والمستقبل ـ الأدب ـ ديسمبر سنة ١٩٦٣ م •

(٢) الأدب يناير سنة ١٩٦٤ م ••

الوضوح ، واليسر ، والقرب ، والسهولة ، والتكشف ·· فلم تدخل شيئا من مأزق صلة اللاهوت بالناسوت ، ولا التجسد وما يشبهه ، ولا الحلول وما اليه ، ولا التناسخ وما يدانيه ، ولا··ولا· من تلك الغوامض التى تجهد العقل ، وتولجه فى ظلمات مبهـمة ، وتحوجه الى التبرير المكدود ، والتوفيق المتكلف ، والتفلسف الذى يضيع الوقت والنشاط ، وتجهد به البشريه وتقلق ··

والفهم العصرى الصحيح للأصول النفسية للاعتقاد ، وتكوينه، وتدعيمه ·· مع الفهم العصرى الصحيح للحاجة النفسية عند أهل العصر والايمـان والتدين ، وما يمكن الدين أن يؤديه لحياتهم ·· وعلى ضـوء المعرفة لهذا وما اليه ، تفسر الاصـــول الاعتقادية فى الاسلام تفسيرا يمهد لها الطريق الى النفوس ، ويمكنها من أن تقدم للبشر ما يشد تلك الحاجة النفسية الى التدين والايمان ··

٣ ــ الاسلام يسر ، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ·· وما جعل عليكم فى الدين من حرج ·· لكن الذين فهموه من مفسرى نصوصه، ومن مستخرجى النظم منه ، قد فهموه طبعا من أفق حياتهم ، وفى حدود المستوى الاجتماعى والثقافى الذى عاشوا فيه ، وعند الدرجة الحضارية التى كانت قد وصلت اليها البشرية فى عهود حياتهم ··

٤ ــ الاسلام دين عام للانسانية كلها في صريح دعوته ، ودين خالد باق ما بقيت البشرية على الأرض ، ومثل هذا العموم الشامل لا يمكن أن يتحقق الا بوعى يقظ لمـا تحتاجه البيئات الانســانية المختلفة ، باختلاف الانحاء والاهواء ، ويجعل التعاقد والاعمـال وكافة الاسس الدينية فى الوقت الواحد مرنة مرونة تتسع للألوان المختلفة ، والأجواء المختلفة ، والطبائع المختلفة ··

٥ ــ الاسلام حينما ينظر الى مستقبله ·· ستجد ما وجدناه من

فعل الزمن بكل ما هو مادى معنوى ، وقد أوجد فى حياة الاسلام صورا من الرياسة ذات الصفة الدينية ، ولا سيما فى متأخر عصوره .. فمن قاضى القضاة منذ أول العهد الى شيخ الاسلام والمفتى أخيرا ـ وكانت هذه الرياسة الدينية تكأة لألوان من الحكم الاستبدادى الفاسد ، ووسيلة لايجاد طبقة تنتفخ كروشها ، وتتورم عمائمها ، وتصب فى جيوبها أنهار من المال عن طريق الحاكمين ، والواقفين ، والجهلاء ، والسفهاء ..

ومن أجل هذه السلطة الدينية المستأسدة (على كل مسلم أو شرقى رجا الخير ، وابتغى البر ، ففكر وعبر ، أو تململ فتحرر) قدم الأستاذ الخولى الى قرائه كتاب (المجددون فى الاسلام) قبل أن يقدم كتابه (تجديد الدين الذى سبق أن أعلن عن تقديمه للنشر أكثر من مرة ، ولم ير الكتاب طريقه الى النور ، ولم نجد اليه طريقا حتى الآن ..

وكان هذه المحاولات العديدة السابقة لبيان الحاجة الى التجديد ، والطريق التى يسلكها المجدد ، بل والحديث المتجدد عن أزمة التدين ، ومستقبل الاسلام ، وضرورة الفهم الواعى لنصوص القرآن ، والصور التى قدمها عن آدم ونظرية التطور ، وعن الرق فى الاسلام ، والوحدة الانسانية .. كان كل هذا لم يكن كافيا لان يقول قوله فى الوجوه ، ودون حجاب ..

ذلك أن الأستاذ الخولى آثر أن يتخذ كتابى (التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة » للسيوطى (٩١١ هـ) و (بغية المقتدين ، ومنحة المجدين ، على تحفة المهتدين) للمراغى الجرجاوى (ق ١٣ هـ) أساسا وتكأة ، حتى اذا دون قول القدماء بعبارتهم فى فكرة تجديد الدين على رأس كل مائة ، ثم أكمل هذه الصورة التاريخية بترجمة من سموهم من المجددين ترجمة تقصد الى بيان أعمالهم وأفكارهم فى التجديد ، لا يكون مقال لقائل ، ولا اعتراض لمعترض ، ولم لعد

فكرة التجديد بدعا من الأمر يختلف الناس حوله ، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأعراض والأوقات ، مما ينبغى أن تدخره هذه الحياة ، لتفيد منه في ميادين نشاطها ، ولاتضيع الوقت والجهد فى تلك المهاترات التى تكثر وتسخف حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية أو الاجتماعية الى مالابد لها منه من سير ، وتقدم ، وتطور ، ووفاء بما يجد دائما من حاجات الأفراد والجماعات (١) ..

وإذا ما أسس السلف لفكرة التجديد ، وسموا رجاله ، حق لنا أن نكمل الفكرة فى التجـــدبد ومداه ، بالنظر فى حيـــاة من سموهم مجددى المئات فنلتمس من عمل الحاكمين منهم ، ومن تفكير المفكرين فيهم ما نرى فيه أضواء يبعثها الماضى ، فيضىء بها طريق المستقبل ، واتجاه التطور فتكون الافادة من هذه الأعمال والافكار قائمة على أساس متين من اختيار القدماء ، وواقع من عمل الذين اعترفوا لهم قديما بحق التجديد (٢) ..

واحسب أننا واجدون فى تصرفات المجددين وتفكيرهم مالم تصـــل اليه الحيـــاة اليوم ، أو قل ما لم تجرؤ عليـــه (٣) ...
وبذلك يكون كتاب (المجددون فى الاسلام) طليعة لكتاب آخر هو (تجديد الدين) ، فهو يطرق بين يديه ، ويمهد ، ويعد النفوس ، ويذلل العقبات ان شاء الله (٤) ..

والأستاذ الخولى بهذه الخطة يطبق المنهج الذى عودنا من دراسة القديم وقتله بحثا ، ليكون طريقا الى التجديد ، فلا يكون التجديد

---

(١) ص ٨ المجددون فى الاسلام ج ١ ـ دار المعرفة سنة ١٩٦٥م ، ج ص ٨

(٢) المصدر السابق ـ ص ٩

(٣) المجددون فى الاسلام ص ١٠

(٤) المصدر السابق ـ ص ١١

تبديدا بل بناء ، واقامة حاضر على ماض تمهيدا لمستقبل مرجو ٠٠ ومن ثم لا يصدم عبدة المواريث ، أو لا يكون عنيفا فى صدامهم ٠٠ وقد رأى من أمرهم حين كفروا الشيخ محمد عبده ، وكفروا أو كادوا طه حسين ، وكفروا أو كادوا أمين الخولى نفسه ٠٠

واذا كانت معركة (الفن القصصى فى القرآن الكريم) ليست بعيدة ، وآثارها لاتزال تفعل فعلها فى نفوس المعتركين ، فانا نجد التبرير لاتخاذ هذه السبيل ، ولانحسن الظن الذى ارتآه الدكتور شكرى عياد ، وهو يناقش منهج أستاذه فى هذا الكتاب ، اذ يقول (١) ٠ (ولعل شعور رجال الدين أنفسهم بالتنافر الأليم بين بعض الأحكام التقليدية وبين ما يمارسونه ويلابسونه فى حياتهم العادية أن يكون ايذانا بالحاجة الملحة الى ذلك التجديد ٠٠ ولعل فى انحسار الموجة الالحادية التى كانت تأتينا من الغرب فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن وحاجة الملايين من شبابنا الى ايمان ينير لهم السبيل وسط اشكالية الوجود المعاصر بكل تقصيره ـ لعل فى هذا وذاك ما يطمئن بال رجال الدين الى أن الحديث عن الجديد ليس الحادا مقنعا ، ولكنه صرخة جـوع روحي لايبارك الله من يجبهها بالحرمان) ٠٠

والأستاذ الخولى ـ من واقع تجاربه ـ كان أكثر ادراكا لمنطق رجال الدين عندنا ، وسهولة استثارتهم ، لهذا اختار كتابى رجلين من عصرين جامدين (غير مشرقين) حتى تقوم الحجة على كل مكابر ، ويدفع الحرج أى حرج عن كل متكلم فى التجديد اليوم (٢) ٠٠

ومن ثم لم (يتتبع فكرة التجديد التطورى تتبعا مباشرا فى

---

(١) الجمهورية ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ٠

(٢) المجددون فى الاسلام ـ ص ١٢ ٠

التجارب العملية والنظرية للاسلام منذ الخلافة الأولى) ـ كما ارتجى الدكتور شكرى ـ ولعل هـــذا سبيله فى كتاب (تجديد الدين) مادام هدفه (تدعيم فكرة التجديد ، ثم تحديدها وبيانها فقد ملك النفس شعور الحياة بالحاجة الماسة الملحة الى تجديد تطورى يفهم به الاسلام الذى يقرر لنفسه الخلود والبقاء ، فهما حيا ، يتخلص من كل ما يعرض هذا البقاء للخطر ، ويعوق الخلود ، اذا ماصح العزم على هذا الفهم الجديد ، الذى مضت سنوات فى تقرير أصوله وأسسه درسا ، وتعليما ، وتدوينا) (١) ٠

ثم ذكر ان :

(القدماء يعنون بذلك التجديد فى عامة قول من رأينا كلامهم أنه : احياء السنة ، واماتة البدعة ، أو احياء ما أندرس ، وما يشبه هذا التعبير) ٠٠

٠٠٠ فالتجديد قديما ليس الا حماية المجتمع ، والانتباه الى العوامل السيئة المفسدة لأمره ، واذا ما لحظ مع هذا التجديد ما فى الاسلام من أصل عام اجتماعى قوى هو : وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بتغييره كلما أمكن ذلك ، والمقصر فى هذا ملعون لعنة (الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٠ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون) ٠٠ اذا ما لحظ هذا مع ذلك كان التجديد الدينى هو : العمل الدائم للواعين ، الحارسين لكيان الجماعة ، من أن تشيع فيها ضلالة مفسدة ، أو مهلكة ضارة ٠٠ واذا ما قلت : ان ذلك التجديد فى رؤوس القرون هو العمل الثورى الذى تحتاجه

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١١ ٠

الأمة اذا ما طال عليها العهد ، وقست القلوب ، لم أبعد .. ويؤيد هذا ما سبقت الاشارة اليه ، من جعلهم التجديد مرتبطا بكبريات الأحداث الضارة ، التى يتعرض لها المجتمع بفعل آفات من التطور الاجتماعي لسبب ما ، على نحو ما أشار اليه من أمهات الأحداث التي توجب وجود مجدد يكون نفعه عاما ومطلقا فى الأرض . ولهذا كان تحبيذ كثرة المجتهدين .. وقال قائلهم : (لا يجوز قلة المجتهدين ، والعياذ بالله (١) ..

ثم بين أن (التجديد الذى هو تطور ليس اعادة قديم كان ، وانما هو اهتداء الى جديد كان بعد أن لم يكن ، سواء أكان الاهتداء الى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا ، أم بطريق الاجتهاد فى استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن .. فالتطور لايفهم بسهولة من احياء ما اندرس ، كما يقال في معنى التجديد) (٢)

واذا كان التجديد ـ عند القدماء ـ (ليس الا حماية للدين ، وكيانه ، بالصورة الأولى التى أدى بها ، دون تدخل بفهم جديد ، أو تطبيق جديد ، يمكن أن يعد مسايرة لتغيير الحياة الذى هو معنى تطورها) .. (فان المجدد المناضل عن العقيدة مثلا ، قد ابتكر فعلا ـ على ما هو معروف تاريخيا ـ وسائل جديدة فى عرض العقيدة وتصويرها ، عرضا وتصويرا جليا ، مؤيدا بالأدلة التى تكون عدة للمدافعين عنها ، كاتخاذ المنطق اليونانى في الجديد طريقا للاستدلال ، وكالذى يعرف من اختلاف طريق السلف فيما يوصف الله به من مشابهة الحوادث ، وهى التسليم بلا تأويل ، واتخاذ من بعدهم طريق التأويل وعدم الاكتفاء بالتسليم .. كما كان عمل المناضل عن أصول

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ١٧\١٨ .

(٢) المجددون فى الاسلام ـ ص ٣١

الدين الاعتقادية ، وعن أصول الأحكام العملية عملا لا يخلو من التطور ، لأن مهمته كانت معاونة هذين الجانبين من العلم والعمل الديني على التقدم ، ومتابعة سير الحياة بخطى لم يصلح شيء من هذين الجانبين الدينيين للبقاء الا بها) (١) ..

(وحين تجد الإمام الشافعي يقول : « لا أجعل في حل من روى عني كتابي البغدادي بعد انتقاله إلى بيئة جديدة ـ مصر ـ ونظره فيما ألف ببغداد، فانا نشارف من فهم الأقدمين وقولهم المعنى الواضح الصريح للتطور ، وأنه تغيير وانتقال من حال الى حال ، تأثرا بعوامل مادية ومعنوية ، تتعرض لها الأحياء والكائنات المعنوية ، بفعل نواميس صار في حساب العلم اليوم ثابتا ، في جملته ، ومفهومه العام ، وأصله الكلي ، مهما يجر الاختلاف على تفاصيل هذا التطور ، وخطواته ، أو فلسفته ، وتفسيره ، وتعليله) (٢) .»

والقول بأن (هذه القوي الحيوية تشبه نبعا صافيا عذبا سائغا ، ثم مضي يجري في وادي الحياة ، فعلق به في مجراه ما يعلق عادة ، من أعشاب وطحالب ومواد ذائبة من أرض المجرى بل يتكدس من هذه الأشياء جملة ما يضيق به المجرى ويبطىء سير التيار الحيوى ، فتتوقف مياهه ، حتى تركد وتأسن ، في وقت ما ، وعند مكان ما ، فيحسب من رأى هذا الماء في زمانه ومكانه المتغيرين أنه كذلك كانت طبيعته دائما ، مع أنه كان في الواقع نميرا سائغا ، حينما فاض من عينه الأولى فاذا ما تابع الناظر هذا المجرى الذى فيه الماء الآسن أخيرا ، وتتبع مجراه حتى وصل الى منبعه الأول ، فسينكشف له ما في هذا الماء من عذوبة وحلاوة وصلاحية لانبات الزرع واحياء الأحياء) وبناء عليه (فالتجديد أو الاصلاح

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٣٢ ، ٣٣

(٢) نفسه ـ ص ٣٤ .

عندهم شبيه بهذا العمل فى الرجوع الى المعين الأول للاستقاء منه ، ورد الناس اليه ، ليعرفوا أن هـذه الرواسب والعوائق ليست الا طارئة عليه ، فاذا مانحوها عنه عاد عذبا فراتا) ..

وهذا القول ــ ان يكن فى جملته صـالحا لايضـاح المعنى الاصلاحى أو التجديدى فان (اصـلاح المجـرى ، وصيانة عذوبة الماء وفائدته ، لاتقف أبدا عند الرجوع الى مصدره للاستفاد منه ، بل يعود الرجوع الي المصدر نفسه عاملا من عوامل اكثار المـاء وحمايته ، وصونه ، وزيادة الانتفاع به ، وذلك هو التجديد أو الاصلاح التطورى (١)) .

(ولا غرابة فى المطالبة بالتطور فى هذا الميدان ، لأن النظرة الدقيقة السليمة الأساس تبين أن هذا الناموس ، في تطور الكائنات المعنوية ، يبدو أكثر وضوحا فى حياة الأديان وتدين الانسان ، لأن الأديان على اختلاف أزمانها المتباعدة ، واختلاف جملتها من المرسلين جنسا ودما ، إنما تؤلف وحدة متكاملة لجانب من النشاط الانساني ، فترسم الصورة المتماسكة لظاهرة التدين فى تاريخ البشرية .. والأديان نفسها تشهد على نفسها ، بعبارات من الآيات المختلفة ، أنها مقررة لناموس أصيل ، كما تقول المسيحية ، وكما تعتبر العهد القديم من التوراة ، وما معهـا ، متكاملا مع العهـد الجديد ، من الانجيل ، وكما يقول القرآن إنه مصدق لما بين يديه ..

ثم هي مع ذلك ليست تكرارا لصورة واحدة من الرسـالة ، ولا لشخصية واحدة من الرسل بل لكل رسـالة طابعها الملائم لزمانها ، ولأسلوب التحدث الى أهلة ، ولكل رسول شخصيته الحيوية ، التى تناسب رسـالته ، وتوائم أهـل زمانه .. فاذا

(١) المجددون فى الاسلام ــ ص ٣٤/٣٥

ما انتهى الأمر الى مرحلة تعى بهـا البشرية ما حولها ، وتخطو مستقلة بتفكيرها ، مع الكليات الدينية العامة ، كان ما كان من ختم الرسالات السماوية .. ومع هـذا التطور الواضـح فى حديث الرسالات السماوية نفسها فانها تقرر وحدة الاصل ، وتجعـل اللاحق مكملا للسابق .. وذلك هو التطور ، لا غيره) (١) ..

واسس التطور فى الاسلام عنده :

١ ـ امتداد دعوة الاسلام ، وحياته ، امتدادا مكانيا ، الى الناس كافة ، وامتدادا زمانيا ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٢ ـ اقتصاد دعوته في الغيبيات ، واراحة العقل منها بتركه التفاصيل ...

٣ ـ عدم تورط الاسلام فى كتابه الذى هو أصل أصوله فى بيان شىء عن نشأة الحياة على الأرض ، وظهور الانسان ، ومامر به ذلك كله من أدوار ، وسنين تلك الأدوار ، وما يتصل بذلك ، مما تورط فيه غيره ..

٤ ـ عدم تورط الاسلام فى شىء من تفاصيل تاريخ الأمـم والرسـل التى عرض لأحوالها جملة ، أو مع بعض التفصيل ، بيانا لسنة الاجتماع فى حياة الدعوات والرسالات وكيف تلقاها الناس ، وكيف قاوموها ، وكيف تم انتصارها أخيرا ..

٥ ـ اقتصاره فى تنظيم الحياة العملية بالعبادات وغيرهـا ـ بعد تيسير الحياة الاعتقادية ـ على الأمور الكلية والأصول العامة الشاملة دون التفاصيل المفردة ، والجزئيات الصـغرى ...

---

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٦

ثم تلتمس التفاصيل بعد ذلك من مصادرها المختلفة ، مع كتاب الدعوة الأصلى ..

٦ ـ جعل الاجتهاد أساسا للحياة الاسلامية ، وما الاجتهاد الا الانطلاق مع الحياة وفاء بجديد حاجاتها (١)

فيم يكون التطور الدينى ؟

بالنظر الى ما يوحى به قوله تعالى : « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » ، وقوله « وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه » ، وقوله : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، وقول الكلاميين : (العالم متغير) ، وقول الأصوليين : (لاضر ولا ضرار) ــ نجد (امكان تطور الدين فى جوانبه المختلفة) (٢) ..

فما ينبغى ان نظل نجد تلك الصور الساذجة من الحديث عن غيبيات ، لم يأمر الدين بشىء من التفصيل لها ، واطالة الحديث عنها ، ولا أن تستمع الى صنوف من القصص الذى هو تمثيل لمعان ، وتقريب لحقائق ، لا تاريخا ، ولا تسجيلا ، لأن مافيه من الحديث المفصل يصدم حسن هذه الأجيال ، وينادى تكوينها العقلى بعمليته ، وتكوينها الفنى بدقة ، بل ان عرض صفة الألوهية وصورتها ، ومدى المسئولية النفسية ، ومحاسبة الضمير أمام جلال الألوهية ، مما ينبغى أن يستعان فيه بتلك النواحى الفنية ، ومالها من اثر فى اجتذاب القلوب ، واطمئنان النفوس ، وحل العقد التى تصيب النفس ، من تصدع الحياة

---

(١) المجددون فى الاسلام ــ ص ٣٨\٤٥

(٢) المصدر السابق ــ ص ٤٦/٤٨

حولها ، ومضى أصحاب الدين فيها بما لا يحتمله أصحاب الدنيا ومنظموها) (١) ..

(ولعل الوجوه أقل نجهما للتطور فى العبادات ، لأن عامة الناس وخاصتهم على السواء يعرفون اختلاف المذاهب الفقهية العملية ..

ولعل أبسط صور التطور المغير ان تجد الحياة فى هذا الاختلاف فرصة للتخير بانتخاب ما تراه أيسر عملا ، وأصلح مسايرة ، وأخف وقعا ، وأعمق أثرا (٢) ..

وأحكام المعاملات ليس لها طابع لاهوتي ، ولا لها صفة دينية ، وان من باع بيعا باطلا أو فاسدا لا يلحقه بذلك اثم ، لأن هذه تصرفات عادية لا يلحق بها الاثم ، الا حين تنطوى على شئ من الفساد الخلقى ، او العمل الناجم عن الفساد الخلقى فان غش ، او غر ، او خدع ، أو خلب ، او .. الخ ، مما هو فى حقيقته عمل نفسى خلقى له تأثيره الواضح على خلق صاحبه ، لا مجرد تصرف عملى ..

والأمر فى المعاملات على كل حال ليس الا أمر مصلحة واقعة حيثما وجدت ، فثم حكم الله .. كما يقولون بصريح اللفظ) (٣) .

وعرض الأستاذ الخولى لستة مجددين عرضا يهدف الى :

(استخلاص ما فى اقوال أولئك الاسلاف الأخيار وأفعالهم ، مما تفيد منه الحياة فتتجدد وتتطور ، وتبرأ من آفات آراء أو

(١) المصدر نفسه ـ ص ٥١/٥٢ .
(٢) المجددون فى الاسلام ص ٥٤
(٣) المصدر السابق ـ ص ٥٧ .

اضرار أفعال ، باقتدائها بأولئـك الاعـلام الذين شـارفوا أفق التطور ، حين نعتـوا بصـفة التجـدد ، واعترف لهـم بحق التجديد) (١) .

واهتم بما قدم المجددون للحياة الدينية من حقائق كبرى ، كالتطور الدينى ، والتسامح الدينى .. (أشهد على أنى لا أكفر احدا من أهل هذه القبلة ، لأن الكل يشيرون الى معبود واحد ، وانما هذا كله اختلاف عبارات) .. وحرية الاعتقاد ، وحق الفهم الصحيح للدين ، واصلاح الحياة ، لا طقوس واشكال ، كما جاء فى قول عمر بن عبد العزيز : (انى رأيت أن اجعل ذلك فى اكباد جائعة ، فانه أولى بذلك من البيت) .. والشعور بالوحدة الاجتماعية ، وسعة الافق ، فى تمثل دائرة المعـرفة البشرية ، واجلال العلم ، وتقديمه على العبادات كصلاة النافلة ، وتصحيح منهج التفكير الدينى بالايمـان المبكر — من مثـل الشافعى — بالتجربة ، والفدائية العلمية .. (وددت ان الناس انتفعوا بهذا العـلم ، ولم ينسـب الى منـه شىء) .. والنفور والتنفير من التقليد .. (لا يجوز للمجتهد أن يقلد مجتهدا غيره) ..

كما اهتم الاستاذ الخولى بالجانب العاطفى والفنى فيمن ترجم لهـم ، لأن الحياة (تعانى بهذا البعد للدين وأهله عن مجال العواطف أزمات صعبة عن عـلاقة الدين بالفن وشـيوع هـذا الانفصام الصارخ فى حياتنا ، بين ما تبذل الدولة ، فى سبيل الفن بفهم ما وتطبيق ما ، وبين حال أصحاب هذا التدين الذين يتأثمون من هذا الحديث، ولا يملكون الاعتراض على المناكير القذرة التى تمارس باسم الفن ، فتمضى الحياة المتفننة غير صادقة ولا سليمة) (٢) .

---

(١) المصدر نفسه — ص ١٤٣ .

(٢) المجددون فى الاسلام — ص ١١٨ .

وشجب الأسلوب الانتخابي عند الأشعرى ، لأنه (امارة عدم قدرة الفكر على الادلاء بجديد ، وأن التفكير فى مثل هـذه الحالة يمر بفترة من عدم الخصوبة ، أو قل انه يشير الى ان الوسائل المبحوثة قد استهلكت آراء المفكرين فيها ، وأن طاقة المتفائلين لهذه المسائل قد وقفت عن أن تواتى بجديد) (١) ..

وعاد ليؤكد أنه لم يقصد (الى مناقشة فكرة التجديد الدينى من حيث مدى صحتها وقوتها ، أو من حيث سلامة الملحظ فيها ومتانته ، أو من حيث مستندها ودليلها ، ودرجة قوته أو افادته) (٢) .. لأن الهدف الأكبر منه أن يشيع فى الشباب نواحى الحيوية النابضة من أعمال المجددين ، مما يصلحون به أن يكونوا مثلا صالحة ، وقوى حسنة ، الى أزمنة متطاولة (٣) ..

وفى نهاية مؤلفه اشار الى ان الجزء الثانى يبدأ بترجمة الغزالى المجدد ، لكن الاستاذ الخولى ترك دنيانا ، قبل أن يجد هذا الجزء سبيله الى الوجود ..

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٢٧

(٢) المصدر نفسه ـ ص ١٤١

(٣) المصدر نفسه ـ ص ١٥٩

التفسير الأدبى

.. كانت الجامعة أول نشأتها الرسمية ، فى ختام الربع الاول من هذا القــرن ، قد وجــدت الحــاجة فى درس الأدب وتاريخه ، الى القول فى القرآن ، بمــا هو مادة لذلك التاريــخ الأدبى .. وقررت فى ذلك ما كان وسيلة للغوغائية المتجرة بالدين الى مهاجمة الجامعة ، والاغارة عليهــا ، فجاءها اذ ذاك هــذا الشيخ ــ لم يذكر اسمه ــ من شيوخ المدرســة القديمة ، فى ختام حياته التعليمية ، وغير فى مناهجها ما غير ، وجعل تفسير القرآن مادة دراسة فيها ..

وكان مفهوم التفسير عنده أو عند امثاله ، لا يجاوز كثيرا تلك الكتب المتداولة فيه ، على اختلاف منازعها ، فأخذ الطلبة بقــراءة شىء فى تلك الكتب ، ولعــل أروجهــا كان كشــاف الزمخشرى ... وكلها يمكن أن يقال فيه : انه لا يستطيع الوفاء ببيان ما فى هذا القرآن من قوة بلاغية ، اذ شــغل مؤلفوها بغير ذلك من أهداف ، وقعــدت بهــم مع ذلك عجمتهم ، ومستوى

الطاقة الأدبية لعصورهم ، فجاءوا بآخر ما استطاعوا ، ولم يكن ـ فى الحق ـ آخر ما يقال فى القرآن ، أو مشارفا لشيء من الغاية فى ذلك ..

وكانت الحياة الأدبية الجامعية اذ ذاك خصبة ، متجددة ، متطلعة ، مستشرفة ، فابتغت وراء ما استشرف اليه المفسرون من حس العربية ، وذوقها ، وبلاغة هـذا الأسلوب ، ما هو وراء ذلك وابعد ، على أن يكون لهذا التطلع ضابط من طبيعة اللغـة وحيويتها ، لا من القول المرعى لها أو عليها ، والاحتمال الظان ..

ولكل أولئك وغيره ، من عوامل محتكمة فى حياة المفسرين القدامى ، ومستوى عصورهم الثقافى ، راحت الجامعـة تحـول درس التفسير درسا أدبيا محضـا ، يستعين بكل ما بلغته ـ وستبلغه ـ الثقافة الانسانية الفنية من دقة وتطلع » (١) ..

وما كان لصـاحب (المنهج المتحـرر) أن يخطو خطـوة فى (التفسير الأدبى) قبل أن يدرس تاريـخ القـرآن ، تمهيـدا للتفسير ، وتوطئة تضيء ما حول النص ...

تاريخ القرآن (٢) ..

يقول الاستاذ الخولى :

(نريد أن نعرف بالقرآن فنحدده ، ونبين سماته المتعارفة ، ونحدث عن نزوله كيف كان وكيف تلقى ، والبيئة المكانية والزمانية لذلك ، وما جرى فى ذلك من اصطلاح خاص ، وذلك ـ ان شئتم ـ هو تأليفه ، وما يتصل به ، ثم كيف جمع وحفظ وكتب وتنوقل ،

---

(١) ثغرات فى مناهج الدراسات الأدبية ـ الأدب ـ مارس سنة ١٩٦٦ .

(٢) مخطوط بمكتبة المؤلف تجد خلاصة وافية له بالملحق .

من أوائل عصور الاسلام الى ما استقر عليه الحال فى عصرنا ؛ ثم ما كان فى سبيل تنسيقه وتقسميه وضبطه وكتابته من جهد ، وما له من أثر جرى عليه الحال فى تناقل نصوصه ، وتلاوة آياته ، وأوجه التغاير فى ذلك ، وسببها وأثرها ، ومساسها بالمعانى ، ثم اجمال عن مشتملاته ، وما تناوله من موضوعات ، وطريقة تناولها ، وترتيبه اياها ، وميزته فى ذلك من ناحية المعنى والأسلوب ...

وهى كما ترى ابحاث تاريخية ادبية ، الا أنها تدور حول كتاب دينى ، قد عرفت له صفة من القداسة ورسخت فيه عقيدة ، فبحثنا قد يمس من قرب أو بعد هذه الناحية) ..

ثم ... تناول قضية النزاع بين العلم والدين بصورة تشعرنا أن منهج الاستاذ الحولى القائم على أساس علمى قد يلتقى فيما يعرض له (بشهوات متحكمة ، ومصالح مهدده ، ومنافع ضائعة ، وجهالة سائدة ، تؤيدها قوة غاشمة) ، ومن ثم أخذ يلوح براية الأمان ، قبل أن تبين طبيعة درسه :

ثم تكلم عن المصادر والمراجع أو فرق ما بينهما ، وما يقتضيه هذا الدرس من مصادر ومراجع ، وتكلم عن نشأة علوم القرآن ، والتاليف فيها ، فى العربية والافرنجية ، ثم بحث فى أصل معنى قرآن وفرقان ، وكتاب ، وذكر ، وحكمة ، وهى الألفاظ التى وصف بها كلام الله ، ثم تناول نزول القرآن ، باعتباره (يقابل ما نتصدى له فى تاريخ كتاب عادى من بيان تاليفه ، وأدوار وضعه ، اذا مر وصفه بأدوار) ، فتحدث عن معنى النزول لغة ، وما ورد فى استعمالات القرآن ، واتبع ذلك ببحثين (كلاميين اعتقاديين أكثر مما هما تاريخيان أو أدبيان) :

(وأول هذين البحثين يتعلق بالمنزل من الله ، وكلامه كيف كان ، وثانيهما يتعلق بالمنزل عليه ، وهل له فى هذا القرآن المتلو عمل أولا) ..

وأورد ما قالوا فى ذلك .. ثم تكلم عن زمن النزول ومكان النزول ونظام النزول ، ورأى فى أسباب النزول (ضرورة وقوف الباحث طويلا ، وتردده ، قبل أن يقرر أن سبب نزول آية كذا أو آيات كذا هو حادثة بعينها ، لأن من أقوال المتقدمين حول تلك الأسباب :

(أ) احتمال عدم جزم الصحابة بسببية حادثة لنزول آية ، فالأمر يتوقف على ملاحظة القرائن المختلفة بالحوادث ، والنظر فى الأسباب ..

(ب) وهم الراوى بأن تذكر حادثة تنتهى بتلاوة آية ، فيظن الحادثة سبب نزولها ..

(جـ) ابهام المفسرين العبارة فى ذكر أسباب النزول ، وانهم قد يذكرون أكثر من سبب لنزول الآية الواحدة ..

(د) تحرج المتقدمين من القول فى أسباب النزول ..

ولو تقدمنا الى ما روى من تلك الأسباب لننقده ونمحصه لوجدنا فيه كذلك ما يؤيد هذا التحرج والتوقف فى القول ، بسبب معين للنزول والشعور بصعوبة ذلك اذ نرى فى تلك الأسباب :

(١) ما يقوم على اسناد أفعال وأقوال الى النبى ليس من السهل قبول اسنادها ..

(ب) قد يبدو التصنع والاضطراب فى ذكر أسباب النزول بل انهم يسوقون حوادث خالية من التحديد ، بل يعوزهـا الضرورى منه ، حتى يكون لها شىء من الأثر فى فهم الآية أو الاستنباط منها ..

لكننا حين نقرر أن فى اسباب النزول ما نشير اليـه من غموض واضطراب لا ننسى ان من بين تلك الأسباب ما هو معالم واضحة فى تاريخ الاسلام وحياة الرسول) ..

وعلق على ما قيل فى تكرار النزول قوله :

(والواقع أن المقام خال من اثر صريح واضح فى تكرار نزول آية .... والذى يبدو لى أن المتمسكين بالتكرار لم يدفعهم الى ذلك الا ما روى فى أسباب النزول من اسباب عدة لآية واحدة مع اختلاف الأماكن والأزمنة ، فراوا المخلص من ذلك فى تقرير أن النزول قد يتكرر تصحيحا لتلك الأسباب المختلفة ، بأن يجعل كل واحد منها سببا للنزول) ..

ووقفت المذكرة عند جمع القرآن ، فلم تتم القول فيه ..

التفسير .. معالم حياته .. منهجه اليوم .. (١)

بدا البحث بتحليل للفظ (التفسير) لغة واصطلاحا .. وعرض لنشأة التفسير واتجاهات المفسرين ، ثم بين أنه :

ان (تضمن ــ القرآن ــ علوما هى من جنس علوم العرب ؛ أو ما ينبنى عليه معهودها ، مما يتعجب منـه أولو الألبـاب ؛ ولاتبلغه ادراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره فليس بجائز كما يقول الشاطبى في الموافقات ــ أن يضاف الى

---

(١) نشر البحث فى (دائرة المعارف الاسلامية) المجلد الخامس ، وفى كتاب (مناهج تجديد) .

القرآن مالا يقتضية : كما أنه لايصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار ـ فى الاستعانة على فهمه ـ على كل ما يضاف الى العرب خاصة ، فبه يوصل الى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه) (١) ..

وانك لتضم الى هذا من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه . فمنها :

١ ـ الناحية اللغوية ، فى حياة الألفاظ ، وتدرج دلالتها ، لو ملكنا منها مالابد لنا أن نملك فى تحديد هذا التدرج ، وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة ، وعهد استعمالها فيها ، لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معان واطلاقات لم تعرف لها ، ولم تستعمل فيها ..

٢ ـ الناحية الأدبية ، أو البلاغية ان شئت ، والبلاغة فيما يقال : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلمى كلاما يوجه الى من خواطب به من الناس فى ذلك العهد ، مرادا به تلك المعانى المذكورة ، مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا الا بعد ماجازت آمادا فسيحة ، وجاهدت جهادا طويلا ، ارتقى به عقلها وعلمها !!!

٣ ـ وهناك الناحية الدينية او الاعتقادية ، وهى التى تبين مهمة كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث الى عقول الناس

---

(١) مناهج تجديد ـ ص ٢٩٢/٢٩٣

وأفواههم العالمة ، عن مشـكلات الكون وحقـائق الوجـود العلمية ؟! وكيف يسـاير ذلك حياتهم ، ويكون أصلا ثابتا لها ، تختم به الرسالات السماوية ، كمـا هو الشـأن فى القرآن ، مع أن هؤلاء المتدينين لا يقفون من معرفة هذه الحقائق عند غاية محـدودة ، ولا ينتهـون منـها عنـد مدى ما ؟ ! (١)

ثم تحدث عن تلوين التفسير بثقـافة المفسر (اذ أن المتفهم لعبارة هو الذى يحدد بشخصيته المستوى الفكرى لها ، وهو الذى يعين الأفق العقلى الذى يمتد اليه معناها ومرماها ..

... فلن يفهم من النص الا ما يرقى اليه فكره ، ويمتد اليه عقله . وبمقدار هذا يتحكم فى النص ، ويحدد بيانه .. وعلى هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن ، تطبع تفسيرهم له ، فى كل عهد وعصر ، وعلى أى طريقة ومنهج ، سواء أكان تفسيرهم له نقليا مرويا أم كان عقليا اجتهاديا) (٢) ..

وذكر أن الاستاذ الامام محمد عبده يرى أن (التفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب ، من حيث هو دين يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخره .... ليتحقق فيه معنى قوله تعالى : «هدى ورحمة») .. لكن ـ والقرآن (هو كتاب العربية الاكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم) ـ فان (التفسير اليوم ـ فيما أفهمه ـ هو : الدراسة الأدبية ، الصحيحة المنهج ، الكاملة المناحى ، المتسقة التوزيع . والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبى محض صرف ، غير متأثر بأى اعتبار ، وراء ذلك ، وعليه يتوقف تحقيق كل غرض آخر يقصد اليه) (٣) .. وذلك

(١) مناهج تجديد ـ ص ٢٩٣/٢٩٤
(٢) منهج تجديد ـ ص ٢٩٦
(٣) المصدر السابق ـ ص ٢٩٩

بأن يفسر القرآن موضوعا موضوعا ، وأن تجمع آيه الخاصة بالموضوع الواحد جمعا احصائيا مستقصيا ، ويعرف ترتيبها الزمنى ، ومناسبتها وملابستها الحافة بها ، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم ، فيكون ذلك التفسير أهدى الى المعنى ، وأوثق فى تحديده (١)) ..

وهذا المنهج الأدبى فى التفسير يعتمد على :

دراسة ما حول القرآن ، ودراسة فى القرآن

وما حول القرآن

يتصل(بتلك الأبحاث من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما اليها) ، وهى التى عرفت اصطلاحيا باسم علوم القرآن ».

كما يتصل بدراسة ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التى ظهر فيها القرآن وعاش ، وفيها جمع ، وفيها كتب ، وفيها قرىء وحفظ ، وخاطب أهلها أول من خاطب ، واليهم القى رسالته لينهضوا بادائها ، وابلاغها شعوب الدنيا .. ومع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية ، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من ماض سحيق وتاريخ معروف ، ونظام اسرة أو قبيلة ، وحكومة فى أى درجة كانت أو عقيدة بأى لون تلونت ، وفنون مهما تتنوع ، وأعمال مهما تختلف وتتشعب .. فكل ما تقوم به الحياة الانسانية لهذه العروبة وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربى المبين (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠٦

(٢) مناهج تجديد - ص ٣١٠/٣٠٩

ودراسة القرآن نفسه

تقوم على :

١ ـ النظر فى المفردات .. والمتادب يجب أن يقدر عند ذلك تدرج دلالة الألفاظ » واثرها فى هذا التدرج بتفاوت مابين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية ، والاجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما الى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية فى تلك الحركة الجياشة المتوثبة ، التى نمت بها الدولة الاسلامية ، والنهضة الدينية ، والسياسة ، والثقافية التى خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة (١) ٠

٢ ـ النظر فى التركيبات٠٠ لا على ان الصيغة النحوية عمل مقصود لذاته ، ولا يلون التفسير كما كان الحال قديماً ، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده ، والنظر فى اتفاق معانى القراءات المختلفة للآية الواحدة ، والتقاء لاستعمالات المتماثلة فى القرآن كله ٠

على أن النظرة البلاغية هى النظرة الأدبية الفنيــة التى تتمثل الجمال القولى فى الأسلوب القرآنى ، وتتبين معارف هذا الجمال ، وتستجلى قسـماته ، فى ذوق بـارع قد استشـف خصائص التركيب العربية ، منضـما الى ذلك التـأملات العميقة فى التراكيب والأساليب القرآنية ، لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ، بل لمعرفة فنون القول القرآنى وموضوعاته ، فنا فنـا وموضـوعـا موضـوعا ، معرفة تبـين خصـائص القرآن فى كل فن منها ومزاياه التى تجلو جماله ٠٠

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٣١٢

٣ ـ تفسير نفساني للقرآن يقوم على الاحاطة المستطاعة ، بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية ، فى الميادين التى تناولتها ودعاوى القرآن الدينية ، وجدله الاعتقادى ٠

ورياضة الوجدانات والقلوب ، واستدلاله القديم ما اطمأنت اليه ، وتوارثته الأسلاف والأجيال ، وتزيينها بما دعا اليه من ايمان ينقض مبرم هذا القديم ، ويهدم أصوله ٠٠ وكيف نطف القرآن لذلك كله ، وما ذا استخدام من حقائق نفسية ، فى هذه المطالب الوجدانية ، والمرامى القلبية ، وما أجدت رعاية ذلك كله فى انجاح الدعوة ، واعلاء الكلمة ٠٠

٤ ـ كما يقول الاستاذ الامام : (ان علم أحوال البشر ـ علم الاجتماع مما لا يتم التفسير الا به ، وانه لا بد للناظر فى الكتاب من النظر فى أحوال البشر ، فى أطوارهم ، وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وايمان وكفر) (١) ٠

القرآن الكريم (٢)

بحث فى سبع وعشرين صفحة كبيرة على عمودين ٠ تناول فيه الأستاذ الخولى قضايا هامة سبق أن تناولها فى محاضراته عن (تاريخ القرآن) ٠٠ فيما يتصل بلفظ قرآن ، ونزول القرآن وأسباب نزوله ، وأبحاث فى النزول ، ولغة النزول ، وجمع القرآن، جمع أبى بكر ، وجمع عثمان ، وكتابة القرآن ، وقراءته وترتيبه ، وتقسيمه وان كانت (المحاضرات) لم يتم القول فيها ٠٠

---

(١) مناهج تجديد ـ ص ٣١٤\٣١٦

(٢) دائرة معارف الشعب جـ ١ ط سنة ١٩٥٩ م ٠

غير انك لا تكاد تجد جديدا يذكر هنا الا ما تناول من :

(يمكن تقرير خصائص فنيه أدبيه لكل أسلوب من الأسلوبين القرآنيين : المكى والمدنى ، يتميز بها كل واحد منهما بتميز حال المخاطبين ، فى كل عهد ، ومدى تهيئتهم النفس لما يلقى اليهم ، وتقبلهم له ، أو مقاومتهم اياه ٠٠ الى جانب ما ذكر من اختلاف مجال القول فى الدورين ، وان احدهما جدال واقناع ومناقشة ورد ، كما يكثر ذلك فى العصر المكى مثلا ، والثانى تلقين وتوجيه وترغيب وتفصيل ، كما هو الشأن الغالب فى العصر المدنى ٠٠ .

وكذلك تجد الخصائص المميزة للعصرين واضحة فى كل من فنون القول فيهما ، وحسبنا على ذلك مثلا القصص القرآنى فى العصرين ٠٠٠

٠٠ تجد القصص القرآنية قد عرضت فى العصر المكى عرضا يختلف اختلافا واضحا عن عرضها فى العصر المدنى ، من حيث نظم الآية وقصرها وطولها بل من حيث ألفاظها ومعدن تلك الألفاظ ٠ ووقعها الصوتى ، ثم من حيث الايجاز المختصر المركز ، تسلط فيه الأضواء على مشهد واحد قصير من أحداث القصة فى مكة ، ثم الاسهاب المغاير لذلك فى المدينة ٠٠ الى غير ذلك من فروق يتبينها الدرس الأدبى ، المتخصص ، ويكشف عن روائع من الاعجاز البلاغى للقرآن الكريم فى القصص وحده) ٠٠

اصلاح الأزهر

سبق بيان أن الأستاذ الخولى صاحب فكر عملى ، يحـــاول تجديد الوجـود عن طريق تجديد الفكر والوجـدان . كمـا يربط القيم الروحية بالمتطلبات الحضارية ..

ومن كان هذا شأنه لا بد وان يشغل نفسه بتجديد الأزهر ـ مناخ القيم الروحيـة ، فى بلادنا ، بل فى العـالم الاسلامى كله ـ عن طريق تجديد النهم لرسالته ، ومكانته القيادية ..

وعلاقة الاستاذ الخولى بالأزهر ترجع الى صباه ، منـذ نشأة جده على علوم الازهر ، يعيش دنيا (المجاورين) ، رفاقه ، وأبناء بلده .. وحين احتال على جده ليفر من الازهر ، متطلعا الى حياة منطلقة متحررة ، تأخـذ بحظهـا من سمت المدنيـة وأبهتهـــا ـ اذا هو يفر من الأزهر الى الأزهر ، يعيش صميمه ويحيا مشكلاته ، ويكون فى مقدمة المطالبين باصلاحه ..

فاذا كان هذا الفتى قد مال عن الأزهر ميلة فانه لم يخرج عن وجود الأزهر فى ثقافته وزيه الا بمقدار ..

فما أصاب من معرفة (الالهامية) و (القضاء) ، ومن زى (الالهامية) و (القضاء) ومن أساتذة (الالهامية) و (القضاء) لا يبعد به عن الأزهر ..

ثم .. اذا أصبح الفتى ـ وقد عاد من أوربا ، وثقف لغتين جديدتين ـ موضع تقدير الجامعة والجامعيين ، يفتح الأزهر بابه لينال قدرا مما فتح الله به على هذا الشاب العائد المرموق ..

ولا يضن الأستاذ الخولى بما يملك ، ولكنه يدل بقدراته ..

فاذا كان قد قدم لطلاب مدرسة القضاء (كتاب الخير) فى الأخلاق والفلسفة ، وقد طرق هذا المجال من قبله أستاذ وزميل ، فليدرس لطلاب كلية أصول الدين جانبا آخر من جوانب الفلسفة يرفع به راية الى جانب ما رفع من رايات فى المسرح والتاريخ والصحافة الأدبية والعلمية والدينية والسياسية ، وفى تجديد البلاغة والتفسير والدراسة الأدبية بالجامعة ، وهى مواد بنائه ..

وأهدى محاضراته (كناش فى الفلسفة وتاريخها) سنة ١٩٣٤ (الى روح ـ الأستاذ الامام) ، لأن هذا الكناش (١) (أول ما يدرس من الحكمة رسميا فى العهد الجديد للازهر) ، وسماه كناشا (طماعيه أن يتلوه جهد مبارك فى الحكمة يحمى ثقافة الشرق

---

(١) كناش : لفظ سريانى معناه المجموعة والتذكرة ..

التالدة ، ويصون شخصيته الخالدة) فقد (كان أول ما ترجم المسلمون من الفلسفة كناشا ، انهمر بعده ذلك الغيث الذى اهتزت به الدنيا وربت) ..

ولما كان رأى الاستاذ الخولى (ان ما يكتب للازهر ، ويلقى فى الأزهر ، يجب أن يتصل حاضره بماضى الأزهر ، ويعرض فى صورة ما الف اهل الأزهر ، وينسج على أسلوبهم الأول فى دقته، وأدب بحثهم فى سلامته ، حتى يتهيا لهم الانتفاع الحق به) (١)ـ فقد عرف بالفلسفة لغة واصطلاحا ، وبين موضوعها والغاية منها ، وفرق بينها وبين العلم ، مبينا (ان النتائج الفلسفية تؤثر حتما فى حياة الفيلسوف الشخصية ، وتشكل سلوكه على وفقها ، وتختط منهجه العملى فى الحياة ، لأنها ثمرة قواه النفسية المختلفة ، وأثر اتكيف نفسى خاص له ، فلا بد أن يكون لها صدى عملى ... والعلم لا يلزم أن تؤثر نتائجه فى حياة العالم ، أو تشكل سلوكه ، لأنها أثر البحث الاستقرائى التجريبى ، والعقل المنطقى ، الذى لا مدخل له فى السلوك العملى) (٢) ثم ذكر أقسام الفلسفة قديما وحديثا ، وانتقل الى عرض سريع للفلسفة قبل اليونان ، وعند قدماء المصريين خاصة ، ونوه بآثار الالهيات المصرية فى الأديان الاخرى :

(فالأديان السماوية كلها كالاسلام تقرر البعث والحساب ، ووزن الأعمال ، وشهادة الجوارح ، والنعيم والعذاب الأخروى ، وغيرها ، على نحو ما نراها فى الآثار المصرية مكتوبة موضحة ، كما أن بعض العقائد والشعائر التى نراها فى المسيحية الحالية توجد على صورتها وأصلها فى المصرية الوثنية ، فمن ذلك أن

---

(١) تاريخ الملل والنحل جـ ١ للأستاذ الخولى ـ طبعة مدرسية ـ ص ٥
(٢) كناش فى الفلسفة وتاريخها ـ طبعة مدرسية ـ ص ١١

الصليب المسيحى مثلا يشبه فى شكله رمز الحياة عند قدماء المصريين ، وهو الرمز الذى يرى فى التماثيل المصرية فى أيدى الآلهة على صوالجها ، كما يرى على المقابر المصرية ، ومن ذلك نظام الرهبنة المسيحى ، أصله فى الوثنية المصرية التى كانت تعود رجال الدين على الاعتزال ، والخلوة ، للتوافر على العبادة ، ومن ذلك فى زى القسوس النصارى اتخاذ الملابس البيضاء عند اقامة الشعائر ، وفحص بعضهم عن أوساط رؤوسهم) (١) ..

وعلل ذلك (بأن هذه الديانة المصرية ، الأصلية فى مصر ، الناشئة فيها ، لاينفى العلم أن تكون ذات أصل سماوى ، أعنى أن البحث التاريخى العلمى لا سبيل له الى القطع بعدم وقوع ذلك، والدين يشير الى عموم هذه البعثات وشمولها بقوله تعالى : « وان من أمة الا خلا منها نذير » ، فيستطيع رجل الدين — فى غير حرج أبدا — أن يقرر أن ما فى الوثنية المصرية انما هو أصول صحيحة لوحى الهى تناوله التحريف والتشوية على مر الزمن ، وعلى هذا لا تكون الوثنية المصرية هى التى أمدت الأديان المتأخرة عنها ، بل الوحى السماوى هو الذى امد المصريين بما اهتدوا اليه من أصول دينية صحيحة ووصف الآخرة صادق) (٢) ..

ثم تحدث عن الفلسفة عند العبرانيين والأشوريين والكلدانيين والفرس والهنود ، وخلص الى الفلسفة اليونانية ، محبذا الفكرة القائلة بأخذ الاغريق عن غيرهم لوجوه ، منها :

١ — أن الأسبقية الشرقية الى الحضارة والمعرفة جملة لاشك فيها مطلقا ، والظروف الزمنية والمكانية لاغريقا ناطقة

(١) المصدر السابق — ص ٣٩ .

(٢) كناش فى الفلسفة — ص ٤٠

بذلك ، بل اليونان أنفسهم يصرحون بذلك قولا ، بعد نطق الآثار المختلفة من صور حضارتهم بأصولها ومآخذها ، من مصرية وغيرها ..

٢ ـ ان هذه الفروق التى نسلم بهـا بين معرفة الاغريق ومعارف الأمم الشرقيـة القديمـة ليست فى الحق الا الأثر الطبيعى لتدرج الانسانية وارتقاء الذهن البشرى .

٣ ـ أننـا ـ دون فحص للأدلة أو موازنة بين حجج الطرفين ـ نجد وراء ذلك ناموسا قطريا عاما هو ناموس التدرج الذى يعمـل عمله فى الكائنات كلهـا مادية ومعنوية باطراد ، فلا يحتمل أن يشذ عنه شـاذ فى أى ناحيـة من نواحى الحيـاة الانسانية (١) .

وتناول المدارس الفلسفية ورجالها عند اليونان بالتفصيل ، بدءا من الأيونيـة الفيثـاغورية والايليائيـة والجـوهرية الى السفسطائية .. سقراط وأفلاطون وأرسطو .. لكنه لم يتناول فلسفة أرسطو تناولا كاملا ، معتذرا عن متابعة طبع الباقى لضـيق الوقت ، (ولما قضيت به حاجة الدراسة) كما جاء فى المقدمة .

وفى سنة ١٩٣٥ قدم لطلابه بكلية أصول الدين (تاريخ الملل والنحل) .. بدأه بدعاء ذكى يشير الى مشقة الطريق الذى يسلكه :

(جنبنا ياحق زلل من زل ، وضلال من ضل ، ويسر لنا ياحق توفيق من وصل ، انك أحكم الحاكمين) ..

وجاء فى المقدمة أن منهجه (ليس تاريخا فحسب ، يقوم به

---

(١) ص ٩٦ .

الباحث مقام الواصف، لا غير ، بل فيه مناقشات ومقارنات ، يبحث فيها ما يخالف المقررات الاسلامية ، أو يبدو فيه ذلك ، من تفسير لمظاهر الحياة الاعتقادية الانسانية ، أو حياة ملة بعينها ، أو نحلة خاصة ، أو بيان لمعتقد ، أو بحث عن أصوله ، أو ٠٠ أو ٠٠ مما استطالت به اليوم يد العلم ، واستشرف الى تناوله في جراة تختلف باختلاف الكاتبين ، وتجاوز حدها في غير قليل من الأحايين (١) ٠٠

وبين أن (كتب الغربيين في ذلك انما كتبت لبلادهم في ثقافتها وبيئتها وعقيدتها ، فلها ترتيبها وتناولها الخاص ، ثم هي بعد ذلك لا تبرأ في كبريات الملل ـ كالمسيحية والاسلام ـ من هوى ، ولا تخلص من تناول أو تحامل ، تصبغه صبغة العلم ، وتفيض عليه طابع الفحص النزيه ، وما هو به) (٢) ٠٠

ثم أخذ في التعريفات : للدين لغة واصطلاحا ، شرقية وغربية ، وللملة والنحلة والتاريخ كذلك ٠٠ ونوه بما انتهى اليه التاريخ (من تحر في المصادر ، ونقد للمروى ، ومحاولة اعتماد على االطريقة الواقعية الاختيارية ورجوع الى ما عرف من نواميس الحياة الفردية والجماعية ، رما الى ذلك من صبغة علمية) ٠٠

وأكد ما سبق أن ذهب اليه من تواصل معنوى (٣) ٠

ثم بين (أن تاريخ الأديان يخضع له تاريخ الحياة الانسانية على اختلاف مناحيها المادية والمعنوية ، دون خروج ما على نواميس الاجتماع المقررة أو اخلال بأصول البحث العلمى النزيه الحر ، ودون اعتداء ما على قدسية الدين وسماويته وصحته) (٤) ٠٠

(١) تاريخ الملل والنحل جـ ١ ـ ص ٦
(٢) المصدر السابق ـ ص ٥
(٣) انظر ص ٨٩ من هذه الدراسة وانظر ص ٥٥ وما بعدها
(٤) تاريخ الملل والنحل جـ ١ ـ ص ١٠

وتناول اليهودية قبل وبعد موسى ، مفصلا القول فى نشأتها وفرقها وأحوال اليهود الشخصية ، وفى الذبائح والمطاعم ، وفى الخلفيات ، وفى نظم فرق اليهود ورؤساهم ..

وعاد الى اليهودية أيضـــا فى الجزء الثانى من كتابه ، مبينا أصل التسمية ، والجذور الأولى لبنى اسرائيل ، ثم ، حدث عن اليهودية كما جاء بها موسى ، متخذا التـوارة وسـيلة الى ذلك . مقتبسا منها الشواهد .. وبين الشعائر والعبـادات فى اليهودية الأولى ، مختتما القول بنظرة ناقدة لها ..

وبهذه الدراســة توطدت صلته بالأزهر ، وازداد تعرفه اليه حتى اذا انعقــد مؤتمر تاريخ الأديان الدولى الســادس بمدينـة بروكسل ــ ما بين ١٦ و ٢٠ ســبتمبر ١٩٢٥ ، ــ كان رســول الأزهر الى المـؤتمر مع الشـــيخ مصطفى عبـــد الرازق ــ الذى أصبح فيما بعد شيخا للأزهر ــ وقدم فى هذا المؤتمر بحثه البكر (صلة الاســـلام باصــلاح المســيحية) (١) ، تعبيرا عن ايمانه بعالمية الاسلام وقدرته على العطاء .

وفى سنة ١٩٣٦ م أعلنت حـكومة على ماهر عن مسابقة بين الكتاب والمفكرين فى موضوعات منها ، (رســـالة الأزهر فى القرن العشرين) ، وقبل أن يعلن عن اختيار الأستاذ الخولى عضوا فى لجنة التحكيم ، كان الموضوع قد مثل بين يديه ، فأهدى بحثه ــ بعد صدور الحكم ــ الى الأزهر ، الذى طبعه الطبعة الأولى ووزعه .

---

(١) انظر (مع المستشرقين) من هذه الدراسة

وقد وقف (الكاتب) عند عنوان (الرسالة) مداعبا :

(لماذا فى القرن العشرين الميلادى ، وليس الرابع عشر الهجرى ، ولا العاشر القمرى من حياة الأزهر) ؟

لعل هذا العنوان الرسمى يوحى إلى الكاتبين عن رسالة الأزهر أن يقدروا تلك العوامل الهامة التى تصرف الحياة اليوم ، وتملأ الجو الذى يتنفس فيه الأزهر) (١) ..

ثم بين أن الكاتب فى رسالة الأزهر سيتحدث عن نتائج ، ويشير الى غايات ، دون أن يعرض للمقدمات أو الوسائل ، ومن ثم ، فالأزهر من حيث هو بيئة اجتماعية ، رسالته (أن يحمى الروح القومية لمصر والشرق الاسلامى حماية عاقلة متبصرة متدينة لا تقف عند القشور ، ولا تعنى بالتافه ..

وفى سبيل هذه الحماية يحتفظ هو لنفسه بالطابع المصرى الاسلامى ، ثم الشرقى النافع الذى لا يعوق الحياة فى تجددها المادى ، ونشاطها العلمى ، مقدرا نواميس الاجتماع وقوانين الحياة ، غير واقف فى طريق شىء من ذلك ، أو معارض الا على أساس من النظر البعيد والوزن الدقيق) (٢) ..

ومن حيث هو مركز دينى ، رسالته (حماية التدين ومحامده الاجتماعية ، حماية فعلية ، وتمكين الانسانية من أن تسعد بأثر هذا العامل فى الحياة ، ويكون ذلك بالتدبير المحكم فى التعريف بالدين ونشر الاسلام على يد رجال لهم الصفة الدينية المتميزة بين طبقات الجماعات البشرية فى خلقيتهم ، وأسلوب حياتهم .

(١) ط ٢ سنة ١٩٦١ ـ دار الهنا ـ ص ٥

(٢) المصدر السابق ـ ص ٨

حتى يكونوا صورا من القدرة الحيه فى المشاركة العامة المترفعة النبيلة الغالبة للشهوات ، السعيدة بالمعنويات) (١) ..

ومن حيث هو معهد علمى : يبدو لى أن عدم تفرد الأزهر فى الخطوتين الابتدائية والثانوية من التعليم هو الأولى به وبمصر .. لئلا تكون الحياة الدينية بمعزل عن الحياة العامة ، فيشيع الشعور ببعد التدين والمتدينين عن الحياة وممازجتها ، ويظن ذو الرغبة الطامحة فى النجاح العملى ان ذلك لا يكون مع التمسك بالدين) ، على (ان تكون له عناية أوفر بالمواد الشرعية والاعتقادية والخلقية ، مما فى المدارس الأخرى .... وأن تكون اللغة الأجنبية اختيارية فى الابتدائى والقسم الأول من الثانوى ، مع تمكين طالبه من ان يأخذ شهادة اتمام الدراسة الابتدائية دون امتحان فى اللغة الأجنبية أو مع الامتحان فيها ، أو أن يأخذها بالصفتين ان استطاع (٢) ، وله بعد ذلك أن يواصل تعليمه فى الأزهر ، و أن ينتقل الى غيره من النعليم الثانوى أو العملى .. وأن يتميز القسم الثانى من الدراسة الثانوية الأزهرية تمايزا أزهريا واضحا ، يقسم على حساب تقسيم التعليم العالى فى الأزهر فيكون كل قسم منه اعدادا لقسم من الدراسة العالية) (٣) .

(وتكون رسالة الأزهر العلمية ذات شقين :

(أ) ★ عملى هو : اعداد معلمى الاسلام ، الواعظين به ، الناشرين له ، اعدادا حيويا ، يلقى به الاسلام المسيحية

---

(١) المصدر نفسه ـ ص ١١
(٢) لعله يقصد النجاح فى اللغة الأجنبية وفى المواد الأخرى
(٣) رسالة الأزهر فى القرن العشرين ـ ص ١٢/١٣

وغيرها من الأديان لقاء يؤيد الحق ويقره ، واعداد العارفين بالشريعة الاسلامية مثل تلك المعرفة ..

(ب) ★ نظرى هو : تأسيس البيئة العلمية التى تكون مرجع الشرق كله والغرب كله فى الدراسات الدينية والاسلامية ، من عقائد وشريعة . بحيث يعرف بشهادة الأزهر من الكلمة له فى هذه الدراسات ، ثم مشاركة الأزهر لأرقى البيئات فيما هو أهله من دراسات تاريخية اسلامية وأدبية عربية وفلسفية) (١) ..

ومما هو بسبيل رسالة الأزهر ، ما عالجه الأستاذ الخولى بعد ذلك خاصا بتعدد الثقافات فى مصر (٢) .. فبين أن مفهوم الثقافة (تعديل الانسان وتقويمه ليواجه الحياة مواجهة الصالح لها المدرك لنواحيها ادراكا صحيحا) .

و (الثقافة فى خططها وغايتها ترتبط بالمسألة الفلسفية الخالدة (مسألة المعرفة) .. وتعدد الثقافات يرتبط بالرأى فى هذه المسألة

فالدينيون يرون (انكار قابلية الكون للتعليل ، وأنكار مقدرة الانسان على هذا التعليل والتسبب .. اذ انهم جميعا ينفون الأسباب ، ولا يرون شيئا يكون سببا لشىء ولا شيئا مسببا عن شىء ، والأسباب ليست الا أسبابا عادية ، ووجود المسببات عند وجود الأسباب انما هو بخلق الله ، لا بتأثير الأسباب ، والاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا ، وما يعتقد مسببا ليس ضروريا) ..

---

(١) المصدر السابق ــ ص ١٤

(٢) مجله كلية الآداب ــ عدد مايو سنة ١٩٤٧ .

والمتفلسفون والعلماء يرون (أطراد وقوع الظواهر عن وقوع أسبابها ، وعدم تخلف ذلك مطلقا ، وعدم وقوعها عند عدم ما هو العلة الوحيدة لها ، كما هو قانون الطرد والعكس) ..

وبناء عليه فالمشكلة (مشكلة عقيدة وفكرة مخالفة للحقائق التجريبية الواقعيـة ، تترك أثرا نفسـيا عريقا ، ينجـم عنه خلق وسلوك ، ليس صالحا لمزاولة الحياة ، تواجه فكرة منتزعة من الحقائق الانسانية ، تترك أثرا قويا ينجم عنه خلق وسلوك ، صالح لمسايرة الحياة ، فى عصر تقـدم العلوم ، ومحاولة الانسان السيطرة على قوى الكون التى سخرها الله له ، وفى هذه المواجهه تتأثر الفكرة الصحيحة ، والخلق الصحيح ، بالفكرة غير الصحيحه والخلق الملتاث .. فلهذه الأولى ضررها على من تستأثر بهم من أبناء الوطن كما لها تلوينها لمن يتاح لهم البعد عنها وقد أزمنت آثار هذه الحالة بفعل وراثة عنيدة مضت عليها أجيال متعاقبة ، وآخرت الشرق ذلك التأخر المخيف الذى كان يستعصى على العلاج ، ومشكلة هذا شأنها ليس من العجب أن نقول انها تتطلب علاجا حاسما) :

١ ـ تصحيح هذه الفكرة ، تقويم تلك العقيدة ، ويقوم به رجال الدين فى تعليمهم العقائد ، ووضعهم كتبهـا ايجـادا لأساس سليم ..

٢ ـ أن تؤدى الدولة واجبها ، وتستعمل حقها فى الاشراف على الحياة التثقيفية للأمة اشرافا منفردا ، مباشرا ، يتناسب مع مسئوليتها أمام ممثلى الأمة ، ويحقق رسالتها فى اعداد أبنائها اعدادا صالحا للحياة ..

فلا تشتغل هيئة ذات صفة دينية خاصة بالتعليم أجنبية كانت أو وطنية ، لأن سلامة هذه الهيئات ـ من خطأ الأساس فى

ثقافتها ـ غير مضمونة ... وتوحد خطوات التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية لأبناء الأمة جميعا بحيث لا تتولى هيئة ما اعداد طفل أو غلام أو شاب ، وتكوين عقليته وخلفيتـه الا تحت اشراف وزارة التربيـة والتعليم فى الدولة ، وبنظمها وتجاربهـا ومحاولاتها فى النهوض بالأجيال الخالفة ، ولا يـكون هنـاك تعليم دينى مستقل عن التعليم العام ، بل تتحد هاتان المرحلتان اتحادا تاما ، ويعلم الدين فيها بمناهج يضـعها المختصون فى كل دين من الأديان التى ترى الدولة تعليمها ، على أن يكون لوزارة المعارف الاشراف على هذه المناهج وعلى تنفيذها ومنفذيها ..

٣ ـ ليس يكفى مطلقا ان يكون كل عملنا فى اعداد المعلم هو التثقيف العام ، والخبرة بالمهنة ، بل يجب أن تكون شخصيته كلها موضع العناية الدقيقة ، لأنه ينفث فى روح الجيل أنفاسه ويعدهم بذوقه ووجدانه ، كما يعديهم بهمته وارادته ، أو خموله وتحلله ، وهـو قدوة يرمقهـا الناشئون بعين مقلدة قوية التسجيل ، ونفس شديدة التأثر) ..



ولم يبد من رجال الأزهر تفهم لدعوة الاصلاح هذه ، كما لم تبد معارضة لها ، على ما جرت عليه العادة من معارضة اصلاحه وا هام مصلحيه ، حتى اذا كنت رسالة (الفن القصصى فى القرآن الكريم) ، ونشبت معركة الأحقاد والأهواء ، تبينت حقيقة موقف كثير من رجال الأزهر نحو دعوة الاصلاح وصاحبهـا ، فاذا اتهام بالكفر ، واستعداء السلطات من (جبهة علماء الأزهر) ومن أعضاء هيئة كبار العلماء ، ومن وكلاء اللغة العربية والشريعة وأصـول الدين ، وغيرهم وغيرهم .

كانت الفرصة لينتقموا لأنفسهم من هذا الذى أراد أن يحدث فى دارهم حدثا ، فأشعلوا النار ، ورقصوا حول ما توهموه جثة غريمهم .. فاذا هم ـ وقد استسلموا أخيرا لارادة التطور ـ قد كشفوا سوءات ، لم يتبينوها الا بعد ما انتقل الزمن الى الستينات ..

لكن الخصم العنيد القوى الشكيمة لم يكن ليترك دعوة آمن بها ، دون أن يؤرث نارها من وقت لآخر . وكان لابد من عرض القضية فى دائرة أوسع ليشترك الجمهور فى المناقشة أو يتابعها ويكون على بينة من مستقبل أبنائه فلا يقضى فى الامر دونه ..

وأفسحت جريدة (المصرى) صدرها للاستاذ الخولى ثلاثة أشهر ، يشرح فيها رسالة الأزهر الاجتماعية ، ويبين العلاقة بين (الدين والحياة) .. فما من انسان عاقل يستطيع أن يتقبل حياة بغير دين ، أو دينا بغير حياة ـ كما قالت المصرى فى مقدمتها لهذه الأحاديث : واصلاح الدين نفسه بالحياة هو ما يرنو اليه الأستاذ الخولى ، (حتى يكون مادة للتجديد الروحى والسمو الخلقى ، وشرعة واضحة للتدرج البشرى والتطور العالمى ، فيكون أداة فعالة فى الاصلاح الاجتماعى) ..

... (وبحسب الحياة أن تشعر بشباب الأزهر طلابا كبارا أو أساتذة يظهرون فيها متطلعين لأهداف ذلك التجدد والنشاط العملى ، وهم ذوو شخصية واضحة المعالم ، جلية السمات المصرية ، الشرقية ، الاسلامية ، يؤمنون الشعب على أن مصريته وشرقيته واسلامه تتفق مع ذلك التجدد ، بل تقوده بتوجيه

مستنير قادر ، واثق ، يقظ ، متحكم فى سير هذا التجدد ، مسموع الكلمة فيه ، كأشخاص من أهل الصفة الدينية فى أقطـار اخرى حول مصر

... « لقد قامت بمصر فى ربع القرن الأخير حركـة قوية لوصل الدين بالحياة السياسية ، ترمى الى أهداف اجتماعيـة بعيدة ، تتطلب جهدا عقليا ، وقوة نفسية كبرى ، وكان الأزهر بطبيعته ووضعه هو القادر على أن يمد تلك الحركة السياسية الدينية البعيدة المرامى ، بذلك العمـل العقلى العلمى الكبير ، وان يمدها بتلك القدرة النفسية الروحية الفعـالة ، لتكـون حركة (الاخوان المسلمين) (١) وأشـباهها حـركة قادرة عقـلا وفقهـا للدين ، وفهما للمجتمع على الاضـطلاع بتلك المحـاولة الكبرى ، ان رأى الأزهر صلاحها لذلك ، فان كانت الأخرى ، فالأزهر هو بطبيعته ووصفه القادر على أن ينبه هذه الحركة وأشباهها الى ما يعوزها وينقصها ، والى ما تخطىء فيه ولا تهتدى .. ولا مفر له من أن يرتئى هذه الحركة وأمثالها أحد هذين الرأيين ، ولا يقف صامتا ..

ولقد امتحنت هذه الحركة امتحانا عمليا قويا ، فى الميدانين السياسى والاجتماعى .فماذا رأى الأزهر فى هذه الحركة يوم سرائها وماذا رأى الأزهر فى هذه الحركة يوم ضرائها ، وهل قدم الأزهر لهذه المحاولة الاجتماعية الكبرى شيئا مما تطلع اليه من قريب بالأمس القريب أن رسالة الأزهر الاجتماعيـة هى ما سـمعنا من

---

(١) يقول الأستاذ الخولى أنه عرف الشيخ حسن البنا ، لكنه لم يشترك فى جماعة الاخوان المسلمين باعتباره ذا فهم ومنطق ، ويريد الاستقلال الفكرى بعيدا عن أى جمعية أو حزب .. وان كان اشـــترك فى جمعية الشبان المســلمين عقب تكوينها فلاحياء الرابطه بين الشعوب الاسلامية .

حماية الروح القوميه لمصر والشرق الاسلامى ، ومتابعـة تجـدد الحياة ونشاطها العلمى ، مع تقدير نواميس الاجتماع وقوانين الحياة ؟ !) (١) .

الأزهر فى حياة مصر الدينية ..

(هو الذى يحمى أحسـاس مصر والشرق الاسلامى بذاتهما احساسا قويا واضحا ..

وهو الذى يحمى روح مصر والشرق الاسـلامى خاصة

وهو الذى يحمى الذوق المصرى الشرقى الصالح ، ويحييه

وهو الذى يحمى الفضائل العلمية المصرية والشرقية ويغرى الناس بها وهو الذى يحمى العادات المصرية المصرية الشرقية الصالحة للبقاء ، ويقف بها فى وجه العادات الغربيـة التى لا تلائم البيئة المصرية والشرقية ..

وهو الذى ينطر فيما تقتبسه الحياة من جديد ، ويتدخل فى هذا الاقتباس بتعقل ولباقة ، ليقاوم الضـار منه ، على ضوء الهدى الاسلامى ، والخبرة الاجتماعية ، والفهم الجيد لشئون الحياة) ..

والتدين الاسلامى المرجو اليوم :

(انه تدين انسانى القلب ، نبيل العاطفة ، يؤيد التعاون البشرى ، ولا يعوق الاخاء الانسانى ..

وانه ليس العصبية المقيتة ، المعتمـة الأفق ، التى تحتقر الآخرين ، وتنزلهم من مرتبة الانسانية ، وتنكر صفتهم البشرية .

---

(١) المصرى ٤/٢٨ سنة ١٩٥٢ .

وانه تدين لا يعرف تلك السلطة الغاشمة التى ترهب العقل الطليق ، وتفت فى العزم الوثيق ، وتفسد الذوق الرقيق ، وتتحكم بجبروت لاهوتى فى حيـاة الدنيـا ، وتسد الطريق الى الآخرة ..

وانه تدين لا يخلق تلك الطبقة التى تحتكر الدين ، وتسد المسالك الى الله ، ولا يعترف بتلك الطبقة ان خلقتها الظروف ، لأنه لا رياسة فى الاسلام ، وكلهم قريب الى الله سبحانه وتعالى) .

ثم أشار الى رسالة الشيخ محمد مصطفى المراغى شـيخ الجامع الأزهر الى مؤتمر الأديان العالمى المنعقد فى ٣ يوليه سنة ١٩٣٦ م :

(فهى تحدثك عن زمالة عالمية يتعاون فيها أصحاب الأديان جميعا ، تعاونا حقا جادا على تحقيق أغراض معنوية ، واغراض عملية جليلة مسعدة للانسانية المعناة بالبغضاء والجهل والبؤس ، فأما الأغراض المعنوية التى تسعى هذه الزمالة الانسانية لتحقيقها فهى فى اجمال ازاحة العلل التى حالت دون تأثير الشعور الدينى فى تقريب ما بين الناس ، وأما الأغراض العملية فهى – على الاجمال – جعل التدين أداة فعـالة فى تهذيب الجمـاعة . وتمكين العوامل المعنوية التى تشترك فيها الأديان من التأثير فى الحياة الانسانية الواقعية ، وتصيير الفضـائل العلمية التى تدعو اليها الأديان كلها للواقعية ، تصيير الفضائل العلمية التى تدعو اليها الأديان كلهـا نظما عملية) (١) ..

---

(١) المصرى ٦/٥ سنة ١٩٥٢ م .

دفاع عن الأزهر فى حياة مصر الدينية (للشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء)

(ان الأزهر ليؤمن باصلاح الحياة بالدين ، وان البشرية يمكن أن تسعد به ، وتبلغ ما قدر لها من سمو ، ولكنه لا يؤمن باصلاح الدين بالحياة ، لأنه يرى أن الدين صالح ، وليس فيه فساد يصلح بشيء آخر ، وهو اذا سمع هذه الكلمة من صديق له يحسن الظن به كالأستاذ أمين الخولى ، فانه يؤولها . ويرى أن مراده بالدين ما ورد عليه من بدع وخرافات ليست منه ، ويراها العامة دينا ، وليس بذلك يقف بأمته عن التطور ومطابقة روح العصر ، لأن فى الدين قواعد عامة محكمة تساير التطور ، بل تدعو اليه ، وتصلح لكل زمان ومكان ..

.. وان الأزهر بالنخبة المستنيرة من رجاله لبالغ بأمته ما قدر الله لها من سمو ورفعة ، وواصل بالانسانية الى أعلى مراتب التعاون والاخاء ، اذا حسن الظن به ، ومكن له من أن يكون له رأى فى توجيه أمته ، ووقاه الله كيد الكائدين ، وحسد الحاسدين وتعويق المعوقين) (١) ..

أهل الأزهر فى حياة مصر :

(.. كان أصحاب العلم الدينى عرضة للمحن السياسية التى أصيب بها غير واحد من علماء المسلمين فى العصور المختلفة كما كان أصحاب العلم الدينى عرضة للمحن النفسية ، اذ لا تسعفهم قوتهم على تحقيق أمل الناس فيهم ، فيهنون في الجهر بالحق ، ويضعفون عن دفع الظلم ، وهو ما لم تخل العصور المختلفة منه قليلا أو كثيرا ..

(١) المصرى ١٩٥٢/٥/١ م .

... ثم تتغير ظروف الحياة ، وتدفع الحيـاة المصرية دوافع النهضة العلمية من الغرب ، فتتغير الحال تغيرا جوهـــريا ، ويتغير الشعور الدينى ، ويتغير التدبير العملى ..

وصار أصحاب العلم المجرب ، وأصـحاب الحق المشرع هم قبلة الحياة ، ولم تعد الحياة ترى شيئا من صور أولئك الأبطال الأشياخ تجذب الأنظار اليها ، أو تثير الاهتمام بعلمها التجريبى ، أو فقهها الدستورى ..

لذلك افتقد المفكرون الفئة التى تستطيع أن تقدم للناس الأثر الحيوى المجدى ، للتدين الصحيح ، المساير للتقدم ، فلم يجدوها ، وبالتـالى لم يعرفوا مكانهـا بين فئـــات الامه . ووجدوا الأزهر أمامهم ، بكثرته وضجته ،وما يبذل من كثير الأمـوال فى سبيله ، فتساءلوا : ما رســـالة الأزهـر الدينيـة فى القــرن العشرين ؟) (١) .

الأزهريون بين أبناء الأمة ..

.. (وتنظر فترى الناس قد صاروا من الشعور بالكرامة الفعلية فى مستوى غير الذى فى تلك العصور الوسطى ، أو مطلع العصر الحديث ، فقــد جرب الناس ما جربوا فى الشرق والغــرب من شئون الهيئة الدينية !!

وقد عرف الناس ما عرفوا من طبائع الأفراد والهيئـــات ، ومنطقها النفسى وســلوكها الاجتماعى ، وبدأ لهـم ذلك كله عاريا واضحا ..

ولم يعد الناس أولئك البسـطاء السـذج الذين ترهبهــم الغيبيات ، ويقودهم الاستواء ، وتتحكم فى عقولهم الأهواء ..

---

(١) المصرى ١٢\٥\١٩٥٢ .

والناس بهذا المستوى من المعرفة والتجربة لا يعترفون للفئة الدينية بمكان فيهم ، ولا حرمة بينهم . الا اذا وجدوا مساسها بكيانهم ، وعملها في حياتهم ، وشهدوا من رجالها صنفا متميزا من الناس ، يحيا حياة دينية صالحة ، واضحة الشخصية بادية التأثير في وجودهم) (١) ..

أهل الدين في الدنيا ..

.... (أن تلك الحقوق الدنيوية لا تقوم ، ولن تقوم ، يوما ما على شيء من الصفة اللاهوتية الغيبية ، أو السلطة الروحية الخاصة ، تميز أهل الدين عن أحد من الأمة ، أو تجعل لهم فضلا على أحد في ذلك ، فقد عرف التاريخ خطر هذا الادعاء قديما ، من منتحلي هذه السلطة ، وزاعمي هذا التمييز ، فلم تسم اللجنة ـ لجنة شكلت للنظر في هذه الحقوق المادية . كان الأستاذ الخولي عضوا فيها ـ هذه الفئة رجال الدين ، بل سمتهم الدينيين ، أو أهل الدين ، لا أكثر ، لأن الاسلام لا يعرف تلك الطائفة المنفردة بسمة أو تسمية) (٢) ..

الأزهريون بين الدين والحياة ..

.. (أما أن تكونوا شيئا متميزا ، له طابعه الديني ، وخلقه الديني ، وسلوكه الديني ، يقدم للحياة خيرا بالدين ، واما لا) (٣)

---

(٢) المصري ١٩٥٢/٥/١٩ م .

(٢) المصري ١٩٥٢\٥\٢٦ .

(٣) المصري ١٩٥٢/٦/٢ .

الأزهريون بين أبناء الأمة .. للشيخ محمد عرفه

.. (العدل يقتضينا ان نعترف بأن كل شيء في مصر يحتاج الى الاصلاح ، وبحسب أحدنا أن يترك مكانه في هذا الوجود خير مما كان ، وذلك لايقتضينا ان نفرد الأزهر بالعيب ، وأن نصوره في أبشع صورة ، بل يقتضينا أن نكون عادلين ، وأن نذكر خيره ، وننبه على ما فيه من نقص ، ولذلك وضعنا رســـالة الأزهر في القرن العشرين (١) .

الأزهر في الحياة .. من زاوية الى معهد

(بمناسبة زيارة هلين كيلر لمصر)

.... (كنت أرى قريبا غير بعيد أن يوفد الأزهر الى الغرب من يحمل الى مصر جديدا من الرياضة العلمية والنفسيه لاولئك البصراء ، تكوينا لشـخصياتهم ، واحتفاظا بقـواهم ومواهبهم . في تلك المعاهد العلمية والعملية الخاصة بهم ..

.. وكنت أرى قريبـا غير بعيد أن يطبع الأزهر المصـحف الشريف بطريقة (بريل) وأن يطبع ما عداه من كتب العلم كذلك .

.. ولذلك اقترحت منذ زمن بعيد أن تصير زواية العميان بالأزهر معهدا كبيرا يتولى به الازهر شئون هذه الآلاف في مصر (٢)

---

(١) المصري ١٩٥٢\٦\٣ .

(٢) المصري ١٩٥٢/٦/٥ .

رسالة الأزهر الدينية

ردا على الشيخ محمد عرفه

.. (نعيذ الشـيخ من أن يرى احتيـاج كل شىء فى مصر للاصلاح معفيا الأزهر من اللوم أو معتذرا له عن نقص وهو دارة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأهله جنود ذلك .. والنقص لا يشفع للنقص أبدا ، وصـدق الله تعالى اذ يقول : « ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » (١) ..

الأزهريون والتوجيه الدينى ..

بعد أن نفى عنهم المشاركة فى الوجود المتطور ، على أساس من التوجيه والريادة وعدم التمثـل بأمثـال ابن تيمية وابن القيم ووقوفهم من كل جديد موقف الانكار والاسراع الى التفكير ، قال :

.. (فما هو الا أن تتجه الحيـاة اتجاهـها ، بفطـرة الله التى فطر الناس عليها فتأخذ ببعض أسباب التجدد الحيوى ، وتأخذ فى ذلك طريقها ، ويشعر الأزهريون بعد فوات الأوان جدا بذلك التجدد ، أو يدفعهم الى الشعور به دافع ، ويحرضهم عليـه محرض ، فيتصـايحون مفـكرين ، وينـدفعون صـاخبين لاعنين ، ويجأرون مكفرين ، وما تناولوا الأمر بشىء من حكمة تصيب الحق بالعلم والعقل ، ولا أدوا الرأى بموعظة حسنة مؤثرة مستهوية ، تعطف القلوب ،ولو جاءوا الخلاف يجادلون بالتى هى أحسن ؛ لأن الله هـو الأعلم بمن ضـل عن سبـيله ، وهو أعلـم بالمهتدين) (٢) ..

---

(١) المصرى ١٩٥٢\٦\٩ .

(٢) المصرى ١٩٥٢/٩/١٦ .

.. يبدو ان جرح « الفن القصـــصى فى القرآن » ما يزال ينزف !!

أمين الخولى بين الأزهر والجامعة

بيان من جبهة العلماء بالأزهر ..

.. (اعتاد الأزهر الشريف أن يسمع من حين لآخر أفرادا يحاولون أن ينالوا منه ومن رجاله ، وكأنما سولت لهم أنفســهم آن تعلقهم بهذا الجبل الأشم يلقى فى روع الناس أن لهم شأنا ، أو عندهم رأيا ، أو فيهم غيرة على حق ، أو غضــــبا لدين ، أو حرصا على صـــــالح عام ، ولكن هيهـــات ، فهم : كناطح صخرة يوما ليوهنها) (١) .

الأزهريون وآفات التوجيه الدينى ..

(من هذه الآفات :

١ ـ أن قصدهم النفسى الى هذا التوجيه ليس بارئا من الشوائب ولا خالصا من الغايات المدخولة ، فسبيلهم فى هذا التوجيه والبيان سبيل غير قاصدة وتناولهم له غير مستقيم ..

٢ ـ سيادة روح التحكم فى فضل الله ونعمه ، والاستبداد بدين الله وهدايتــه فاذا أفتوا فقولهــم هو رأى الاســلام ، واذا حكموا فحكمهم هو حكم الله ، واذا خالف عليهم انسان فهو يحارب الله ، وما لأحــد أن يطبق ويخرج ، أو يقرأ ويظفر بمنسى أو متروك ، كلا .. كلا ..

---

(١) المصرى ١٩٥٢/٦/٢٠ .

٣ _ فتــور صلتهم بالحيــاة ، وعدم معرفتهــم الكافيــــة لما يجرى فيها .. ولا أقول الحياة العامة ، فى آفاقها العالية الفسيحة ، بل أقصد الحياة المصرية الخاصة ، فى دائرتهــا المحدودة) (١) ..

رد جبهة علماء الأزهر ..

ان الأزهر يؤدى الرسالة على خير وجه بدليل أن :

الناس اليوم _ وقد عرفوا قيمة الدين والتدين _ يتطلعون الى الأزهر فى كل موقف ليسمعوا كلمته ، ويتأثروا خطواته ؟ ..

أما عن الأستاذ الخولى :

(فالشيخ بعدما انقطع عن الأزهــر ، وكشف موقفــه من القرآن الكريم فى الجامعة يريد الآن أن يلبس رداء النصح ، والا فأين كانت هذه الحماسة الاصلاحية أيام كان هذا الشيخ يعمل فى الأزهر ، ويبالغ فى اطرائه ، فلما صار بعيدا عنه ارتد بخاصة ويعاديه ؟! (٢) ..

الأزهريون واصلاح الحياة بالدين ..

أخذ الأستاذ الخولى على الازهر موقفــه من الجمعيــة الخيرية الاسلامية التى انشأها الشيخ محمــد عبده ، وقــال فى (هيئة كبار العلماء للدعوة الى سبيل الله) ،

.. (جد جدى _ وكنت فيهم أشــتغل بجهدى المتواضــع

(١) المصرى ١٩٥٢/٦/٢٣ م .

(٢) المصرى ١٩٥٢\٧\٨ م .

فى التهيئة لهذه الهيئه الموعودة . التى استهلت صارخة ، بنداء أرسلته فى الصحف ، وهيأت به الاعلان المرجو ، ثم سقطت ميتة، فكفنت بلفائف الصحف التى دونت فيها نظمها وقوانينها ، وكانت لفائف عريضة فسيحة الأرجاء ، بعيدة الآمال الواهمة .. وغفر الله للموتى من أصحاب المناورة ، ورحم الأحياء منهم ، والمخدوعين بما كان) .

ثم أشار الى عدم وجود عملي لجمعية الدفاع عن الاسلام، وقارن بين رجال الدين عندنا وبين المبشرين .. ثم قال :

(أين هذا من ذلك .. ان تلك المنشآت ليست صورا من القرون الوسطى تتبع الطرق البالية ، والأساليب الفانية ، بل هى توجيه عقلى حيوى ، وتدبير دينى جبار ، بين المعاهد الدينيه الأزهرية وبينه مسيرة خمسمائه عام !!) (١) .

ويواصل الأستاذ الخولى معركته لاصلاح الأزهر — بعد سنوات فى مجلة (الأدب) ، فاذا هو يسخر من التطور الذى يهدف اليه رجاله :

راحوا يتشبهون بغيرهم ، ويحشرون أنفسهم فى سواهم ، هربا من طابعهم ، وبرما بشارتهم ، وامتهانا لرسالتهم .. فما يحاولون الا اقتباس نظم ليست لهم ، ولا يلبسون الا ثوب زور، لم يفصل لجسمهم وهم على ما سمعت سيمنحون الليسانس ، والماجستير ، والدكتوراه ، فان تكن أسماء بلا مسميات فهى مهزلة ساخرة ، وسخرية بالغة .. وان تكن على غرارها عند الآخرين فماذا يكونون هم ؟ وأى مكان لهم بعد ذلك فى الحياة ؟ وأى رسالة ؟) .. (٢)

---

(١) المصرى ١٩٥٢/٧/٢١ م .
(٢) محلك سر .. الأدب — فبراير ١٩٦١ .

كبار من العلماء ..

ويحصل الأستاذ الخولى على رجال يحترفون الدين الذى دستوره القرآن – معجزة العربية الكبرى – ومع ذلك تجد لغة القرآن غريبة على ألسنتهم :

.. (أنى يوم كنت اؤدى أمام أولئك المشيخة امتحان التعيين فى علومهم : التفسير والفقه والبلاغة والتعيين عندهم درس يعين موضوعه قبل أيام ويؤدى بين يدى أكابرهم ، من شيخ الاسلام ومفت وشيخ معهد ورئيس محكمة ، ومن فى مستوى هؤلاء ..

وقد قررت – لمعرفتى بحالهم هذه من الوقوف عند العامية – أن تكون حيلتى انما هى أن أؤدى التعيين بالعربية الفصحى ، الطلقة ، المتفاصحة ، فلا يكادو يلاحقوننى فهما وتعقبا ، ولا يوشكون أن يطرحوا اعتراضاتهم التقليدية ، المقررة فى حواشى الموضوع وتقريراته ، لأنهم لا يحسنون ذلك بالفصحى الصحيحة ولا يسهل أن يؤدوها بالعامية ، وأنا أؤدى بالفصحى الصحيحة . وحتى لو سألوا بالعامية لأجبت بالفصحى .. ويسعنى اذا غيرت عبارات الكتب أن أطمئن الى أنهم لا يديرون واياى حجاجا بغير ما ألفوا من عبارات ..

وكان ماقدرت أن يكون ، فغير الالقاء بالفصحى جوهم ، وغير الرد بالفصحى على اعتراضاتهم جو فهمها .. فلم يجدوا فرص اللجاج المتشعبة بجدل عقيم ..

وأولئك كبار من العلماء ، وهذه حالهم فى التعبير بالعامية عن حقائق حكمتهم الفخمة فى تقديرهم !!) (١)

---

(١) تجارب فنية فى حياة بيرم – الأدب – مارس سنة ١٩٦١

أزهر .. أو .. لا أزهر ..

وبصدد تطوير الأزهر ، يبين لنا الأستاذ الخولى أن اهتمامه بهذاالتطوير يرجع الى فترة امامته للبعثة الدبلوماسية المصريه فى كل من روما وبرلين :

فقصدت الى دراسة الخطط والأساليب التى تتبع فى الدراسة اللاهوتية ، كما نظرت فيما حولى ، من الدولة الدينية القائمة فى عاصمة الدولة المدنية بايطاليا وطال تتبعى لهذه الدراسات اللاهوتية فى أقطار أوربية عشت فيها بعد ذلك كألمانيا - أو أقطار زرتها مجرد زيارة ، وعمدت بعد الدراسة والتفكير للكتابة عن قضية الأزهر واصلاحه وتطويره) (١) ..

ثم يحدثنا عن شخصية الأزهر المرجوة ، القائمة على (تدين لا سلطة فيه ولا كهنوت) ..

تمكينا للانسانية من أن تسعد بأثر هذا العامل على يد من هم قدوة حية فى المشاركة العامة المترفة السعيدة بالمعنويات ، التى تفقه من الدين لبابه ، وتحيا بروحه) (٢) ..

وحياتنا لا تتطلب من الأزهر الا (شخصيته المسجدية) ..

.. والزعم (أن تظفر الحياة بدعاة اسلاميين ، يكونون أطباء ومتحدثين فى الدين ، يرتادون تلك المناطق البدائية ، فيبلغون من أهلها مبلغا ، بفضل نزعتهم العلمية ، اذ يطبون ويدعون معا ،

---

(١) أزهر .. أـ لا ازهر - الأدب - يناير سنة ١٩٦٢ .

(٢) كذا .. ولعل اللفظ (حوله) والخطأ مطبعى .

على غرار طوائف التبشير الأخرى ٠٠ أهون من أن يطور على أساسه معهد كبير ، وماض طويل ، وتاريخ حافل ٠٠ لأن هؤلاء الدعاة الأطباء أو المهندسين أو الزراع سيلقون قوى من أصحاب الأديان الذين مرنوا على التبشير ، وخبروا الحياة فى هذه المناطق . وكانوا فى هذا ذوى خبرة عالمية ، تسندها دراسات علماء متخصصين ، متفرغين ، لحياة هذه المناطق وطبيعتها ، ولغاتها، وكل ما يتصل بحياتها وحياة ما فيها ومن فيها ، ونحن نعرف أن الكتب الدينية المسيحية قد ترجمت الى لهجات هذه المناطق بعدما خدمت تلك اللهجات ، ووضعت أصول كتابتها ، اذ كانت لم تصل بعد الى مرحلة الكتابة ، وهذا طرف يمثل الجهد الجبار الذى تقوم به المقدرة الغربية ، فى دراسات هذه المناطق ٠٠ فهل نلقى هؤلاء بأشخاص لاهم علميون خلص ، ولا هم دينيون خلص لننافسهم على كسب مناطق ، لهم فيها تلك الأقدام الوطيدة وتلك الدراسات التى نحتاج نحن الى مثلها ، فى خاص شئوننا ، وجليل تاريخنا ؟ ! .

(ان مبعوثى الشعوب الاسلامية الى الأزهر يعودون لبلادهم غير قادرين على عمل حيوى لقومهم ، أو يهربون أثناء وجودهم هنا الى دراسات أخرى ، غير الدراسات الاسلامية .. فكان هذا التطور من أجل امدادهم بمعارف حيوية ، مع التعليم الدينى ، ليكونوا فى بلادهم أنفع لها ، وأجدى عليها ٠٠

٠٠ واذا كانت الحياة الدينية فى بلادهم على مثل ما رأيتها ، فى غير بلد من بلاد الشرق الأقصى ، من التدهور والتحلل ، فلن يستطيعوا أن يصنعوا لها خيرا بهذا الخلط الذى لا يخلصون معه لدين ولا لعلم ٠٠

والأمر فى التكوين العلمى ، والاعداد الدينى ، أعمق من

أن يؤخذ مختلطا ، وينـال جملة ، كما ان الأمر فى التبشير أحوج الى قوى نافذة ، وجهـود أصيلة ، تسـندها دراسـات وخبرات المناطق التى نحسب أنه لايزال لنـا فيهـا مجال ارشاد أو مطمع دعاية) .. .

اذن .. (لابد أن يسير هذا التطوير فى الاتجاه الذى رسمته الحياة للأزهر ، أى : الاتجاه الدينى ، السامى المثل ، الانسـانى الثقافة ، الاجتماعى المنزع ، على نحو ما وصف خطوطه الكبرى فى رسالة الأزهر .

.. والاعتماد على الشخصية المادية والاجتماعية المستقلـة للأزهر ، بكيانه وماله ، وتقاليده ، وعاداته كذلك) .

وأن تكون (الدراسـة العليـا فى الأزهر متميزة متطورة) ، تقتصر على كليتى : (الدراسات الانسانية والدراسات الاسلامية) ولن تكون تلك الدراسات تكرارا للنظام الجامعى فى مصر . وزيادة لصنف من الخرجين موجود) ..

... (ان قسم اللغات والآداب فى كلية الدراسات الانسانية بالأزهر سيتخرج فيه أصحاب دراسة عليا ، لن يمكن مع وجودهم أن يتأستذ فى الأدب من لا يحسن قراءة آية من القرآن ، فضـلا عن فهمها ... و .. يكون قسم للتـاريخ وآخر للفلسفـة .. لن يتأستذ مع وجود خريجيه من لا يسـتطيع أن يقرأ صفحة واحدة مفهومة من تاريخ الطبرى أو كتاب المواقف مثلا ..

وكلية الدراسات الاسلامية فى الأزهر تدرس الاعتقـاديات بعلومها ، وفلسفتها ، وتدرس العمليات بأصولها وفروعها ، ويكون لها فى هؤلاء الطلاب الذين صنعهم الأزهر على عينة ما لن يوجد فى دراسة بكليات الحقوق أو غيرها من جهات تدرس شيئا عن هذا الاسلام ..

والى جانب الكليتين معاهد تمتص المتخرجين فى كل مرحلة من الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وتدربهم لعمل تحتاجه الحياة ، وتكفى فيه ثقافة المرحلة التى أتموها ·· فيكون معهد البصراء الذى سيأخذ فى أمر المكفوفين بأقوى وأبعد ما أخذت تلك المعاهد فى الدنيا الحية المتطورة ·· ومعهد القراء بعد مرحلة التعليم الابتدائى ومعهد التوثيق والأعمال القضائية بعد الاعدادية · يخرج مسجلين وكتابا للمحاكم ومحضرين ·· ومعهد الشعائر الدينية بعد الثانوية لتخريج من يقيمون الشعائر الدينية فى المساجد ، وعلى ان يكون الدعاة والمرشدون مرحلة بعد ذلك من خريجى الكليات ··

وبهذا يكون التطوير ·· وبدون تغيير تضيع معه معالم الطريق ولا يكون معه أزهر بشخصيته الخاصة ·· ولا أزهر بلا شخصية ، بل يكون تكرار لما عندنا من جديد الجامعة الذى لم تستقر له على الجادة اليوم قدم) (١) ·

تعدد الثقافات تصديع اجتماعى ··

جاء فى الأهرام – ١٩٦٤/٨/١٦ – (لاول مرة فى تاريخ الأزهر سيقوم بانشاء « ٢٥ » مدرسة ابتدائية جديدة ، لقبول الأطفال من سن السادسة واعتمد لهذا الغرض مبلغ ٧٢٧ ألفا و ٥٠٠ جنيه) ··

فكتب الأستاذ الخولى متعجبا ، أنساير التطور ، أم نناوئه ؟ !

.... (طالبت فى رسالة الأزهر – منذ ثمانية عشر عاما – بعدم تفرد هذا الأزهر فى خطوتى التعليم الأولى والثانية ، لأن

---

(١) ازهر · أو لا أزهر – الأدب – ابريل سنة ١٩٦٢ ·

هذا من خير الأزهر نفسه حتى لايكون رجله الذى يتحدث الى الأمة صاحب عقلية منفصلة عن عقلية الذين يتحدث اليهم ، وصاحب نظرة الى الحياة تختلف عن نظرتهم ، وهو بذلك صاحب خلقية تختلف عن خلقيتهم ، فلا يكون بينه وبينهم تلاق ، ولا يرجى من عمله فيهم خير أو حسن أثر ..

وأصل من هذا كله وأجدى ، الدقة فى اعداد المعلم المثقف ، اعدادا يضمن حسن فهم الحياة ،وسلامة منطقه فيها ، ونظرته اليها ، فلا يكون صاحب أوهام ، ولا قابل خرافات ، ولا متلمس خوارق .. ومهما تكن صعوبة هذا الاعداد الصالح للمعلم ، فان اثره فى الحياة ، وعمله فى اعداد الأجيال يبرر احتمالها ، بل يوجب تقبلها ، والعمل على تحقيقها ...

.. (فهل هذا الأزهر بمشيخته المنفصلة عن جامعته لايزال شيئا له صفة خاصة ؟! أو هو مجال من مجالات نشاط وزارة التربية والتعليم ؟!) (١)

(١) تعدد الثقافات تصديع اجتماعى ـ الأدب ـ نوفمبر سنة ١٩٦٤ .

مع المستشرقين

سبق أن شكا الأستاذ الخولى من الرياســـات الدينية التى تتخذ الدين تكأة لألوان من الحــكم الاستبدادى الفاسد ، وسيلة لايجاد (طبقة تنتفخ كروشها ، وتتورم عمائمها ، وتزعم أن حكم الله عندها ، وكلمة الاســـلام حكرها ، وحماية الاسلام مهنتها ، فلا يكون أفرادها أســودا الا على مسلم أو شرقى رجــا الخير ، وابتغى البر ، ففكر وعبر ، أو تململ فتحرر .. أما حين يكون المتكلم مبشرا أو مستشرقا أو متكلما غربيا ، فلا غناء عنــدهم ، ولا خير فيهم . ولا هم أصحاب فكرة تفرع فكرة ، ولا أصــحاب لسان يقدم بيانا) ..

وكان واجبا عليه ــ وقد أحس من نفســه القــدرة ــ أن ينهض بما نكص عنــه هؤلاء ، وبخاصــة أن المستشرقين يتناولون القضـايا الاسلامية من وجهة نظر علمية ، سواء أكانت خالصة أم مشوبة ، والنظر العلمى هو طريق الأستاذ الخولى الى التجديد .. والى ذلك فالتنــاول الدينى لا يتوفر الا بالفهــم الســليم للقرآن الكريم ، وهذا الفهم ليس ســهلا على من لا يتذوقون العربية ، وان عرفوها ، فحس العربية وادراك أسرارها شىء ، وتعلم ألفاظها

وادراك مرآميها الظاهرة شيء آخر .. والأستاذ الخولى داعية التفسير الأدبى والبلاغى للقرآن الكريم .. والقضايا الاسلامية لايتأتى تشخيصها منتزعة من بيئتها المادية والمعنوية ، وأبناء البيئة انفسهم اقدر الناس على التفاعل معها وحس العوامل المؤثرة فيها ، كما يرى الأستاذ الخولى ..

ومن أجل هذا كله عمض لأقوال المستشرقين - على علم بهم عرض عالم يقظ أمين ، يصحح فهمهم للاسلام ، ويؤكد فكرته فى التجديد ..

وعهده بالاستشراق والمستشرقين يرجع الى العقد الثانى من حياته ، منذ أخذ يدرس التاريخ العربى الاسلامى ، واعيا مجرى الأحداث ، متأملا الروابط التى ربطت بين الشرق والغرب مدركا أثر الثقافة العربية الاسلامية فى النهضة الأوربية ..

وقد عالج الصورة الأولية لما ترسب فى وجدانه عن الصلة الثقافية بين الشرق والغرب فى مسرحية (ابن العمدة .. حين جعل أحد جنودنا يلتقى بأحد رواد أعالى النيل - بعد ابادة حملة (هكس) - ويسافر معه الى أوربا ، يعلمه العربية ويلتقى بالحياة الجديدة .. ثم يعود فى صورة مستشرق (١) ..

وفى مسرحية (الراهب المتنكر) قص علينا من أخبار الراهب (جلبرت) - سلفستر الثانى - حين ذهب الى الأندلس مع الملكة (طوطة) ملكة (بسبلونا التى قدمت على (عبد الرحمن الناصر) تستعين به لتجهيز جيش يحمى عرش ابنها المريض من ابن عمه الذى طمع فى الملك بعد موت زوجها ، والراهب يستعين بالقائد (سعيد ابن المنذر) فى طلب العلم بمساجد المسلمين (٢) .

---

(١) ص ١٦/١٧ من الحديث عن نشأته .

(٢) أنظر مجلة الأدب - عدد يناير سنة ١٩٦٩ م .

كما حدثنا في مسرحية (سفير الرشيد) عن بعثة الرشيد الى (شرلمان) تحمل الهدايا ، وتقوم بالسفارة وتطلع على شئون الروم (١) ..

ومع نضج شبابه .. عالج هذه الصورة — على نطاق أوسع — فى بحثه عن السياحات الاسلامية) الذى قدمه لمدرسة القضاء الشرعى عام (١٩١٥ — ١٩١٦) م فى كراستين كبيرتين ، مبينا وسائل المواصلات بين المسلمين والعالم وحياة السائحين فى اغترابهم ، وأنواع السياحات الاسلامية ، وذكر أشهر السائحين المسلمين .

واقترب من ميدان الاستشراق أكثر حين كتب بحثه المدنية العربية فى صقلية) مبينا (تأثير الاسلام فى صقلية ، منذ الصدر الأول قبل فتحها) ، وعرض للحضارة العربية الاسلامية فيها ، الى ما بعد سقوط دولة العرب ، منوها برعاية (روجر) النورماندى للثقافة الاسلامية ولعلماء المسلمين ..

وأثناء سفارته الدينية بروما وبرلين ، قوى اتصاله بحركة الاستشراق ، من خلال الايطالية والالمانية اللتين أتقنهما ، ومن خلال اتصالاته الشخصية ...

فلما تناول الأستاذ اسماعيل مظهر الحضارة العربية والعقلية العربية بالاتهام والقدح — على صفحات المقتطف — عرض له الأستاذ الخولى ، مبينا أصالة العقلية العربية فى الميدانين العلمى والفنى ، وفضل العرب على أوربا مستدلا لا بما وجد فى ديار القوم (٢) ..

---

(١) ص ٢١ من الحديث عن نشأته .

(٢) ص ٤٣ ، ٤٤ نشأته .

صلة الاسلام باصلاح المسيحية

وفى عام ١٩٣٥ م (دعى الأزهر — فى عهد الشيخ محمد مصطفى المراغى ؛ لحضور مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينه بروكسل (١٦ — ٢١ سبتمبر) وقد اختار الأستاذ الخولى موضوعا لبحثه (حادث الاصلاح البروتستانتى فى المسيحيه) . فكتب فى هذه الرسالة بحثا عن الصلة بين هذا الحادث وبين الدين الاسلامى والعلوم الاسلامية) (١) ..

ونوه الشيخ المراغى بهذا البحث — حين قدم له — قائلا :

(موضوع طريف وبكر — فيما أظن — ويبدو كأنه غريب ، لكن الأستاذ الخولى بما منح من رجاحة العقل ، ودقة البحث ، وسعة الاطلاع — استطاع ان يزيل هذه الغرابة ، وأن يمهد الطريق للوصول الى رأى صائب فى الموضوع) (٢) ..

.. (وهذه الدراسة التى حاولها الأستاذ فى هذه المسألة خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين ، فى دراسة الأديان دراسة مقارنة ، فهى تعين على أداء رسالة الاسلام ، وتوسع أفق العالم والمتدين ، وتزيده بصيرة فى دينه ، وتقديرا لعلماء السلف من المسلمين) (٣) ..

.. (ولا يجوز لى أن أختم القول دون اظهار اعجابى بسعة اطلاع الأستاذ الخولى ، وقوة صبره على الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه) (٤) ..

ولقد استعان الأستاذ الخولى فى بحثه — الذى لا يتجاوز

---

(١) صلة الاسلام باصلاح المسيحية — ص ٥
(٢) المصدر السابق ص ١٤
(٣) المصدر نفسه ص ٨٠ .
(٤) المصدر نفسه ص ٧٩

خمسا وستين صفحة ـ بأكثر من خمسة وثلاثين مرجعا ، اكثرها بالعربية والايطالية ، ومترجمات الى العربية والايطالية ..

وكتب البحث بالايطالية ـ كما يشير الى ذلك ص ٧٨ ـ ثم بالعربيـة .. ومضى فى موضوعه على غير سابقـة .. (لقد كنت أبحث ، متمنيا أن أجد من صرح بهذا الاقتباس فى الشرق أو فى الغرب ، لأشعر بنصرته للفكر ، ثم أمضى فى بيانها وتأييدها ، فلم تصل يدى الى شىء من ذلك) ..

ولكن (هذا الموضوع يشغل فكرى منذ نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى روما ورأيت نسخة من ترجمة القرآن الكريم ظهرت حوالى عهد الاصلاح الدينى ، وقيـدت ذلك فى مذكرات علميـة محفوظة) ..

وقد حرص الباحث كعادته ـ على أن يـكون بحثه سـهل التناول : حسن تنظيم ودقة عبـارة .. فعرض فى (الفاتحـة) لأهمية بحثه ، ونوع الدراسات قبله عن الاتصـال بين المسيحية والاسلام ، وما يقصـده من مفهوم الاسـلام واصـلاح المسـيحية ، ومنهجه فى ذلك الدرس الذى يعتمد على الاتصال المادى والمعنوى بين الاسلام والمسيحية فى أوربا ، وآثار ذلك الاتصـال فى أفكار الاصلاح المسيحى ، وآراء دعاته ، خلال أزمنة طويلة ...

وبين أن أظهر مظاهر الاتصال المادى تتمثل فى :

١ ـ مواجهة حربيـة سعى فيهـا الشرق حينـا الى الغرب ، والغرب آنا الى الشرق ، فى غارات منظمة ، وأعمال عصابات قوية ، وحروب صليبية ..

٢ ـ اسرى يطول مقامهم ، ويتأثرون فكريا ، ودينيا ، وعمليا .

٣ ـ استعانة الغرب بالمسلمين فى جنده ، والشرق بالمسيحيين .

٤ ـ تداخل الحدود ، ووجود ما يشبه الجاليات الأجنبية من الجانبين ..

٥ ـ اتجاه الدعاية السياسية الى النواحى الدينية فى محاولات لتوهين القوى المعنوية .

٦ ـ تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقدير الصلح ، وتوطيد العلاقات .. وفى هذه الوفود رجال الدين يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية التى كانت تجرى عند التقابل ..

٧ ـ تبادل المد والجزر بين الفريقين ، كان يترك فلولا ، بل جموعا تطويها الغلبة السياسية والحربية ، فتصبح عناصر تلقيح، وطرق تعريف بالاسلام ..

٨ ـ مطالب السياسة تدفع رجال الحكم الى توثيق الصلات بأسباب التردد المختلفة ، ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الدينى ، ويهيىء التفاهم القريب ..

٩ ـ كما سعى رجال السياسة بعضهم الى بعض سعى رجال الدينين، بغية نشر الدين ، وكسب الاتباع ..

١٠ ـ وراء ذلك الحياة المدنية العادية التى لن تخضعها للعزلة المواصفات المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادتها ، بل تسيرها الروابط الاجتماعية والمصالح الاقتصادية القاهرة ..

وفى الوقت الذى كانت تجنح فيه الأمة الاسلامية الى الاستقرار ، لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا خلال المدة من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى كانت الحياة الاجتماعية والعقلية ، بل الدينية فى الغرب غافلة هامدة .. وكان الدين المسيحى قد صار الى بدع بربرية ، وأكثر رجاله جهلة لايستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع ..

وبدأ الاتصال المعنوى بين الدينين عن طريق :

١ ــ التعلم من مسلمى الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتثقف فيها الخاص والعام ..

٢ ــ محاولة نقل المعارف الى أنحاء أوربا ، وأصبح للترجمة دوائر منظمة يؤديها ملوك فى أنحاء مختلفة من أوربا .

٣ ــ حينما قويت حركة التعلم والنقل العلمى كان انتشار اللغة العربية فى أوربا مظهرا له قيمته فى درجة الاتصال بين الاسلام والمسيحية الغربية ..

٤ ــ قامت فى اوربا حركة مقاومة للاسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية والعبرية ، لاخراج مبشرين ضد الاسلام ..

٥ ــ نقل اليهود الثقافة الاسلامية الى أوربا ، حين هاجروا من اسبانيا الى الشمال ، لأسباب سياسية ، أو اجتماعية ، مختلفة ..

٦ ــ لم يلبث الغربيون أن درسوا فلاسفة الاسلام جميعا ، بحيث صارت فلسفة العصور الوسطى اسلامية القيادة ، وهذا يؤهل فى غير شك للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ..

٧ ـ كان بين اللاهوتيين المسيحيين فى الشرق والغرب رجال عرفوا الاسلام معرفة غيريسيرة الشأن ، ولاساذجة ، فاطلعوا على معارفه الدينية ، وناقشوا فيها ، وجادلوا أهلها ، ولم يكن (ريموند مارتن ق ١٣) يعرف القرآن والسنة فحسب بل كان يعرف كبار العلماء من رجال الدين الاسلامى وعظماء فلاسفة الاسلام ..

٨ ـ لآراء ابن حزم فى نقد الفرق الاسلامية ، والتوسل بالأولياء والمذاهب الصوفية ، وأصحاب التنجيم ـ أثر كبير على رجال الدين المسيحى ، عن طريق أسبانيا الاسلامية ..

٩ ـ كان لفردريك الثانى وميوله الشرقية العربية ، بل الاسلامية وصلته بألفونس الحكيم . والبرت الكبير ـ أثر كبير فى البيئة الألمانيــة بخاصة ، وهى التى كانت ميدان معـــارك الاصلاح العملى للمسيحية فى دوره التنفيذى ..

وقد ترتب على هذا كله نتائج عامة فى الحياة الدينية والعقلية الأوربية ، من حيث مظاهرها فى تدين أهلها ، وفهمهم للدين ثم ماترتب على هذا كله من نتائج خاصة فى الاصلاح المسيحى نفسه ، وآراء القائمين به ، وما دعوا اليه من أفكار ، وناضلوا فى سبيله من مبادىء ..

(على أنا حين نفسر هذا الاتصال . وذلك التأثير ، لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه ســببها الأول والأخير ، بل نقدر ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ودينيــة وغيرها ، قد عملت عملهـــا ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى النواحى العقلية والدينية التى قربها لها ، وقدمهــا بين يديهــا ، ذلك الاتصال السالف بالشرق الاسلامى) ..

وكانت المظاهر العامة لهذا التأثير فى حياة المسيحية بالغرب :

١ ــ الغض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها على الحياة .

٢ ــ تحرير العقل ..

٣ ــ الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ..

ومن الآثار الخاصة :

١ ــ رفض السلطة الكنسية ، سواء أكانت ممثلة فى البابا أم فى المجامع والنقد الاسلامى لهذه السلطة الكنسية قوى شائع حتى ليتمثل فى أناشيد العصور الوسطى .. وأعظم عيب عاب به النصرانية هو عبادة البابا . ومسألة الاعتراف ..

٢ ــ يكفى للنجاة تصحيح العقيدة فالنجاة منحة من الله يتلقاها كل انسان من ربه رأسا دون توسط الكنيسة ، اذ لا واسطة بين الله والناس (لوثر) .

وقول ، ابكهارت الألمانى : (كان الروح الانسانية نفخه من الأزلى ، وشرارة الهية ، فلا ينبغى أن يقوم شىء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصال بينهما مباشرة ــ يتصل بعلم النفس الدينى عند الغزالى ..

٣ ــ ان كلمة (الله) هى الضابط الوحيد ، فالسلطة انما هى للكتاب المقدس وحده . وينبذ كل ما هو خارج منه من آراء المجامع والآباء والتقاليد ..

والبحث فى منشأ هذه الفكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقه فى تاريخ التشريع الاسلامى عامة ، وتاريخ الحياة العقلية فى الأندلس بخاصة .

٤ ـ ان لكل مسيحى الحق فى تفسير الكتاب المقدس ، (وليس من القليل الاثر فى هذا ما عرفه الغربيون ، المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى فى الاسلام ، من نظام التفسير عند عامة المسلمين لكتابهم المقدس وتحكم الأصول الدينية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحد بعينه فى ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة ، يتلقى منها التفسير) ..

٥ ـ الاعتقاد بوجود المسيح فى القرآن الى جانب الخبز والنبيذ ، دون أن تكون استحالة حقة .. وانا لنجد ما (يبرر الاطمئنان الى استنتاج أن الفكرة فى وجود المسيح عند مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلا الى جسده ودمه . قد تأثرت بفكرة أن المسببات يخلقها الله عند وجود أسبابها لا أن توجد بها نفسها ..

الفكرة هى الفكرة ، والنزاع يشبه النزاع ، والمتنازعات هما العقيدة والفلسفة . والتوفيق الاسلامى دينى يريد ارضاء الفلسفة والتوفيق المسيحى فلسفى يريد أن يفهم الدين ، أو يرضيه ، والتوفيق الغربى متأخر عن التوفيق الشرقى لوقت طويل) ..

٦ ـ ابطال الصور ، ورفعها من المعابد ، بل وصل الأمر الى تدنيسها وتحطيمها .. ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على ابطال عبادة الصور ، والعلاقة بين (ليون الثالث) مكسر الأصنام والذى أقلق سلام الكنيسة ، وأظهر الفكرة فى عنف ـ وبين الاسلام والمسلمين علاقة وثيقة ..

(واذا كان الأستاذ (الفريد جبوم) يقول بعد ما تحدث عن تراث الاسلام فى الفلسفة والالهيات مانصه : وسوف ترى ـ عندما تخرج الى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية ـ أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأنا

واكثر خطرا ، مما عرفناه حتى الآن ـ فانى لأقول .. سوف نرى ـ عندما تتجه الرغبة العلمية الى درس هذه الصلة بين الدينين فى نزاهة واخلاص ـ أن أثر الاسلام فى حياة أوربا الدينية لا يقل أبدا عن أثره فى حياتها الفلسفية والعلمية والفنية) ..

ومن هذا الاتصال الواسع بتاريخ الاستشراق وطبيعته ، وموقف المستشرقين من التراث الاسلامى ، يقف الأستاذ الخولى على أرض صلبة ـ يحق حقهم ويبطل باطلهم .. تمده ثقافة غنية ممتدة فى القديم والحديث ..

دائرة المعارف الاسلامية

ومنذ بدات ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، والاستاذ الخولى يتابع ما كتب المستشرقون فيها بالتعليق والنقد ..

كتب مادة (أصول) يوسف شاخت (١) ..

فعلق الأستاذ الخولى على ما جاء فى هذه المادة يقول (٢) :

(كنا ـ ولا نزال ـ نرى أن أنفس ما يقتبس عن الغرب فى الدراسات الشرقية والاسلامية ، انما هو أساليب البحث العلمى وطرائق النقد الدقيق الحر المنتظم ولكننا نشهد بين الفينة والفينة أن تلك الأساليب وهاتيك الطرائق تلتوى وتضطرب بين أيدى رجال من المجلين فيهم فلا يكاد يصلحها الا ملحظ دقيق قد جرى عليه المشارقة فى دراستهم لتلك الشئون ، التى هم أهلها الأولون ، وأولو الرأى فيها ، كما سنشهد فى مواضع النظر من هذه المادة)

وعلق على قول الباحث : (ان المسلمين لم يشكوا فى قطعية

(١) ص ٢٦٥ وما بعدها ـ المجلد الثانى .

(٢) ص ٢٦٦ وما بعدها م٢ .

ثبوت القرآن وتنزهه عن الخطأ ، على الرغم من امكـان سـعى الشيطان لتخليطه) ، ويستشهد لذلك بآية ٥١ ــ ٥٢ فى المصحف الملكى من سورة الحج ، ولا يزيد على ذلك ، بل يحيـل على تاريخ القرآن لنولدكه ــ

علق بذكر حديث (الغرانيق) الذى جاء فى تفسير (الطبرى) سببا لنزول الآية ، وقال ان قصة هذا الحديث (قديمة الوجود كما هى قديمة النقد ، تولاها العلماء بالهدم ، منذ عهد محمد بن أسحق فى القرن الثانى الهجرى ، الى عهد الاستاذ الإمام محمد عبده فى القرن الرابع عشر ، ونالوه بصفوف من التوهين الحاطم ، وأورد ما جاء فى ذلك نقدا للسند والمتن ، ثم أضاف (أن الآية مع ذلك كله لا تكون شاهدا على هذه الدعوى فى امكان سعى الشيطان لذلك ، لوجوه :

١ ــ ان الآية ــ على أن هذا سـبب النزول ، وعلى فرض تخليط الشيطان على الأنبياء ــ ليست حديثا على تخليط حصـل لنبى الاسلام ، ولا فيها اشارة اليه ، والى هذا يشير أبو حيان . .

٢ ــ أن معنى الآية ــ مع تسليم هذا السبب ، وتوجيه تفسيرها بمقتضاه انما هو أن ما يقع من التخليط الشـيطانى مؤقت لايلبث ان ينسـخه الله ، ثم يحـكم الله آيـاته ، والله عليم حكيم ، فهو امكان مؤقت لا يترك أثرا ، فلا يتجـه مع هـذا الاستدلال بالآية على امكان التخليط . .

٣ ــ أن الذين فاتهم نقد هذه الآية من المفسرين ، وكبـروا فى هذا المقام ، كالزمخشرى والطبرى ، لم يجدوا فى هذا غضاضة ، بل عدوا المسألة كما ورد فى الآية محنة وابتلاء . .

. . فليست مع تسليم هـذا التخطيط كله فى سبب النزول

المزيف حجة لامكان سعى الشيطان لتخطيط القرآن تخليطا ينقض على المسلمين القول بقطعية ثبوته ، ولا لهذا شيء من الاحساس الذى يجعل عالما يلقيه حجة مسلمة ، وقولة مفروغا منها) ..

.. (يقول الكاتب : ان النبى قد نسى عدة آيات من القرآن ، وهذا لا يتفق مع دعوى المسلمين أن القرآن وصل الينا من غير تحريف ، ويستشهد لنسيان الرسول عدة آيات من القرآن بآية «١٠٠» من سورة البقرة ، ولعلها ليست الا آية ١٠٦ فى المصحف الملكى ، وهى « ما ننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير » .. كما يحتج لذلك بآية ٦ من سورة الأعلى ، وهو ولا شك يريد آيتى ٦ ، ٧ من هذه السورة وهما « سنقرئك فلا تنسى . الا ما شاء الله ، انه يعلم الجهر وما يخفي » ، وهو احتجاج واضح الدخل واليك اجمال القول فى بيان ضعفه ، وسوء حاله) ..

عن الآية الأولى :

١ ــ فى آية « ما ننسخ من آية أو ننسها .. » قد فسرت الآية بالمعجزة وما يؤيد الله به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم ، وهو من معنى الآية لغة ، ويقويه جد التقوية ختم الآية بان الله على كل شيء قدير ، والتعقيب بأن له ملك السموات والأرض ، وأن لا ولى من دونه ولا نصير ، ثم القول فى ارادتهم أن يسألوا رسولهم كما سئل موسى من قبل فى الآيات والدلائل المؤيدة والمعجزات .. وهذا الرأى فى تفسيرها هو الذى ارتضاه الأستاذ الامام ، وأوضح أوجه تأييده له ..

٢ ــ أن كلمة « ننسها » فى آية البقرة فيها أكثر من احدى عشرة

قراءة ·· وفيهـــا عـدة معـان ، فهى بمعنى التأخير ، أو بمعنى الترك ، أو من النســيان المعـروف ·,· واذا كانت الكلمة تتحمل هذه المعانى ، فكيف تحكم الكاتب فجعلها النسـيان فقط ، وطوى هذا فى استشهاده واحتجاجه ؟ !

٣ ــ انها ليست شاهدا مطلقا على دعواه أن النبى نسى آيات ، وأخل هذا بصيانة الكتاب عن التحريف ، لأن الكلام فى انساء الله اياه ، لا فى نسيانه هو ، وانساء الله الآية كعدل ايحائها ، وهو بالنسيان بعد ذلك يؤدى رسالته ، أما لو أراد الله ابلاغهـا فنسـيها ، ولم يؤدها ، فهذا هو المحرف للوحي ، وليس هو المذكور فى الآية ··

٤ ــ أنه ــ على أبعد التنزيل والمسايرة ، ومع فرض قصر الكلمة فى الآية على « تنسها » بنـاء الخطاب ، وهو أبلغ ما يطمع فيه المستشهد ــ على هذا كله لا تشهد الآية على وقوع النسيان ، ولا على الاخلال بصيانة الكتاب عن التحريف ·· وكل ما تفيده حصـول الجواب ان حصل الشرط ، لا وقوع الشرط فعلا ·· ــ ثم ان ــ الآية على عكس ما يريد الأستاذ ــ شاهدة ــ بغرض أن هذا تفسيرها ؛ وعلى كل هذا التنزل والتسليم ــ على عناية زائدة بمراقبـة التبليغ ، واصـلاح شأنه ، فكيف جعلها الكاتب شاهدة نسيان وتحريف ؟ !

عن الآية الثانية :

ان أبى الا قصرها على معنى النسـيان ، فالاسـتثناء منه ــ الا ماشاء الله ــ قد فسر بأنه استثناء غير حقيقى ، وذلك لأوجه منها :

١ ـ أن الاستثناء انما هو لاظهار قدرة الله ، وان عدم نسيان الرسول منحة من الله ـ له وتفضل يؤيده به ·

٢ ـ أن هذا الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار ، فهو استثناء فى صلة الكلام ، وليس ثم شيء أريد اخراجه ··

·· على أنى أختصر الطريق · فأقول لكاتب المادة : لتكن الكلمة من النسيان بمعنى عدم الذكر لا غير ، وليكن استثناء حقيقيا قصد به اخراج شيء فمع ذلك كله لا شاهد فى آيتى الأعلى على وقوع النسيان من الرسول فعلا ، ولا على الاخلال بصيانة الكتاب من التحريف ، وبيانه على نحو ما أسلفنا فى آية البقرة ان كل ما ذكرت انما هو ان الرسول لا ينسى الا بمشيئة الله ، لا أنه نسى فعلا ، فان نسى بعد ذلك فليس ذلك نقصا فيه ، وليس لنسيانه آثر مادام ذلك بمشيئة الله ..

.. (ويرى الكاتب ان وقوع النسخ فى القرآن يتعارض مع قطعية ثبوته ، وهذا مالا يظهر وجهه ، واذا كان لما تعلق به الكاتب آنفا من التخليط والنسيان شبه من شبهه ، فليس يظهر شيء من ذلك فى النسخ ، اذ هو كما سنذكر ليس الا تدريجا فى التشريع على وفق ناموس الترقى الذى يسود الكون ، وليس لمساس النسخ بقطعية الثبوت وجه الا أن يكون الذى قيل قديما من لزوم البداء ، أى ظهور شيء كان خافيا على الله ، وتلك شبهة واهية ، وقد مل القول فيهـا كذلك ، وواضـح رد القدماء عليها بأن ذلك النسخ لم يكن الا اتباعا لمصلحة الخلق لا تغييرا لعلم الله ··

.. على انه كان يجب على الباحث العصرى أن يقدر ان طوائف من المسلمين المتأخرين قد أنكروا جواز النسـخ ، وفسروا الآيات المقول بنسخها تفسيرا لا يتوقف على القول بالنسـخ ؛

وفيه الكثير من الدقة ، وهذا الراى مبسوط فى كتب التفسير كما هو مبسوط فى كتب الأصول التى اتصل بها كاتب المادة ، ولابد) .

.. (ويحكم الكاتب بأنه لم يكن قصد الرسول عليه السلام خلق نظام أو وضع اصول هذا النظام على الأقل الخ .. وهذا الحكم على القصد غريب فى حساب المنطلق العلمى ، مهما يكن للأستاذ من قدرة على تبين النوايا والمقاصد) .

ويمضى الأستاذ الخولى فى بيان موقف الرسول والصحابة من التشريع ..

★ ★ ★

.. وجاء فى نقده للمستشرق الايطالى « كايتانى » صاحب (حوليات الاسلام) :

يقول كايتانى : مامن أحد شغل نفسه بنقد النص نفسه . ان المحدثين والنقاد والمسلمين لايجسرون على الاندفاع فى التحليل النقدى للسنة الى ما وراء الاسناد ، بل يمتنعون عن كل نقد للنص .. الخ) ..

ويرى الاستاذ الخولى أن أشياء كثيرة من عمل المحدثين تبطل هذا القول منها :

١ ــ ما أسلفناه من صريح قولهم فى عدم ربط السند بالمتن ، وذكر أشياء تؤثر على المتن ، بعد صحة السند ، كالشذوذ مثلا .

٢ ــ اعطاؤهم الحديث ألقابا اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم الحديث (بالشاذ) أو (المقلوب) ، أو (المضطرب) أو (مدرج المتن) ، أو (المحرف) أو

(المصحف) .. ونحو ذلك من أسماء لا مرد لها الا اعتبارات في المروى نفسه ، يتبين فى علم الحديث دراية ..

٣ ــ وضعهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية الى حد بعيد وتقوم حينا على اعتبارات عقلية صرفة ، وحينا على معان أدبية فنية ، وحينا تعتمد على مقرارات شرعية ..

٤ ــ أنهم نقدوا المتون الحديثية بالفعل نقدا مطبقا على الأصول النظرية السابقة التى قرروها ، ومن حسن الاتفاق أن قد سقنا لذلك كله أمثلة من نقد المتن فى التعليقة الأولى من تعليقنا على هذه المادة ، وهى الخاصة بما يروى من سبب نزول آية « ٥٢ » من سورة الحج ..

أفيقول (كابتانى) بعد هذا لهؤلاء انهم لم يجرؤوا على الاندفاع فى النقد الى ماوراء السند ، أو يقول (شاخت) انهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم السند ؟ !

... وجرى قول (كاتبانى) وأمثاله فى أسلات أقلام شرقية فقال الأستاذ أحمد أمين انهم (عنوا عناية بالنقد الخارجى ، ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلى) وأنهم (لم يتوسعوا كثيرا فى النقد الداخلى) جـ ٢ من ضحى الاسلام ص ١٣٠ / ١٣١ .

واغفل مايستحق الملاحظة الهامة من اعتبارات ، منها :

ان علم الحديث علمان : علم الحديث دراية وعلم الحديث رواية ، والأول هو علم أصول الحديث ، وهو المراد عند الاطلاق وهذا مع عنايته بالسند لم يخل من نقد المتن ..

.. على انه يجب قبل الحكم على هذا النقد للمتن فى الأمور الدينية ان يلاحظ ما يأتى :

١ ـ ان نقد السند خطوة أولى بطبيعتها ، اذ ليس للشهادة قيمة الا من الثقة بالشاهد ، والرواية والشهادة صنوان ».

٢ ـ ان ما يمس الأمور الدينية لا يرجع فى نقده الى أساليب التجربة والتحليل لأن طبيعته لاتقبل ذلك ولا تمكن منه ، فهو يمس أمورا غير مادية ، وقد ينتهى الى غيبى وغير منظور ..

وكتب الأستاذ الخولى بحثا مطولا في (البلاغة) (١) ، حين وجد أن ما كتب فى دائرة المعارف ليس ذا غناء .. خط فيه منهجا لدراسة البلاغة ، مبتدئا باللفظة والجملة والفقرة ، الى فنون القول الأدبى المنظوم والمنثور ، رابطا رسوم المدرسة الأدبيه الأولى وآثارها وكتبها بكل ما فى دراسة الفنون من أساليب مجدية ومناهج مستحدثة ، مهملا الدراسة الفلسفية المستعجمة (٢) ..

★★★

.. وكتب (بول كرواس) مادة (التحريف) (٣) .

وعلق عليها الأستاذ الخولى ببيان ما يقع فيه المستشرقون من أخطاء .

وما ينبغى لتحرى الصواب ، ثم تعرض لما جاء فى البحث من تهجم على شخصيته الرسول ، وعلى القرآن ، ومن دفاع عن العرب .. ونقض مفهوم التحريف عند الكاتب ، اذ رأى انه تغيير المكتوب تغييرا يبدل المدلول الأصلى) ويبين أن (استعمال القرآن

---

(١) المجلد الرابع العدد الأول أكتوبر سنة ١٩٣٨ .
(٢) خلاصة ما كتبه فى مكانه من هذه الدراسة عن البلاغة .
(٣) المجلد الرابع ص ٦٠٢ .

نفسه وهو أصل البحث فى المادة ـ أوضح دلالة على عدم التقيد بالمكتوب، اذ لم ينص على التحريف فى مكتوب مطلقا، مع انه قد ذكر التحريف فى المسموع ، ففى البقرة ٧٥١ « يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » ، وفى النساء : ٤٦ « يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا » وهكذا لا يظهر له معتمد فى تخصيصه التحريف بأنه تغيير المكتوب) ..

وعلق على بحث (ارنديك) فى (السلام) بقوله (١) :

(قدم الكاتب معنى المادة قاصرا ، لم يف فيه بحق المنهج اللغوى القديم ولا بحق المنهج اللغوى الحديث) ..

.. (وهذا الاقتصار على ما ورد من معان ، مع ورود غيرها فى المادة ليس انصافا للتفكير الاسلامى ، ولا وفاء بالمنهج اللغوى عند أهله ، فانهم لايسوون بين معانى الصيغ المختلفة من المادة الواحدة ، بل يخصون كل صيغة بمعنى فى تفريق دقيق فلا يستوى عندهم معنى السلامة والسلم والسلام .. الخ . بل يقدرون ما لاختلاف المبانى من أثر فى اختلاف المعانى ـ كما يقولون) ..

.. (وأما عدم وفاء الكاتب بالمنهج اللغوى الحديث ، فلأنه لم يبحث عن المعنى المادى الأول ، والمدلول الحسى الأسبق للمادة، لينتقل منه الى تدرج معانيها ، وتطور مدلولاتها ، مستصحبا ماأحسته اللغة لمادة (السلام) منذ بدأت فى القديم استعمالها اياها فى الماديات ، فيدرك بذلك ما تثيره اللفظة من أحاسيس ومشاعر ، فى وجدان أصحاب تلك اللغة ، يجدونها قوية نافذة حين ينتقلون من المعنى الحسى الى الاستعمالات المعنوية ، ثم التجريدات الذهنية ..

---

(١) المجلد الثانى عشر ـ ص ٤٩ وما بعدها .

والنظرة الباحثة عن المعنى الحسى الأول لمادة (السلام) تهدى الى أن السلام شجر ليس بذى شوك ، يكون أبدا أخضر ، يستظل به الظباء ، ولها فى ظله جمال يحدث عنه الشعراء ــ لسان العرب مادة س ل م .

واذا ما كان هذا الشجر كما ترى دائم الخضرة ظليلا فهو أصلح للدلالة على الرمز للسلام الحديث من غصـــن الزيتــون ، الذى يرمزون به الآن للسلام .

وفى هذا المعنى المادى الأول للسلام من الايحــاء الغنى ، والاثارة النفسية الطيبة ما حرمت منه المادة بصورتهـا التى قدمها بها الكاتب » ..

وعلق على ماكتب (ليفى دلافيدا) فى « السيرة » (١) .

تعليقات جزئية خاصة بما اورد الكاتب من طعون فى السـيرة وكتابها ، والتثر بالكتابات الدينية السابقة ، والتواريخ البهلوية وفى المغازى وصلتهــا بأيام العــرب ، ومحاولة النيــل من مواقف الرســـول صــلى الله عليه وسلم وشخصــيته وفهــم الصـــحابة لرسالته ..

واورد تعليقا عاما قال فيه (٢) :

١ ـ ربط رواية السنة بعامة وقواعدها فى ذلك ومناهجها برواية السيرة بخاصة ، وما فيها من مواضع ضعف الروايــة ليثب من ذلك الى مهاجمـــة طبيعة رواية الحديث ، وســـوق ما لدى المستشرق الايطالى « كايتانى » من قوى الهجوم

---

(١) المجلد الثانى عشر ص ٤٤٤ .

(٢) المجلد ١٢ ص ٤٥٥ .

على الرواية الاسلامية .. وما اجتمع حولهـا من قصـص نســجت على منوال القصص اليهودية أو المسيحية ، وربما الايرانية ..

وفى هذه الخطة الواضحة من الكاتب اخلال كبير بالمنهج السليم للبحث ، يتجلى فى غير جانب من جوانب المنهج .

(ا) اخفاء الحقيقة عن عمد ، أو على أقل تقدير ، الاخلال بواجب الاطلاع على أمور مشهورة سائرة فى هذا المقام وهو الرجل الذى اطلع على ذلك الحشد الكبير من كتابات قومه قديما وحديثا ..

(ب) ويتمم هذا الاخفاء للحقيقة عدم رواية الاتهام الاسلامى القديم للسيرة بقوته ووضوحه .. واخفاء المشـهور ، وتوهين المنقول يهدم أساس كل منهج للبحث ، ويذكر بواجب الأمانة العلمية ..

٢ ــ تناقض الكاتب فى المادة التى قدمها هو .. فبينما تراه يربط هذا الربط الوثيق بين المغازى والسيرة ليهاجم ضـعف رواية السيرة أصلا ، فيهاجم رواية السنة كلهـا تبعا .. بينما ينجم ذلك من عمله ، اذا بك تراه يحدث هو نفسه عن النقد الحديثى وقوته ، وضجره الشديد برواية السيرة

ففيم اذن هذا العناء فى ربط السيرة أو المغـازى بالسنة ، وتعزيز وحدة قواعدهما ومناهجهما ، وبناء السيرة على الاسناد الذى هو قوام الطريقة المتبعة فى الحـديث ، مادام فقهـاء علم الحديث المستمسكون بأصـول السنة يحكمون هذا الحكم العظيم الأهمية ، المفرق بين الحدث العقائدى الخالص تفرقة واضحة ؟

٣ ــ ان كاتب المادة يقول عن اصحاب مدرسة المدينة ــ حيث كانت الغيرة الدينية فى المحـافظة على ذكر النبى تضطرم فى نفوس أهل المدينة ــ الذين مال بهم التقى عن السبيل الذى

كان ينبغي أن تسير فبه حيـاة النبى ، مستعينين فى ذلك بشتى التوقيفات الفقهية ، وبالاصول الداخلية ، فلا نجـد للحوادث التى رووها سندا من الرواية التاريخية ..

.. يقول الكاتب هذا مقـدار العوامل الاعتقادية النفسية واثرها ، فنسمع له ونصغى ، لكنا لا نملك الا أن نذكر حديثه عن العالم الجزويتى (لا منس) فنخشى عليه مثل الذى خشيه هو على علماء المدينة من التقى الذى يميل عن السبيل » .

وكتب (شاخت) مادة (الشريعة) ..

فعلق ـ على ما جاء فيها ـ بقوله : (أ) ان المادة عرضت فى اضيق الحدود ، وعنى فيها بأشياء يسيرة الأهمية .. (وما عرض له الكاتب من الشئون الكبرى ، كالعـلاقة بين الشريعة والحقيقة ، لم يأخذ ما هو جدير به من البيان بل جاءت عباراته القليلة قاصرة موهمة للاشتباه)

.. (والدراسة القانونية العصرية تعنى بجانبين من البحث العلمى ، هما : الدراسة التاريخية ، والدراسة المقارنة .. فكان الأمل أن تتجه العناية فى كتابة مادة (شريعة) الى هذين الجانبين فيكشف فيها عن مكان الشريعة الاسلامية بين شرائع العالم ، من وضعية ودينية ، كشريعة المصريين ، وشريعة البابليين ، وشريعة اليونان ، وشريعة الرومان ، وشريعة الهنود ، وغيرها من القديم والحديث كما يوصف تطور هذه الشريعة التى تنشأ فى الجزيرة العربية ، ثم عاشت واستقرت فى مواطن الحضارة المختلفة ، من مصرية وفارسية وأغريقية ورومانية وغيرها ، وأن يكشف البحث المقارن بين الشريعة الاسلامية وأخواتها عن المبـادىء القانونية فيها

---

(١) المجلد الثالث عشر ص ٢٥٧ وما بعدها .

ومقاطع الحقـــوق ومناشيء الواجبات ، وصــــورة العدالة ، وامثال لهـــذه الجوانب ، تعرض هـــذه الحقائق فى حالة تليق بالعصر ، وبمستوى من تصدر عنهم هذه الموسوعة ، وتلفتنا نحن الى جوانب ينبغى أن توجه اليها عنايته ، .. وهى الصورة التى لانزال نحتاج الى جهد يتعاون عليه ضليع فى تاريخ القانون ، مع قدير فى الفقة وتاريخه) ..

.. (ذكرت) المادة أن الشريعة هى المحكمة الظاهرة ، وانها لاتتناول موقف الانســـان أمام المحـكمة الباطنـــة .. وكان عرض هذه المسـألة الكبرى موجزا جدا ، وموهما حتى يظن الظان أنه انكار للعمل القلبى فى الشريعة ، مع أن النية التى بها قوام العمل فى الشريعة انما هى عمل قلبى !! ولو قد أسعف البيان فى المادة لاتضح أن النية عند الصوفية هى : ما يصحب الفعل من باعث نفسى ، ومقصد خلقى ... وأما النية عند الفقهاء فهى مايسبق الفعل من عقد العزم على أدائه .. وبهذا يتضح أن الشريعة محكمة ظاهرة ، وان المحكمة الباطنبة هى محكمة الصوفية) ..

ثم بين أن الكاتب لم يتناول النزاع بين الصــــوفية والفقهاء واثره الذى قد امتد الى الحياة الاسلامية السياسية والاجتماعية العملية ، ومس العقائد فى شهادة الوحدانية نفسها ، وفى الرسول والأنبياء والملائكة والثواب والعقــاب والجنة والنـــار ، كما مس التشريع من حيث طريقة الفهم لمصادره العليا ..

(هـــذا .. وليست الشريعة الفقهيـــة العمليـــة هى العنصر المميز للتفــكير الاســـلامى ، ذلك التفكير الذى كانت له جـولاته الفلسفية العامة ، وله ميدانه الخلقى النظرى والســلوكى ، وله من الميادين مالا يفهم معه هذا القول بأن الشريعة هى العنصر المميز لهذا التفكير !!) .

وفى الرد على قول الكاتب : (لايجوز للانسان أن يبحث فى الشرع من علل ومبادىء والمنطق الانسانى والتعقيـــد قليل الحظ فى الشريعة الاسلامية) يقول الأستاذ الخولى :

ويتجاهل ان القياس اصل من اصـــول الشريعة كالقرآن والسنة ، وأن جمهرة المسلمين قد مارســوا هذا القياس ممارســة مسرفة ، وحتى نفاة القياس وهم الظاهرية ، لم يلبثوا أن اعترفوا بصور من القياس ، وعدوها من دلالة النص على ماهو معروف ، وقد سمعت قريبــا (١) قول هؤلاء الظاهرية بوجوب الاجتهـــاد وجوبا عامــا على كل احد ، ولامعـــدى لمجتهـــد عن البحث فى علل الأحكام بأى طريق ، من قياس أو غيره ..

وما هذا القياس الذى هو احد أصول الشريعةومصدر من مصادر احكامها ؟ ! انه ليس الا عملا كبيرا فى تعليل الأحكام !! وانه ليس الا عملا منطقيا أصيلا) ..

وجاء فى الرد على ما اورد الكاتب فى المصادر المادية للشريعة (من آراء عربية قديمة وبدوية ، قانون التعامل بمدينة مكة ، التى كانت مدينة تجارية ، وقانون الملكية فى واحـــة المدينـــة ، والقانون العرفى الذى كان سائدا فى البلاد المفتوحة وهو قانون رومانى اقليمى الى حدما ، وقانون هندى) :

(ان تسمية هذه مصادر مادية للشريعة تعبير جرىء ، وغير دقيق معا .. وقـــد جاء مبشرا لم تمهد له دراسة تاريخية ، ولم تثبته دراسة مقارنة ..

.. وانما دامت تراعى القواعد التى وضـــعها الرسول عليه السلام ، وهى السنة ، اى المصدر الثانى من مصادر الشريعة ،

---

(١) اشارة الى ما جاء فى الرد .

وما دام العرف القـــانونى الموجود فى البلاد المفتوحة ليس عليه اعتراض دينى ، فذلك هو التفاعل الطبيعى بين الطارئين وبين مكان البلاد ، وبين الشريعة التى حملوها والعرف القانونى الذى وجدوه ، وهو ما تقتضـــيه المرونة الحيوية ، والتأثر الاجتماعى ، ولا بأس بـه ، ولا عدوان على حقيقة .. وعلى هذا التفسير الذى تقرره المادة نفسها لا تكون تلك الأشياء التى تؤخذ فى ظل التوجيه التشريعى الدينى هى التى تسـمى مصـادر شريعة)

وعلق على ما جـاء فى بحث (بول) عن (صـــالح) بقوله (١)

١ ـ فى المادة كثير من الآيات ، وبالمراجعة يتبين اختلاف رقمها عن رقم المصحف المصرى ، بالرقمين والثـلاثة زيادة ، وتتبعهـا يطول فى غير فائدة .

٢ ـ تكررت فى المادة عبارات المؤلف التى ينسب فيها القرآن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله (وفقا للأسلوب الذى انتهجـه محمـد) .. وخرجت عن الحـد فى قوله (لا نستطيع أن نتحقق أن المصدر الذى استقى منه محمـــد اسم صالح وقصة الناقة) ..

وفى الحق أن هذه التعبيرات التى لا مبرر لها ، ولا مناسبة تتهم منهج الكاتب نفسه بالهوى ، وتلفت الى أنه لا يدرس الموضوع دراسة باحث عن الحقيقة ، أو حتى دراســة ناقد متماسك ، بل يتناوله تنـاول مفتون بهــواه ، مغلوب على أمره ، وتلك شر آفات المنهج ..

٣ ـ يؤكد الكاتب بقوة أن البيوت نحتتهـا ثمـــود من الصخر ليست الا قبورا ، ويروى فرض أن تكون كلمة (كفزا) أى

(١) المجلد الرابع عشر ص ١٠٦ .

قبر ، الواردة فى نقوشها ، وقد فسرت بالكفر ضد الايمان ، ولا تظهر قوة الاتصــــال بين هذا الغرض ، وبين كون بيوت ثمود الصخرية المذكورة فى آيات القرآن ، هى قصور أو قبور ، الا أن يكون ذلك بتكلف كثير ..

ولو قــدر الدارس أن معنى البيت فى العربيــة (القبر) ، وان القرآن يذكر لثمود قصورا فى السهول، ثم يذكر معها البيوت فى اجبال ، فيقول : « وبوأكم الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون من الجبال بيوتا » . لو قدر ذلك بأن له أن ذكر القرآن البيوت بعد القصور يؤذن بأن يكون للبيوت هنـا معنى آخر من معانيها اللغوية ، ولا غرابة فى أن تكون منحوتات ثمود فى الجبال بعد قصور السهول هى المقـابر التى يذكرونها ..

٤ ـ واكثر من هذا اخلالا بالمنهج من كاتب المادة ، أنه ـ وهو الذى يتصدى للكتابة فى القرآن ـ لا يعرف أن فيه آية تقرر أن العرب قــد جاءهم المنذرون مثــــل : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » والعرب بخاصة قد ذكروا بأن هذه ملة أبيهم ابراهيم فى قوله (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) ، فكيف ســـاغ للكاتب ـ مع هــذا كله ـ أن يقول تناقضان الدعوة المألوفة التى أتى بها محمد فى سور العهد المـكى) ، من حيث انه قال (انه لم يرســـل نبى قبله الى العرب.) ؟! وجاء فى تعليقه على ما قال به (الفرد كييوم) فى مادة (صحيح) (١)

(فى هذه المادة شيء من قصور ، وشيء من سوء التعبير)، وأورد مجالات القصور فى فهم الاسناد . ومناط الصحة ، وفرق

---

(١) المجلد الرابع عشر ص ١٦٠ .

ما بين مسلم والبخارى وأنكر على الكاتب قوله عن ترجمات البخارى انها « تتسم فى كثير من الأحيان بالهوى ، كما يكون فى بعض الأحيان مضللا ؟ (أهى تراجم البخارى ، أم تلك الدراسة القاصرة ابرأ الله منهج القوم ليمكن الانتفاع بجهدهم » ..

ومما قاله كتب (ثابر) عن صدقه (١) :

(أ) « قول الكاتب كلمة صدقة ليست شيئا سوى الكتابة العربية للكلمة العبرية « صداقا » التى كانت تدل فى الأصل على السيرة الصالحة .. الخ » . وهى عبارة يشيع فيها الهوى والخفة ، فى تقرير أخذ العربية لكلمة صدقة عن العبرية والمهم فى ذلك وضوح فساد المنهج ، لأن الأصل ـ اللغوى الذى عند الكاتب وقومه هو أن العربية أخت العبرية وأمهما واحدة ، فاحتمال وجود كلمة (صدقة) فى اللغة الأم ، ثم فى بنتها ، احتمال جد قريب ، ومع قربه هذا لايهون هكذا القول بالأخذ الصرف ، دون أن يكون للكلمة فى العبرية معنى الحياة العربية مثلا » ..

(ب) (قول الكاتب : « ان البر بالفقراء شىء مميز للشعوب السامية على أن العرب لم يكونوا يأبهون كثيرا لأحاسيس المشاركة للغير فى آلامهم » ، فمنهجه فى هذا التعبير مضطرب ، بل شديد الاضطراب ، لأن سامية العرب لاشك فيها عنده أبدا فهم بذلك يدخلون فى الأصل العام الذى ميز به الشعوب السامية) ..

(١) م ١٢ ص ١٧٠ .

وعلق على قوله (فنسنك) فى الصلاة بقوله (١) :

.. (جاءت المادة طويلة ، فى غير طائل ، متعثرة الخطى ، فى قديم من معتاد أخطاء القوم ، أو تمحلهم في الفهم والتخريج ، فى كل مجال اسلامى مما كثر وتكرر)

(ب) قال الكاتب : (ويبدو أن كلمة صلاة لم تظهر فى الآثار الأدبيةالسابقة على القرآن) .. مع أن الأعشى يقول : يراوح من صلواته المليك .. الخ

(على أنا لا نغفل ما فى هذا المنطق اللغوى والأدبى من دخل ، وهو أن ماوصلنا من الآثار الأدبية السابقة على القرآن لا يمثل الحياة الأدبية العربية قبل الاسلام تمام التمثيل . وبذلك لا يمثل الحياة الاجتماعية لهذه الفترة أصدق التمثيل) .

(جـ) (ان الظواهر اللغوية اجتماعية لا تنسب لشخص ولا لعصر بل لاتنسب لجمع ، فكيف تقولون بعد ذلك : ان محمدا هو الذى اتخذ كلمة صلاة .. وأن محمدا هو الذى نقل كلمة صلاة . الخ ؟ !

ان هذا القول يبطله المنهج اللغوى والاجتماعى الخاص كما يبطله المنهج العلمى العام ، لأن قائله لا يملك أى دليل على ان هذا من عمل محمد .. وهو يتناسى احتمالا سيظل موجودا مادام العلم لم يثبت بطلان الاسلوب الدينى والوحى الدينى) ..

(د) وفى الرد على ما أورده الكاتب من وجود تشابه بين الصلاة فى الأديان الثلاثة ، كدليل على الأخذ من اليهودية والمسيحية .. قال الاستاذ الخولى :

---

(١) المجلد الرابع عشر ص ٣٠٢ .

« أن وحدة الأديان كان الاسلام بترتيبه الزمنى داعيا واضح الدعوة اليها فى اعلانه أنه أنزل الى النبيين من قبله ، واوحى اليه كما اوحى الى من قبله ، وانه مصدق لما بين يديه ، ولا مكان مع ذلك للقول بأن هذا قد أخذ من ذلك أو قد شابهت تلك ، لأن الكل فى بيان القرآن واحد المصدر ، واحد الغاية » ..

هذا كل ما حفلت به (دائرة المعـارف الاسلامية) (١) من محاجة الأستاذ الخولى لهؤلاء القوم الذين يحاولون بعلمهم أن يسمموا آبارنا ، وقد رصـــد لهم ذخـيرته الحية من علوم الرواية والحديث ، ومن ادركه الصادق للعربية ، وفهمه الواعى للقرآن وعمله الواسع بما يتصل بقديمنا من حديثهم ، فكان صورة فذة بكل ما أوتى من قدرات ـ لرجل الحق الذى لم تفتنه مهارات الغرب وفنونه ، فصدع حججهم ، وعرى باطلهم ، وكشف لمن يغرهم بالغرب الغرور خبيث نواياهم وخبيء افكهم ..

(١) له تعليق على مادة طلاق لم ينشر ولم أصل اليه

مشكلات حياتنا اللغوية

لئن يكن الدين توفروا على الدراسات القرآنية ـ منذ نشأتها ـ عنوا أشد العناية بالدراسات اللغوية والبلاغية ، بل والأدبية والتاريخية ، باعتبارها سبيلهم الى فهم القرآن ، ومعرفة احكامه ، ووجه اعجازه ، فكان من ذلك مفردات القرآن ، وغريب القرآن ، واعراب القرآن ، ومجاز القرآن ، واعجاز القرآن ، والجامع لأحكام القرآن ، وقصص القرآن ، وقراءاته .. الخ :

ـ فان المنهج الادبي للتفسير يوجب هذه الدراسات ، لأنها طبيعة المنهج ، مادته وميدانه ..

ولئن يكن اتساع العلوم الانسانية أدى الى أن يتفرغ الباحث « لفرع » دون آخر ، بل لجزء فى فرع ، حتى يستطيع أن يلم الماما واسعا بمادته ، وأن تتأتى له القدرة أن يأتى فيه بجديد ، والأستاذ الخولى من المؤمنين أشد الايمان بحاجة البحث العلمى الى هذا النوع من التخصص ـ فان طبيعة الدراسات الأدبية لاتقوم فيها الحدود الفاصلة بين فروعها ، لأنها متشابكة متكاملة ، لاتقوم فى

فرع دراسة دون حاجة الى الفروع الأخرى ، ولا يتصور أن يتقن دارس فرعا دون استيعاب لها جميعا .. فالحاجة اذن الى التكامل الواعى لقوة الصلة بين هذه الفروع كلها ..

من هنا كان توفر الأستاذ الخولى على الدراسات الدينية والأدبية ومزجه بين الدراستين .. كان أن عالج المناهج الأدبية على قواعد اهتدى اليها من تتبعوا فى ظلال القرآن والحديث ، ورأى أن التفسير الأدبى للقرآن الكريم هو السبيل الى فهم ما اشكل على من نظروا فى قصصه وأمثاله ومتشابهه وتعاليمه واوجه اعجازه .. واثرينا بدراساته فى هذه المجالات جميعا ، وبمنهجه الخاص ، ورأيه الذى انضجه التكامل المنهجى والدارس لهذه العلوم جميعا ..

وكان الظن أن نبدأ دراستنا لأعمال الأستاذ الخولى بالجانب اللغوى على أساس أن اللغة لغة القرآن الكريم ..

ولكنى آثرت الحديث عن الجانب الدينى أولا على أساس أن الدراسات الأخرى تفرعت عنه ، وجاءت تبعا له ــ فى تاريخنا العلمى ــ بل فى تاريخ الاستاذ الخولى نفسه ، اذ كانت دراساته الدينية فى القضاء والجامعة والأزهر أسبق من الدراسات الأدبية ..

هذا النحو

نشط الأستاذ الخولى لنقد كتاب (تيسير النحو) الذى شكلت له لجنة من كبار رجال العربية فى مصر (طه حسين ، واحمد أمين ، وعلى الجارم ، ومحمد أبو بكر ابراهيم ، وابراهيم مصطفى ، وعبد المجيد الشافعى) ... وكان نقده «اجابة عن

تساؤلات وقضـــايا أثارها الكتاب) فى محـاضرة القيت خلاصتها بالجمعية الجغرافية الملكية بعد ظهر الخميس ٨ ابريل سنة ١٩٤٣م ونشرت بمجلة كلية الآداب فى يوليه سنة ١٩٤٤ بعنوان (هذا النحو) ، ثم فى (مناهج تجديد) .

ولما كان بصدد الحديث عن التيسير والتجـديد ، فقـد علل لمشروعية هذا العمل بأن اصول اللغة محمولة على أصول الشريعة) و (كل من الشريعة واللغة مظهر قديم من مظاهر حياة الجماعات البشرية) ، الا أن اللغة أقدم ، و (أشد المظاهر الحيوية لينا ، واقلها تصلبا وتحجرا ، واطوعها للتطور) .. ثم ان الفرق هائل (بين الفقة والنحو ، من حيث الصفة الدينية ، والحل والحرمة فى الأول ، وعدم ذلك تماما فى النحو .. ومع شـدة صلة اللغـة بالحياة ، ومسايرتها اياها مسايرة قهرية ، لايستطيع احد الوقوف فى وجهها ، وهو مالا يتوافر للشريعة بهذه القوة) .. ومع ذلك فرجال الشريعة قديما وحديثا اجتهدوا واختلفوا ..

ووضـــع بين يدى مستمعيه وقارئيـــه القواعد التى اتبعتها اللجنة التحضيرية للتشريع الجديد (فى الأحوال الشخصية) — فى اختيار الاقوال والآراء الفقهية ثم قال :

(انا لن نطلب فى هذا النحو اكثر مما فعل أصحاب الفقة فى الفقة ، وهو أصل لهذا النحو فى تفكير أصحابه) (١) .. وأجمل قواعد تهذيب النحو على غرار قواعد لجنة الأحوال الشخصية ، ممثلة فى :

١ — ملاحظة التيسير والرفق ..

---

(١) مناهج تجديد ص ٢٦

٢ ـ جمع كل ما يوجد من المذاهب النحوية ، حيثما وجد والتوسع في فهمه ، دون وقوف عند ظاهره ..

٣ ـ عدم التقيد بمذهب نحوى واحد في مسألة بعينها ، وعدم التقيد بالأفصح أو الأرجح أو الأصح ، الذى نصوا عليه ..

٤ ـ تخير ما يوافق حاجة الأمة ، ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب العملية ، والخبرة التعليمية ، والشكاوى الحقة من المصاعب اللغوية (١) .

وقبل أن يرسم لنا جديده ، أنكر على لجنة (تيسير النحو) اشتراط قرار وزارى عليها ـ واشتراطها على نفسها ـ ألا يمس التيسير (من قريب أو بعيد أصلا من أصول اللغة أو شكلا من أشكالها) ، مع أن المسألة من الأهمية والخطر الاجتماعى بحيث تحتاج الى النظر المستأنف في هذه الأصول نفسها) (٢) ..

كما انتقد نظرتها الى الاعراب التقديرى والمحلى ، وعلامات الاعراب الأصلية والفرعية ، وتقسيم الجملة الى محمول وموضوع ، وعدم جعل الاستثناء من الأساليب ثم عرض للصعوبات اللغوية اليوم ـ كما تراها اللجنة ـ مجملة في :

١ ـ فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويعللوا ، ويسرفوا في الافتراض والتعليل ..

٢ ـ اسراف في القواعد ، نشأ عنه اسراف في الاصطلاحات ..

٣ ـ امعان في التعمق العلمى ، باعد بين النحو والأدب (٣)

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٣٤

(٣) مناهج تجديد ص ٤١

ولم يطمئن الى تعليل هذه الصعوبات ، لأن (فلسفة القدماء فى النحو لها نظائر فى الدراسات اللغوية عند الأمم المختلفة ، وليس العيب فى التفلسف ، وانما العيب ان يكون التفلسف فى الكتب المدرسية التعليمية) ، والاسراف فى القواعد والاصطلاحات (ليس ذنب النحويين ــ كما ترى اللجنة ــ لكنه شيء اقتضت أكثره طبيعة اللغة وسعتها وأشياء فى كيانها) والمباعدة بين النحو والأدب (شيء يتصل بطريقة الدرس وخطته ، ثم ان الوصل بين النحـــو والأدب لا يؤثر فى كثرة القواعد ، ولا فى تشـــعب الاصطلاحات) ...

وبين أن أسباب هذه الصعوبات فى الحقيقة

١ ــ اننا نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة ، حين نتعلم لغة معربة ، وافرة الحظ من الاعراب ، واسعة الآفاق مع ذلك .. فكأننا بهذا نتعلم لغة أجنبية وصعبة ...

٢ ــ ان هذه الفصحى الواسعة المعربة . مع ثقل اعرابها علينا ، لا يسهل ضبطه بقاعدة ، بل يسوده الاستثناء .

٣ ــ أن هذه الفصحى ــ فيما وراء اعرابها المضطرب ، وسعتها وانتشار قواعدهـــا ، باختلاف الكلمات ــ نعود فـــلا تستقر على حكم وقاعدة فى الكلمة الواحدة ، أو التعبير الواحد...

واذا ما قدرنا أن هذه العقد جوهرية ذاتية فقد بدا ان حلها يمس الجوهر والكيان ، لابد ، ويحتاج الى عمل جراحى ، أو ما يشبهه . بمباضع معروفة من أصول نحاتنا ... وان نستعين على علاج العربية بحيويتها هى ، لا بنقل دم ، ولا اعانة بغريب عن جسمها أو عن نظامها (١) ..

(١) المصدر السابق ــ ٤١/٤٤

والأصل العام لهذا الحل :

ان ندع النحاة وآراءهم وقواعدهم ، ونمضى الى ماوراء ذلك من أصولهم التى استخرجوا منها هذه القواعد ، فنحـاول ـ بحسب استعمالهم هم لها ، وكما دلوا على هذا الاستعمال ، وعلى رغم ما لنا من اعتراض على هذه الأصول ـ أن نرجح من منقول اللغتين ، ومرويهم فى اللغة ، أوجها تدفع هذه الصعوبات ، وتقلل هذا التعدد ، وتغنى المتعلم عن بذل جهد منيف ..

وسنلاحظ فى اختياره اعتبارين :

١ ـ تقليل الاستثناء ، واضطراب الاعراب ، ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

٢ ـ اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا ، فان لنا فى عاميتنا اعرابات بالحروف مثلا ، قد نطمئن الى ان لها اصلا عربيا ، بل هذا ما قد يرجحه البحث أو يثبته ..

وفى كل فان انسنا بها ، والف المتعلم لها ، فى لغة البيت والشارع سيجعل الوجه الذى نختاره من الفصحى قريبـا من انفسنا سهلا ، لا جدة فيه ولا اعنات ، وسنجد التمثيل نهذا فى موضعه حين نعرض له قريبا ..

وقبل أن نعرض امثلته برر ما فعله (بالاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية ولو خالفت القياس ، ويقول مالك (ان الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء ، ولكنه يكون مخطئا لاجود اللغتين ، فان احتاج لذلك فى شعر أو سجع . فانه مقبول منه ، غير منكر عليه ..) ويقول ابن جنى (أما أن يحتاج الى ذلك فى شعر أو سجع ، فانه مقبـول منه ، غير منعى عليه)

ثم عقب على ذلك بقوله : (فهل ترون ياقوم ان جدوى هـذا السجع خير من تخفيف بلايا هـذا الاضطراب عن الصغار ، وخزايا الافتضـــاح عن الكبار ، على ما صرحت به وزارة التربية والتعليم قائلة : أن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهدا كبيرا ووقتـــا طويلا فى تعليمها وتعلمهـا ، ولا يصـلون بعد هـذا كله الى نتـائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد ؟) ..

واورد قراءات وأقوالا تلتزم الواو مع (أب و ام) والالف المقصورة مع (حم) كما فى عاميتنا .. ثم قال : (ما أنا فحسبى هنا فى هذه الاسماء أن تلتزم الألف كالمثنى فتقل الأقسام) (١) .. ولا ادرى لماذا اخشى كثرة الأقسام مع أنه جعل (اختيار ماهو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا فى اعتباره ؟ ! وكان الأولى أن تلزم الأسماء الواو ماعدا (حم) فتلزم الألف ، ولو أراد اطراد القاعدة لكانت الواو .. لكنه أخذ بلغة القصر المشهورة .

ومن واقع الأمثلة التى أوردها ، رجح قصر المثنى ، كما رجح الياء فى جمع المذكر السالم ، ونصب جمع المؤنث السالم بالفتحة كما أجاز الكوفيون ــ وصرف ما لايصرف وجره بالكسرة ، ثم قال :

(اين أنتم ياقوم من لغة الشعراء ، ترحمون بها صغاركم ، وكباركم أيضا) (٢) ..

ورأى حذف نون الأفعال الخمسة رفعا ونصبا وجزما ، وقياس المعتل بالياء على المعتل بالالف ، كما جاء فى شواهد عربية وبذلك (نقوم بأمرين) :

---

(١) مناهج تجديد ص ٤٥ ــ ٤٩ .

(٢) مناهج تجديد ــ ص ٥٤

١ ـ محاولة الاحتفاظ باطراد القواعد ما أمكن .

٢ ـ اختيار ما هو أيسر اعرابا ، أو أقرب فهما ، أو أكثر رواجا في حياتنا اللغوية الحاضرة) (١) ..

وقال : (انما أتحدث بهذا الى الذين ليس عملهم في الحياة الاشتغال باللغة وأوجه أعرابها ، من سائر الطبقات العاملة والعاملة في الشعب) (٢) .. فاذا ما مكنا للفصحى في ألسنة هؤلاء وقلوبهم فقد أمددناها في صراعها للعامية بقوة تهيء لها شيئا من الثبات والمقاومة ، ان لم يكن التغلب والانتصار ، أما أولئك الذين عملهم في الحياة هو الاشتغال بالغة وعلومها وآدابها فمنذ يبدأون تخصصهم في ذلك ، ويفصلون عن التعليم المشترك الى أقسامهم الخاصة ، لهم أن يرددوا من هذه الاستثناءات التى تربك الاعراب مايشاءون ، وأن يتبعوا من أوجه الاختلاف مايعرفون به الفصيح والأفصح والأقل والأكثر ، مادامت الدنيا حولهم تمكنهم من ذلك وتجيزه لهم) (٣) ..

.. واخيرا ... رد على (شبه واهية) مثل اختلاف القواعد المتعلقة عن قراءة القرآن ، فقال : (تغيرت قواعد الكتابة العربية ، وتقرر ما يخالف رسم المصحف فقال الزمخشرى منذ مئات السنين : (وقد اتفقت في خط المصاحف اشياء خارجة عن القياسات ، التى بنى عليها الخط والهجاء ، ثم ماعاد ذلك بضير ولا نقصان لاستقامة اللفظ ، وبقاء الحفظ ، وكان اتباع خط المصحف سنة لاتخالف ، فشتان بين اختلاف الكتابة عن المصحف واختلاف النحو عن بعض قراءات هذا المصحف !!) .

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٥٩
(٢) نفسه ـ ص ٥٦
(٣) نفسه ص ٦٠

اما عن (المتكلمين بالعربية واختلاف السنتهم) فيكفى (أخذ اصحاب العروبة فى كل اقليم بهذا التهذيب ، رجاء ان يجتمعوا على فصحى يسيرة ، تهاجم العاميات ، فتغيرها أو تضعف شأنها ، وحبذا) (١) .

ولا شك فى أنهم لو وضعوا فى اعتبارهم ما وضعه الاستاذ الخولى فى اعتباره من (اختيار ما هو بسبب من لغة الحياة) لكان الاختلاف أبعد مدى ، واتسع الخرق على الراقع !!

الاجتهاد فى النحو العربى ..

وكتب بحثا تحت هذا العنوان لمؤتمر المستشرقين الدولى الثانى والعشرين المنعقد باستنبول فى سبتمبر سنة ١٩٥١ ، أشار فيه الى محاضرته السابقة ، ثم بين قصده من الاجتهاد النحوى بأنه :

(البحث الحر المنتفع بآخر ما وصلت اليه الانسانية من جهد فى الدرس اللغوى وعدم قبول أقوال الأولين فى ذلك ، بلا تمحيص ، على أن يبذل فى ذلك ، البحث الحر أقصى وسع الانسان فى طلب المعرفة ، أداء لواجبه الكامل فى طلب الحقيقة ، حتى يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب للمعرفة) ..

مع مراعاة أن الأقدمين أنفسهم أن أعلنوا باب الاجتهاد الفقهى فقد ذموا التقليد فى النحو ، ولم يصونوا من الخطأ اجماع نحاة البصرة والكوفة ، واشترطوا لاستنباط النحو العام بلغة العرب ، والاحاطة بكلامها ، والاطلاع على نثرها ونظمها ، والخبرة بصحة نسبة ذلك اليهم ، مع علم بأحوال الرواية .. ولا يتشددون

(١) مناهج تجديد ـ ص ٦٣/٦٤

فيما تتحقق به هذه الشروط .. وصرح بعضهم بأن للانسان أن يرتجل من المذاهب النحوية مايدعو اليه القياس ، ما لم يخالف نصا ، فمن فرق له عن علة صحيحة ، وطريق نهجه ، كان «خليل» نفسه ، و (أبا عمرو) فكره (١) ..

ومن ثم يجب مراعاة ما يأتى حين ننظر فى التراث :

١ ـ أن مستوى الدرس اللغوى بعامة لا يوضع الا فى الدرجة التى يقف عليها زمنه من سلم الرقى ، ومع اكبارنا لهذا الجهد من أهله فى حينه ، لا يمنعنا قط أن ننكر أن الحياة اليوم قد تقدمت بهذا الدرس اللغوى ، مع تقدم سائر فروع المعرفة .. ويقتضينا هذا أن نكمل دراستنا بالجديد من علم اللغة العام ، ومن فروعه الخاصة .

٢ ـ أن اللغة فى فهم قدمائنا نشاط عقلى ، يضبطه العقل المنطقى الفردى فى وضعه ، ونموه ، وتطوره ، وأنتم خير من يعرف ان الدرس اللغوى اليوم يطمئن الى أن اللغة ظاهرة اجتماعية .. والتغيرات اللغوية تتم بطريقة آلية ، مستقلة عن ادارة المتكلم بها ، بل بغير شعور منه ..

٣ ـ ان النحو عندهم عمل منطقى ، قامت فى عقول العرب علله ، بل نصت العرب على تلك العلل أحيانا ، فهو قياس كله ، والمجال فسيح فى تعليله للعقل المنطقى ..

وان من الانصاف أن نقرر أن الثقافة القديمة بدقتها المعهودة ، لم يفتها ادراك وجه الصواب فى هذا ، فمن ذلك ما كان خارج البيئة النحوية . ومنه ما كان لمحا حفيفا فى البيئة النحوية

---

(١) مناهج تجديد ـ ص ٧٠\٧١

نفسها .. فهم يقررون فى مقدمتهم اللغوية لأصول الفقه : أن القياس لا يجرى فى اللغات ، والكوفيون كانوا يميلون الى التتبع اللغوى وعدم اتباع التأويلات البعيدة ، والامعان المنطقى ، الذى جنحت اليه مدرسة البصرة ، وقولة (أى كذا خلقت) للكسائى دليل ذلك ...

وبالتخلى التام عن التعليل نهمل ما تمتلىء به منه متون النحو العربى نفسها ، وتفيض به شروحه ، ويلقى دارسوه منذ اللحظة الاولى منه ما يلقون ..

ويتبع التخلى عن هذا التعليل ترك ما خلفته اللغوية المنطقية من صيغ اعرابية تلقينية ، يرددها غير قليل من الدارسين دون وعى ..

ويقتضينا تصحيح المنهج النحوى الاجتهاد بمعنييه : اللغوى والاصطلاحى : فأما الاجتهاد بمعناه اللغوى ، فهو الجد الدائب فى تأصيل الدراسة اللغوية العلمية واستكمالها والاعتماد عليها وحدها فى فهم نص العربية ، وتقديم التفسير اللغوى الصحيح لظواهرها الصوفية والنحوية بدل تلك التعللات النظرية والتفسيرات المخترعة والمتوهمة لتلك الظواهر ، كما تسجل الكثير منها الصيغ الأعرابية التقليدية ..

وأما الاجتهاد بمعناه الاصولى الاصطلاحى ، فلا يكون وراء ذلك الا النظر المجتهد فيما خلف المنهج القديم ، من قواعد العربية، وتقديرا لصحة هذه القواعد وسلامتها ...

٤ ــ واذا كان جمع الأقدمين للثروة اللغوية ناقصا ، كما وصفوه هم أنفسهم يقتضينا هذا النص استكمال الجمع قدر الطاقة الانسانية ، ثم الأجتهاد الحر النظر فى الاستفادة مما عسى

أن تصل اليه الأيدى من تلك الثروة ، باستقراء دقيق يؤثر على القواعـد الاولى ، اى تأثير ، تقتضيه طبيعـة هـذا الواقع (١) ..

★★★

مشكلات حياتنا اللغوية :

والقى مجموعة محاضرات على طلبة معهد الدراسات العربية العالية ـ أواخر سنة ١٩٥٧ ـ وطبعت سنة ١٩٥٨م ، شعارها ، (ادرسـوا التطور اللغوى للعربيـة ، والا فلا أسـاس لعملكم فيها ..) ..

ومهد لهذه المشكلات بأنه ليس بالكثير ، ولا المبالغ أبدا أن نقول : ان آفات حياتنا فى جمهرتها تعود الى علل لغوية ، تصدع الوحدة ، وتحرم الدقة ، وتبدد الجهد ، وتعوق تسامى الروح والجسم والعقل والقلب (٢) .. وفنية حيوية .. وهى ببعض ذلك خليقة بأن تكون أزمة وطنية وسياسية .. تهز الكيان الاجتماعى كله (٣) .

لذلك لا يريد علاجهـا (كطبيب المستشـفى الاميرى ، لايتكلف فحصا ولا اختيارا ، فلا يكشف علـة ، ولا يحسـن تشخيصا ، فهو لا يهتدى فى دواء) .. ولكن :

---

(١) ص ٧٧ ـ ٨٤ بتصرف يسير ـ مناهج تجديد .

(٢) ص ٢ مشكلات حياتنا اللغوية ـ ط معهد الدراسات العربية .

(٣) ص ٦ .

(نريد أن نفرغ الى تاريخ مرض لهذه العربية ، نعرف فيه . كيف نشأها أهلها ؟ وعلى أى منهج اقاموادرسها ؟ وعلى أى أساس بنوا قواعد علومها ؟ وهل كانوا فيما أخذوها وأخذوا انفسهم أسوياء راشدين ، جارين على ما هدى البحث الى صوابه ؟ او كانوا على غير هذا السبيل وماذا خلفت تلك التربية ــ غير الرشيدة ــ من آثار فى بناء اللغة ؟ ثم ماوجه الرأى التجريبى الصائب فى اصلاحه ؟ (١) .

فلنعرض ــ اذن ــ مقررات علومنا العربية : من لغة .. ووضع ..

واشتقاق .. وصرف .. ونحو ..الخ ، للتحليل فى مخابر المناهج اللغوية المحدثة ، المدعمة بما بلغ الانسان من ثقافة علمية ، تجريبية بعامة ، وثقافية بخاصة . وفى ضوء الاشعة النافذة من هذه المعرفة الانسانية الطليقة المنطلقة ، نستطيع تشخيص مشكلات حياتنا اللغويه (٢) .

وعرض لتشخيص سابق فيما كتب ابن جنى والسيوطى واحمد امين عن جمع اللغة والاشكال الوارد بسببه ، وقال : انا لا نتكلف هنا الخوض فى شىء منه . لأن زاوية النظر فى الملاحظة على هذا الجمع هى الزواية المتينة فى النهاية لأنها عنيت ، بل قصرت على عمل للرواة فات زمانه ، ولا سبيل الى اعادة شىء منه مطلقا ، ليؤدى على وجه أتم أو أكمل ، فيؤدى الى فائدة فى حياتنا اللغوية الآن أو بعد الآن (٣) ..

---

(١) مشكلات حياتنا اللغوية ــ ص ٩

(٢) المصدر السابق ــ ص ١٣\١٤

(٣) نفسه ص ٢٣

وطالب بالجمع المنقب العملي في أرض الجزيرة العربية ، التي لا شك مطلقا في انها تحتفظ بودائع من الماضي ، لها الأهمية، في معرفة ذلك الماضي بكافة صوره ، ومن جميع نواحيه : لغوية واجتماعية وفنية وسواها ..

وانكر على المتحدثين في أولية اللغة ووضع اللغة ، وقال عن (علم الوضع) انه كان (هزيلا ضامرا ، لم تشعر الحياة بحاجة الى نموه ، فظل في تلك الحدود الضيقة أقساما تردد ، وخلافات حولها ، لا عمق فيها ، ولا اثر لشيء منها ، الا في حياة كحياة تلك الأيام التي ظهر وعاش فيها علم الوضع ، حياة صناعية متكلفة ، يرتزق فيها ناس بأشياء يوهمون بها ، أو يعمونها على الناس ، أو يقدرون لها ، — على غير أساس — أن لها شيئا من الأهمية) (١) ..

كما انكر الوضع اللغوي الجديد : (لأن الوضع لا ينبغي ان يشغل حيزا من عنايتنا ، ودراستنا اللغوية ، لأنه في القديم فرض غير قريب الوقوع ، ولا سليم العقبى ، وفي الحديث محدود ، ضعيف الجدوى على اللغة ، ولا أمل في التشبث به) (٢) ..

ثم ناقض قول ابن فارس وابن جني ومصطفى الرافعي وعبد الله العلايلي في استكمال اللغة ، واجمل ما وصل اليه في (أن القدامى قد شعروا شعورا قريب المدى بأن اللغة لم توضع مرة واحدة ، وانها قد تلاحق تابع منها بفارط ، فكان هذا الشعور — على نحو ما سمعنا من قولهم عنه — ليس انتباها

---

(١) نفسه ص ٣٦

(٢) مشكلات حياتنا اللغوية — ص ٤٧

للتطور بمـا هو حقيقة حيوية .. فلم يدفعهم الى التعلق بشيء من أمر هـذا التغير المتلاحق ، ووصـــــفه أو تبيان مظاهره .. وأحسن الظن منا بهذا الشعور منهم أن تقول : انه ليس كفرا جاحدا للتطور يعوق القول فيه ..

ثم ان طلائع المحدثين فى عصرنا قد لفتهم ما حولهم من جد فى الحياة وتناولها الى التحدث عن شيء من تهـذيب العربيـة وتنقيحها ، ففاءوا فيه الى شيء من قصص التاريخ غير المحقق ، يصفون به مرات من التهذيب أو التنقيح اللغوى ، ذلك الذى سمعت من الوصـف الساذج الخطابى الذى ينتهى الى كهوف الغيبة وخوار فى الأحداث الكونية للطبيعة) (١) ..

وأورد ما قال ابن فارس وابن جنى والسيوطى والرافعى والعلايلى والكرملى وبرجستراسر فى : (كمال اللغة والتفضـيل اللغوى) ليقول كما قال الكرملى : (ان الناطقين بالضاد الذين امعنوا فى تدبير لغتهم وتقليبها على منـاخ ووجوه شـتى أزدوروا بكل لسان سواهـا ، ظانين أنهـا فوق كله لغـة ، ولا يمكن أن يدانيها شيء من كلام البشر ، فكان هذا الاعتزاز داعيا بل ناعيا كل تبحر فى معارضتها بسائر اللغى والألسنة) (٢) ..

ثم أورد من أقـوال العـلايلى وعلى عبد الواحـد وافى ، وبرجستواسر فى التطـــور اللغوى ، لينقض رأى المجمعيين : (أن التطور يتم مع الاحتفاظ بأصـول اللغة وقواعدها ، وبالفصيح من مفرداتها وشواهدها) .. وقال :

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٥٩
(٢) نفسه ـ ص ٧٥

(ولا ندرى اى تطور هذا الذى يكون بلا تغير ؟ .. لكن — فى حدود ما نشر لانرى للمجمعيين اتجاها عاملا نحو درس التطور اللغوى للعربية ، والانتفاع بما يكشف عنه هذا الدرس من حقائق ذات أثر كبير فى فهم مشكلات اللغة وعلومها ، كما انها ذات أثر كبير فى المحاولات الاصطلاحية للغة وعلومها) (١) ..

ثم أشار الى المحاولات اللغوية الجادة لبرجستراسر والدكتور حسن عون والاستاذ العلايلى ، وخص عمل العلايلى بأنه (محاولة جريئة تامة لشرح تطور العربية منذ عهدها الفطرى الى يومها الحاضر ، فى توسع وجراة ، قسمت ذلك التطور ادوارا ، وقسمت الأدوار الى حلقات ، كما وصفت تطور العربية المادى ، وتطورها الشكلى ، وبينت مسايرة هذا لذلك ، وتقابل ادوارهما وحلقاتهما .. وأهم من ذلك كله أن الدراسة قد حققت الغرض العملى المطلوب من تصحيح المنهج اللغوى ، ويتبين وجهة سير العربية فى الحياة وعن طريق معرفة اتجاه تطور العربية امكنها أن تساعد سير التطور ، وتعين العربية على متابعة نمائها متابعة لا تعد الا الامتداد الطبيعى لما أراد لها أهلها ، والتحقيق العملى لما تمثلوه نظريا ، وكانوا يتمنونه لو ظلت لغتهم تأخذ طريقها فى بيئتها ، ولا تزعج عنها وتخرج منها) (٢) ..

وختم هذا الحوار الجاد الساخر أحيانا الملتزم بتعيين المراد من اللفظ التزاما يشد الانتباه الى قدرة باهرة فى الحجاج بقوله : (وكلما هدى الى الايمان بالمنهج فرد واحد توفر جهد يضيع بددا ، وعمل يذهب سدى ، فى غير وجهة ، عندما نختلف، ونتناقش ، ونقرر على غير أساس من منهج محرر) (٣) ..

---

(١) مشكلات حياتنا اللغوية — ص ٨٣\٨٤

(٢) المصدر السابق — ص ٩٢\٩٣ .

(٣) نفسه — ص ١٠٤

وفى جلسة ١٣ مارس سنة ١٩٦٢ م بمجمع اللغة العربية القى بحثا ، بداه بنظرة الى موقف المجمع من الكفاح الدائب بين الفصحى والعامية ، منذ انشاء المجمع الى يوم القاء البحث ، منتقلا من قول أحد مشيخته سنة ١٩٣٥ . (ان ادخال ما يسمى بالعامى والبلدى والدارج فى اللغة الفصيحة ٠٠ أفســـاد للغة وابطال لجهد العاملين ، ومضيعة للأموال التى تنفقها الدولة المصرية على تعليم اللغة العربية) ــ الى قول مجمعى سنة ١٩٥٨ : أن مما لاشك فيه أن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وانه يزداد امكانا فى العصر الحاضر ــ ليبين أن (خطة الفصحى كانت هى : اقامة الحصون المنيعة حول نفسها ، والخروج منها الى مهاجمة العامية فأما الحصـــون التى أقامتها فمثل وضـــع النحو وجمع اللغـــة ، والدراسة المتصلة لذلك كله ، والاســتظهار بالتأييــد الدينى والسياسى ، ووضع القوى لحماية تلك الحصون . ثم هى تهاجم العامية بوسائلها هـــذه ، فتؤلف الكتب فى تتبع لحن العاميـــة ، تحصيه ، وتصححه وتندد به ، على توسع فى فهم اللحن ، وأنه الخطأ اللفظى أو المعنوى .. وعلى امتداد كبير لمنطقة الهجوم ، فلا يوقف بالعامية عند الدهماء والسواد ، بل يدخل فيهم الخواص والمثقفون الذين يتسرب الخطـــأ الى ألسنتهم ، ولو فى أبســـط صورة ..

٠٠ وتلقى السامية هذا كله بقوة خفية ، توشـك أن تكون سحرية هى قوة الحياة ، وقوة المجتمع ٠٠ فهى من الحيـاة . وفى الحياة ٠ وهى تستجيب لسنن الاجتماع مرنة طيعة فلا تتأثر بتلك المهاجمة ، بل مضت تنمو نموا مطردا ، فتثرى فى مفرداتها ،

وتزيد طاقاتها الفنية ، فتتخذ أوزانا للفن القولى جديدة ، غير تلك التى عرفتها الفصيحة) (١) ..

وضرب مثلا للاهتمام بالعامية ، والاعتراف بحظها من الصواب منذ بعيد ، بما فعله اللغوى المصرى أبو الحسن على ابن الحسن الفانى (كراع) فى القرن الرابع الهجرى ، حين ألف كتابه (المنضد) ، (فيما اجتمعت عليه الخاصة والعامة من الألفاظ سنة ٣٠٩ هـ تقريبا) ..

ثم ذكر أن السيد برفا أفندى محمد امين، الكتبخانة الخديوية المصرية سنة ١٢١٠ هـ طبع مقدمة كتاب (التحفة الوقائية فى اللغة العامية المصرية) مبينا (الحاجة الى توحيد اللغة العربية ، والوسيلة النافعة لذلك) .. ووسيلة هذا التوحيد الواجب عنده أنه (لا يكون الا بتقويم أود العامية ، واصلاح فاسدها ، حيث انه بهذا الاصلاح لا يكون هناك فرق بين ما يدون فى الكتب ، وما عليه عرف التخاطب العام ، ولا يبقى أدنى امتياز فى مبادئ التعليم العمومية ، الا فيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة ، وذلك لا يضر بأصل الغرض المطلوب ، متى صارت لغة التخاطب هى لغة التدوين ، اذ من السهل بعد ذلك أن يراعى فى التأليف سهولة العبارة ، بحيث يستوى فى فهمها العلماء ومن دونهم من سائر طبقات الناس على اختلافهم) ..

وبهذا تكون (فكرة التقريب .. فى مصر نفسها ، منذ أكثر من سبعين سنة أوضح وأقوى . وأبين طريقا ، وأهدى سبيلا ، مما انتهت اليه الفكره اليوم فى المجمع) (٢) ..

---

(١) لسان العرب اليوم ، طبعة خاصة للمجمع اللغوى سنة ١٩٦٢ — ص٢/٤ وقد نشر البحث فى مجلة الأدب — مايو سنة ١٩٦٢ م .

(٢) لسان العرب اليوم — ص ٨/٥ .

لذلك .. يرجو للمجمعيين (من المواقف العلميـة ، ما يرجوه رائد لا يكذب أهله ، ومؤمن هو مرآة أخية ؛ وذلك هو :

١ ــ ثبات الايمان بفكرة التقريب بين لغة اللســان ولغة القـلم ، وصدق العزم الآخذ بوسائل ذلك .

٢ ــ توسيع مجرى التيار الذى رأيناه فى المعاونة بين لغة الحياة ولغـة الكتـابة ، وذلك يكون بالجد العامل فى تتبع كتب أسلافنا في التصـويب لقول العامة ، والظفر بهـا ونشرها بعد تحقيقها ..

٣ ــ تصحيح الصلة بين المجتمع والحياة ، بأن يكون تعامله معهـــا أخذا واعطاء معا .. يأخذ ما أخـذه أسـلافه المصوبة ، من العامية فى الماضى البعيد أو القريب ، من صحاح كلماتها . ثم ما فى ألسنة الناس الآن من ذلك ليصنع من ذلك كله معجما ، يسمى مثلا ، لسان العرب اليوم .. يكون وسيلة تقارب وتفاهم يرد العربية عاملا فعـالا ، فى قومية أهلهـا ، وألفة بينهم ، واتصالالهم) (١) ..

لكنك تسـمع فيما أثير من تعليق على هذا البحث ما يحقق الظاهرتين الآتيتين :

١ ــ أن التطور اللغوى لا يأخذ مداه فى حياة الشعوب التى تتكلم العربية ، بل تصيبه نكسة ، أو ردة ، أو رجعة ، فينقلب على عقبيه .. وتعود الدورة من جديد ..

٢ ــ أن اليقظة الحية فى كيان الشعوب التى تتكلم العربية لا تنتفع بماضيها ولا تلتفت لما حولهـــا ، ولا تستفيد من تجـــارب

---

(١) المصدر السابق ــ ص ١٣/١٠

أسلافها الأقربين أو الأبعدين . وبخاصة فى الميدان اللغوى ، بل فى هـذا الميدان ذاته تختلف الظنون ، وتخطىء الواقع ، ولا تفعل فعلها فى غيره ..

وأسوق اليك نتفا من هذه التعليقات موجزة ، لتقدر منها مابدا لى من وضوح هاتين الحقيقتين القاسيتين .. فمن هذه التعليقات مثلا :

ـ أن البحث مقرون بالجرأة .. ولنتعاون مع العامية فى حيطة وحذر دائما !!

ـ ماأخشاه هو التوسع فى هذا الباب الذى قد يدخلنا فى معترك واسع مع بعض الأوربيين ، ممن نصبوا أنفسهم للدعوة لاستعمال العامية !!

ـ أن هذه المسألة من الخطورة بمكان !!

وما أحسبك قد نسيت أن المقترح ليس الا العناية بصحيح لغوى معترف به ، مدون فى المعاجم والنصوص الأدبية ، وليس موضـعا لخلاف جدلى .. وهو شاخص قائم فى متن لغة القلم . وعلى ألسنة الناس ، وليس المراد الا اللفت اليه ، وتوجية العناية له ، فما الجرأة ؟ وما المعترك ؟ وما الخطورة التى بمكان ؟ ! (١)



فى ميدان التيسير والتقريب

ومن التيسير ماجاء فى (الجزء الخامس عشر سنة ١٩٦٢) من مجلة المجمع اللغوى تعليقا للأسـتاذ الخـولى على ما اقترحه

(١) بين اللسان والقلم ـ الأدب ـ مايو سنة ١٩٦٢ م .

الدكتور محمد كامل حسين من (ان العدد يجب أن تكون له حالة تتعلق به وحده ، دون نظر الى تمييزه . فيجب أن يكون هناك عدد خمسة دون أن يتعلق ذلك بخمسة رجال أو خمس نساء ، والاتفاق تام على ان حالة العدد مستقلا عن تمييزه هي (خمسة) بالتأنيث ، أما على أن ذلك أصل ، أو على أن تمييزه كلمة (عدد) مضمرة) ..

قال الأستاذ الخولى بعد أن عرض أقوال النحاة بالتفصيل وناقشها :

(نستطيع أن نلخص نتائج هذا التناول فيما يأتى :

أولا : صعوبة مخالفة العدد لمعدوده تزول بتقديم المعدود . ولاتحتاج من المجمع الا الى اللفت اليسير اليها ..

ثانيا : صعوبة مخالفة العدد لمعدوده تزول أيضا بذكر لفظ (عدد) قبل الرقم المذكور ، ووضع (من) قبل المعدود ، وهذا الوجه يحتاج الى قرار أو اعتماد من المجمع ، ان شاء اصدره ، وان شاء اكتفى بالتقديم في ازالة صعوبة المخالفة هذه ..

ثالثا : يمكن تثبيت الأعداد مؤنثة الألفاظ ، ويكون تمييزها مذكرا أو مؤنثا ، أو يكون بذكر لفظ « عدد » قبل الرقم ، وجر المعدود بمن) ..

وهذا يحتاج من المجمع الى قرار يعين فيه الصورة التابعة للأعداد التى لا تتغير مهما يختلف المعدود ، على أن يذكر قبلها لفظ (عدد) ويجر بمن) ..

وأورد فى (الجزء الثامن عشر) اقتراحا يقول :

(كل مالا علامة للتأنيث فيه من أسماء الحيوان ونحوه يصح تذكيره ، واذا ـ أريدت أنثاه قيل أنثى كذا ..

وكل مافيه علامة للتأنيث من أسماء الحيوان ونحوه يصح تأنيثه ، واذا اريد مذكره قيل ذكر كذا ، اذا لم يوجد له لفظ خاص) ..

وفى مؤتمر المجمع (١٠ يناير سنة ١٩٦٣) قدم بحثا تحت عنوان (مما أن تفعل) خلاصته :

(أنه لاوجه للقول بأن هـذا التعبير يدل على الكثرة ، لأنه كما قال ابن هشام يدل على المبالغة فى الكثرة ، وكما قال الصغار فيه التكثير والمبالغة ، ومع هذا لا تسهل افادته القلة) (١) .

وقدم بحثا آخر عن المركب المزجى .. جمع فيه صورا مختلفة لهذا المركب ، من اعلام الأشخاص وأعلام الاجناس والظروف والأحوال والأصوات ، ثم قال :

(ويمكن أن تصاغ كلمات بهذا الضم عند الحاجة ، ويعرض ذلك على المجمع ليقره ، ويدخله فى معاجمه) ..

كما قدم بحثا عن تسكين الأعلام الثلاثة (محمد على حسن) اجراء للوصل مجرى الوقف ، أو وصلا على نية الوقف . ببيان موقعها مجتمعة فى الجملة) (٢) ..

هذا ... ولم يقتصر نشاطه فى المجمع على ماسبق بيانه ،

---

(١) مما أن تفعل ـ طبعة خاصة فى كتيب سنة ١٩٦٣ ـ ص ١١

(٢) البحوث والمحاضرات للمجمع اللغوى ـ ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ م .

بل : (كان مقرر لجنة الأصول يحمل رسالتها) ويعبر عن رايها ولم يمر مؤتمر من مؤتمرات المجمع الخمسة (١) الماضية الا وله تحقيق فى ترجيح رأى لغوى ، أو كشف عن رخصـــة ، تيسر امر العربية على الباحثين والدارسين ، وأسهم فى لجنة معجم الفاظ القرآن ، وأعد جزءا من أجزائه ، وكان له فى لجنة الأدب توجيه وتقويم ، وفى لجنة القانون ملاحظات ومقترحات ، وكانت لجنة المعجم الكبير ترقب مشاركته واسهامه) (٢) ..

---

(١) اشارة الى فترة وجوده بالمجمع .

(٢) مجلة المجمع اللغوى جـ ٢٢ ص ٢٣٩ .

البلاغة وفن القول

صور الأستاذ الخولى خطاه فى هذا الميدان ، فقال :

(شاءت الأقدار أن أدع مدرسة القضاء الى كلية الآداب بجامعة فؤاد ، لأمضى فى هـــذا الدرس الأدبى ، فدخلت ميـــدان التجديد الأول ، على خبرة به ،و رأى ثابت عنه ، وخطة بينة فيه ، أدرت عليها عملى فى درس البلاغة وسواها ..

وكان طلبة الحقوق ــ اذ ذاك ــ يتلقون دراسة فى كليـــة الآداب ، يراضون فيها على القدرة الكلامية فى عملهـــم بالقضـــاء والمحاماه ، ويمرنون على الـــخطابة ، وجو هذه الدراسة وهدفها يقضيان باتخـــاذ طريقة عملية ذات أثر ايجابى قريب ، بعيد كل البعد عن المحاولات النظرية ، فكان هـــذا أول ما الزمنى الخروج عن المألوف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ..

ثم كانت الدراسة لطلبة قسم اللغة العربية ، فى هذا الجو المتجدد ، الذى اشرت اليه ، وبعد معاناة لهذا الاتجاه العملى ، فكانت ثانية ما الزمنى الخروج عن المألوف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ، وكان الخروج على هدى من تلك الخطة التى وصفت آنفا ..

طفقت أتعرف معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة ، ولأدبى منها بخاصة . وأرجع الى كل ما يجدى فى ذلك ، من عمل الغربيين وكتبهم ، وأوازن بينه وبين صنيع أسلافنا وأبناء عصرنا فى هذا كله .. وكانت نظرتى الى القديم ـ تلك النظرة غير اليائسة ـ دافعة الى التأمل الناقد فيه ، والى العناية بتاريخ هذه البلاغة ، أسأله عن خطوات سيرها ، ومتحرجات طريقها ، أستعين بذلك على تبين عقدها ، وتفهم مشكلاتها ، ومعرفة أوجه الحاجة الى الاصلاح فيها ..

وبذلك كانت الطريقة التاريخية ، مع الاستفادة بالحديث ، منهج درسى للبلاغة فى الجامعة ..

وجعلت أقف الوقفة المتأنية ، عند الجانب من جوانب حياتها ، أتولاه ببحث مفرد ينشر ، أو بدرس طويل ، وان لم يخرج عن شىء مكتوب .. فأخرجت رسائل مفردة : عن (البلاغة والفلسفة) سنة ١٩٣١ ، وعن (مصر فى تاريخ البلاغة) سنة ١٩٣٤ ، وعن البلاغة وعلم النفس) سنة ١٩٣٩ ، كما كتبت مادة (بلاغة) ، كتابة مستقلة ، فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩٣٨ م ، فوصفت المعالم الكبرى لما انتهيت اليه من الرأى فى التغيير ..

مضيت فى هذا الدرس المتأنى ، أمس مسائل البلاغة مسا رفيقا جريئا معا ، أقابل فيه القديم بالجديد ، فأنقد القديم ، وأنفى

غثه ، وأضم سمينه الى صالح الجديد .. وتلك خطة لا تدوم فى دراسة جامعية ، أساسها التجدد ، وحياتها فى نماء متصل ، ولذا قاربت أن أفرغ من النظر فى القديم ، بعد ما ضممت خياره الى الجديد ، فألفت منهما نسقا كاملا ، يرجى أن يكون دستور البلاغة فى درسها .. ومضيت أتناول أقسامه بالدرس ، قسما قسما ، وأدع فى كل عام ما درسته الى غيره ، الا أن تكون اعادة شيء تقضى به حاجة الطلاب ..

وبهذا صارت البلاغة فى الجامعة (فن القول) ، وأن بقى لها اتصال يسير بقديمها ، تحوج اليه الصلة بين المعاهد المتعددة لتعليم العربية ، وما تجره تلك الصلة من منافسة ، قد تزعم أن ترك هذا القديم جهل له ، فنبقى للطلاب صلة به ، ترد عنهم مثل هاتيك التهمة ، ريثما يستقر ما بين تلك المعاهد على حال مقبولة) (١) ..

اذن .. فالمنهج الذى اختطه فى دراسة البلاغة منهج متطور يقوم على أساس قتل القديم فهما ، وتعريته من العناصر الغريبة عليه ، ثم الانطلاق به مع الحاجات والدواعى الجديدة ..

يقول فى (مناهج تجديد) عن منهجه فى درس البلاغة

من محاضرات بدأ القاءها بكلية الآداب جامعة فؤاد (القاهرة) سنة ١٩٣٠ م ، ولم ينشر منها شيء :

(أحاول بالتاريخ العلمى الصحيح للبلاغة ، أن أتعرف

---

(١) فن القول طبعة سنة ١٩٤٧ ــ ص ١٠/٨

ماضيها وحاضرها ، راضيء طريقها الى مستقبل أحيى حياة ، واقوى قوة) ..

فهو يدرس (تاريخ مسائل المادة ، وقضاياها ، تاريخا يصف نشأة المسألة وبدء ظهورها ، ثم تدرجها ، وكيف تنفس بها القول ، واختلف التناول وأين استقر بها الأمر أخيرا ، بحيث يعطى تاريخ المسألة سجلا بينا لعمرها ، وماطرأ عليها أثناءه من تغير ، يتضح فيه جليا عمق التفكير فى المسألة ومدى ماصارت اليه من سعة ، وما تأثرت به من المعارف البشرية ، أو الأحداث الاجتماعية ، وما أثرت هى فيه من ذلك ، أن كان) ..

ويدرس (تاريخ العلماء ، وقادة الرأى ، من أصحاب المذاهب والآراء المتميزة فى حياة المادة ، بحيث تريكم فى هذا التاريخ شخصية أولئك الرجال فى هذه المادة ، ونوع تناولهم لها وأثرهم فيها ، وما تأثروا فيه بغيرهم ، ومالهم من أثر فى غيرهم ، وآفاق تناولهم لهذه المادة ، وما كان يلوح فى تلك الآفاق من أضواء وألوان ، توجه التفكير ، وتلون المزاج ، وتطبع الرأى) ..

ويدرس (تاريخ التأليف والمؤلفات فى المادة ، فالرجل بما يفكر ويقرر ، قد يكون غير الرجل بما يكتب ويدون ، وما يكتبه المؤلف يتلقاه عنه متلقون ، يختلف فهمهم له ، ويتجه اتجاهات متغايرة) ومن ثم (نؤرخ ما كتب فى المادة تاريخا ، نبين فيه عمل المؤلف فى كتابه ، ومن أين اخذ ، وبمن ، وبم تأثر ، وماذا زاد أو جدد ، واسلوبه فى ذلك ، وكيف عرض المسائل وسجلها) (1).

ومع هذا التخطيط الواضح ، المرسوم بدقه ، فان الأستاذ الخولى لا يعتده الا (تخطيطا مبهما ، واشارات عامة ، لم استنكف أن أدونها على حالها هذه ، طامعا ان يكون فيما تستأثر

(1) مناهج تجديد ـ ص ٨٨\٨٩

به تلك الدراسة من وقت وعمر ما يحقق بعض ما تشير اليه تلك المدونات الأولى) ..

ومن يرجع الى ما نشر من المحاضرات التى بدأ القاءها بكلية الآداب سنة ١٩٣٠ ، وهى جزء من كل ـ كما يفيد قوله عن (الاصطلاحات البلاغية المختلفة) ، (وقد أشبعنا فيه القول هناك ، بما يهيىء لنا الالمام الجامع الشامل هنا) مع أنه قد أعاد النظر فيه ، كما يبدو من قوله : (أما حين تجدد تلك البلاغة ، ونكون فيها نرجو لها من صورة يجعلها ما يلى هذا التاريخ من محاولات تجديد البلاغة حتى تكون (فن القول على ماسيأتى ، (١) من يرجع الى ما نشر ، لا يجد فقط المنهج الذى سار على خطاه (الأستاذ) سيرا متواصلا ، بل يجد معالم بارزة لكثير من آرائه النقدية ..

فمن خلال تاريخ البلاغة وبيان أدوار حياتها ، نتعرف الى انه (ما تظهر حقيقة من الحقائق ، فى فجاءة ، يظفر بها واحد من الناس ، أو تنقدح فى عقله انقداحا ، ولا تتحقق ظاهرة من ظواهر حياة فكرة او مادة ، أو بحث ، على يد رجل بعينه ، فى يوم من أيام الله ، يعتبر ميلادها على الأرض .. لأن ذلك سيجرى فى مسارب خفية مستترة ، يكون آخرها هذا الظهور الذى يحسب مفاجئا) (٢) ..

ويؤيد قوله هذا بالقاء الضوء على ما قيل فى الأوليات البلاغة ، وبخاصة كتاب (المجاز) لأبى عبيدة ، وما بعده ، الى ما كتب عبد القاهر .. مع التأثير الكبير بما نقل عن اليونان ـ وبخاصة أرسطو ـ (وثقافات الأمم التى جاسوا خلال ديارها ،

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣/٩٤ .

(٢) نفسه ص ١٠٣/١٠٤

وخلقوا على تراثهـا ، ومازجوا بقية أهلها ، وتفاعلوا مع أبنائهـا وفى ذلك نذكر السريان ، والعبرانيين ، والفرس ، ولا نغفل الهنود واللاتين ، وسواهم) (١) ..

ثم بين غلبة المدرسـة الكلامية على المدرسـة الأدبية ، والتزام البلاغة للمقاييس الفلسفية والقواعد المنطقية ، ممـا أدى الى احتراق الفكر قبل نضجه ، وأصبح هذا (لفتا الى وجوب متابعة العمل لانضاج البحث البلاغى ... بما يعرض عليه هذا التخلف الذى قضى به عليه البحث الكلامى فى البلاغة) (٢) ..

وقد حدد سمات جمهور البلاغيين فى (أنهم ــ فى كثرتهم ــ ذوو صلة مسا بالفلسفة وبيئتها ، سواء أكانت الفلسفة العامة أم الفلسفة الكلامية الخاصة) ، و (أن كثرتهم من غير العرب .. واذا كانت عجمة مع فلسفة فقد كمل البعد عن مجالى الفن) ، الى (عدم قيام رابطة مكانية بين نفر منهم ، فتكون لهم مدارس منسـوبة الى مكانها ، كالمدرسـتين البصرية والكوفية فى النحو مثلا) ..

وختم محـاضراته بتعـريف موجز بأصـحاب المؤلفـات المتخصصة ، وبالمؤلفات أيضا ..

البلاغه العربية وأثر الفلسفة فيها

ثم .. عاود البحث عن أثر الفلسفة فى البلاغـة العربيـة ، محاضرا فى الجمعية الجغرافية الملكية ــ مساء ١٩٣١/٣/١٩ ــ ممهدا بالحديث عن التجديد : (متابعة الحياة من حيث عاقتها غفوة

---

(١) مناهج تجديد ــ ص ١٢١

(٢) المصدر السابق ــ ص ١٢٧

اجتماعية ، ومراصلة النماء من حيث وقفته عوامل جمود) (١) ، داعيا الى أن يتبين المجدد طريق غده بتجارب أمســه ، ليــكون كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة ..

ثم .. عرف كلامن البلاغة والفلسفة ، آخــذا يقول سقراط (حددوا الألفاظ التى تستعملونها) ، وبين أثر الفلسفة الاسلامية فى البلاغة العربية (قويا باديا فى نشأة البلاغة وظهورها .. قويا فى تطورها وسير دراستها .. قويا فى ضبط أبحاثها ، وتحديد دائرة درسها .. قويا فى تعيين غرضها وغايتها) .. وتولى بيان ذلك (نقطة نقطة ، ومسألة مسالة) ثم عاد آخر الأمر (فعرض — بنظرة شــاملة — لما كان للدلك التــأثير من عائــد على البلاغــة ، وما جر عليها من نفع أو ضرر) .. وختم بحثه بأن (البلاغة تتمنى أن لو لم يكن لها بالفلسفة تلك العلاقات السابقة ، وحبذا لو لم يكن لها الا تلك العلاقة العــامة .. وهى عناية الفلسفة والبلاغــة بالجمال ، فتعمــل البلاغة العمــل الصــادق فى درس الجمــال القولى) (٢) .. ودعا معلمى البلاغة ومتعلميها فى أنحاء العــالم العربى الى اعمال الفكر فى القضايا التاريخية والتجديدية التى عرض لها ، ولخص هذه القضايا فى آخر البحث .

مصر فى تاريخ البلاغة

وفى ٧ مارس سنة ١٩٣٤ ألقى خلاصة بحثه عن (مصر فى تاريخ البلاغة) بقاعة الجمعيه الجغرافية ، معللا الدراسة الاقليمية بأن :

١ — (الاستقراء التاريخى الاجتماعى يشهد أن نهضات الفنون — على اختلافها — تسبق جميع نهضــات الأمم ، وتتقــدم

(١) نفسه — ص ١٤٣

(٢) نفسه — ص ١٧٥

حركات عظمتها وتجددها ، ثم يليها غيرها من النهضات ، بعد أن تكون قد مهدت لها ، ولذا كانت (الحياة الأدبية دائما خير ميدان لجهاد العاملين على رفعة الشعوب ، كما رأيناها أبدا هدف اعداد النهضات الساعين الى تعويقها) .

والعناية بالدراسة المصرية ــ حتى تستطيع أداء واجبها ــ يقضي بها (ما للدراستها من الصلة والأثر ، في هذا الدور من حياة مصر الناهضة ، فتغذى بهذه الدراسات المصرية الخاصة حركة النهوض المصرية ، وتمدها بما ينعشها ويحييها) (١) ..

٢ ــ (تقوم الدراسة الصحيحة على العيان والاختبار ، ويعتمد البحث الفني الصالح على الادراك العميق للروح الفنية ، وفهم أسرار الحس بالجمال في البيئة المدروسة ، ونحن بني مصر ، ولا مشاحة ــ أقرب الناس الى مصر ، وأقدر الناس على فهم مصر ، نحن نغدو في الوادي ونروح ، تنال أيدينا وعيوننا ، وعقولنا ، مواد دراسته) (٢) ..

(واستطرد الأستاذ الخولي الى بيان رأيه في تاريخ الأدب) على أساس تقدير الأثر القوي لكل بيئة نما فيها أدب عربي .

وبعد تناول للبيئة المصرية الطبيعية ، والبيئة المصرية الاجتماعية ، بما يميزهما ، بين أن دراسة أثر مصر في البلاغة يساعد على أن نظفر بصورة المزاج المصري الخاص في الأدب العربي ونسمع آراء مصرية في النقد ، تكشف عن الأثر الشخصي لتلك البيئة المصرية في العربية وأدبها ، وتكون لها من ذلك نواة أدب مصري وعصري ، هو الصورة المصرية للعربية في هذا الوادي الأزلي) (٣) ..

---

(١) مناهج تجديد ــ ص ٢١٩/٢٢٠

(٢) المصدر السابق ــ ص ٢٢١ .

(٣) نفسه ــ ص ٢٢٩ .

ثم بين موقف مصر من المدرستين الأدبية والكلامية فى البلاغة متوصلا الى أن مصر (لم تكن تساير المدرسة الفلسفية فى المشرق ، ولا تتبعها ، بل كانت تنفرد عنها وتخالفها ، وربما لم تكن تتصل اتصالا قويا بآثارها ومؤلفاتها ، حتى بعد مضى زمن يسير على ظهورها .. و .. ان هذه الدراسة المصرية غير المندمجة فى المشرق كانت أدبية الاتجاه ، عربية المنزع ، مخالفة فى ذلك أكثر ما كان فى المشرق من نزعة كلامية ... مع .. المشاركة القوية الواضحة الجدوى على حياة تلك المدرسة – الفلسفية – ورجالها ومؤلفاتهم والتوجيه الخاص الجديد لتلك المدرسة توجيها انتهى الى ظهور مدرسة مصرية لها خصائص واضحة .. فقد ... عاشت بمصر المدرسة الفلسفية فى رجالها وكتبها ، وأسدت اليها مصر المعونة والحماية ، لكن رجال مصر عابوا هذه الطريقة الفلسفية بروحهم الأدبية ، فقوموا جفافها وجمودها ، وأدخلوا عليها روح احياء أدبية ، غلبت على الاتجاه الفلسفى) (١) ...

وختم بحثه بالتنويه بكتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) للبهاء السبكى ، ودعا الى تدريسه بالجامعة والأزهر ، عارضا مظاهره المميزة ...

البلاغة .. مرة أخرى ..

وطالعتنا دائرة المعارف الاسلامية – المجلد الرابع سنة ١٩٣٨ – ببحث آخر فى البلاغة ، كتبه الاستاذ الخولى (حين ترجم ما جاء فى الاصل – الاوربى – فبدأ أنه ليس بذى غناء) .

وفيه بيان لمعالم حياة البلاغة ، وخلاصة لفكرة تجديدها ، على أساس .

(١) مناهج تجديد – ص ٢٣٢/٢٤٣

١ ـ نقتصر على كلمة (البلاغة وصفا لجمال الكلمة والكلام ، ونوفر كلمة الفصاحة وتقسم الدرس الى بلاغة اللفظ وبلاغة المعانى ، وفى بلاغة الألفاظ نبحث عنها من حيث ان تلك الألفاظ أصوات ذات جرس ، ثم من حيث هى دوال على المعانى ، مفهمة لها ، ونبحث ذلك فى المفرد والجملة والفقرة والقطعة ، ونقسم المعانى بما يناسبها ، حتى ننتهى الى دراسة فنون القول الأدبى المنظوم والمنثور فنا فنا ، وما به قوام كل فن وحسنه متخطين الفنون القديمة ، من المقامة والرسالة والخطبة ، الى الفنون الحديثة ، من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها ..

٢ ـ نضم الى البلاغه مقدمات جديدة لابد منها لدراسة فنية ، تقوم على الاحساس بالجمال ، والتعبير عنه ، دراسة تتصل بالحياة ، وتحدث عن خلجات النفوس ، وأسرار القلوب ، وتسعد آمال الجماعة وآمانيها ، وتغنى نصرها ، وتغذى طموحها ، كما هو شأن الفن الصحيح فى الحياة الجادة) (١) .

البلاغة وعلم النفس ..

وفى سنه ١٩٣٩ نشرت مجلة كلية الآداب بحثه القيم (البلاغة وعلم النفس) الذى رسم فيه منهجه فى النقد ، ووضع الخطوط العريضة لفهمه البلاغة والدراسة الأدبية ..

(ليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها الا البصر بخفايا الحس البشرى ، والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخله العاطفية ، ومسايرة الأمل ، والتحليق مع الخيال ، والوقوع على مواطن الهوى ومكامن الرغبة ، التى احتوت النفس منها أسرارا باهرة ، وقوى رائعة) ..

---

(١) مناهج تجديد ـ ص ٢٦٦\٢٦٨

لذا يجب أن (تقـــدم بين يدى الدرس البـــلاغى مقـــدمة نفسية .. لندرك المعانى النفسية فى الشعور بالجمال ، والتأثر به ، وتقديره ، ليكون قولنا فى ذلك ، حينما نصنع مثله ، أو نقـده ، قولا معتمـدا على غير اللمحة الخاطفـة ، والملاحظة السطحية ، والهاجس الطـائر ، وبهـــذا لا يكون فننـا لعبـــا بالألفـــاظ ، ولا خواطر متناثرة ، ولا رعاية لمشكلات ســـطحية ، أو التماسات متكلفة ، كما لا يكون نقدنا فارغا ، معادا ، نضعه فى كل بيت ، ونلبســـه لكل قصيدة ، بل يكون فنا عميقا مغذيا للروح ، محدثا عما تجده النفوس القوية ، الشديدة الاحساس ، فيسحرها أن تسمعه ، ويفتنها أن يترجم عنها أصدق مما استطاعت ، كمـــا يكون نقدنا وزنا مقاييســـه حقيقة اختبـــارية ، وتقديرات دقيقة) (١) .

و (فن القـــول والبحث عن الجمال فيـــه ، كيف ، وبم يكون ؟) هو التعريف الجديد للبلاغة ، وصلة البلاغة بعلم النفس قديمة ، فكونها (مطابقة الكلام لمقتضى الحـــال) يراعى انكـــار السامع أو موافقته أو خلو ـ ذهنه ، كما يراعى ذكاؤه أو غباؤه او عناده .. والأقدمون يتحدثون عن البلاغة (ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ) ، ويخالفون بين أضرب الخبر باختلاف حال المخاطب ، كما يفرقون بين المولدين والعرب ، ويتحدثون عن التخييل والايهام والوهم ، والغيرة وفعلها فى النفس وأثرها فى اخفاء أشياء وحـذف أشـــياء عند القول ، كما يتحدثون عن التشويق وطلب الاصغاء ، ومواضـــع ذلك ووســـائله ، والطرق القوابة المثيرة له ، وعن الطمع والرغبة الملحة والاطماع والايناس ، وعن السرور بخلف الظن الخ ... وشرحوا ـ فى اطالة ـ تنادى

(١) مناهج تجديد ص ١٩٠ ـ ١٩٤

المعانى ، وأنواع الترابط بينهما . فيما يبينونه من جامع وهمى أو خيالى أو عقلى ، وحقائق تلك الحركات النفسية ، وفرق ما بينها فى تعمق) (١) .

و (البلاغة من بين العلوم الأدبية هى روح الأدب ، والأدب مادتها ، تعلم صنعه ، وتبصر بنقده ، ولن تعدو البلاغة ذلك عند القدماء والمحدثين ، مهما اختلفوا حوله ، أو غيروا حدوده) ..

(ومن هنا كانت البلاغة أحق ما يتأثر بالتغيير فى مناهج دراسة الأدب ، وتظهر فيه نواحى التجدد ، فى الغاية والغرض من تلك الدراسة الادبية .. وكانت صلة الفن بكل ما يصح اتصاله به أعود على البلاغة ، وأبرز فيها تأثيرا ، فاذا ما تسامى الفن القولى فاتصل بالفلسفة ، وعمق فزادت النفس خبرته ، ودق فصح عن همسات الوجدان حديثه ، كان على البلاغة أن تقدر ذلك له ، وتمهد طريقه اليه ، وتعينه على الابداع فيه) (٢) ..

فن القول

دراسة مقارنة تصير البلاغة فن القول ـ ١٩٤٧م

قال فيه الأستاذ الخولى :

(من أهداف الأمناء ، أن يكون درس الأدب وتاريخه على منهج تصححه الخبرة بالحياة ، والنفس ، والجماعة ، ويمثل التقدم الانسانى والرقى العقلى ..

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٨٤

(٢) مناهج تجديد ـ ص ١٩١

وهـــذا الكتاب محاولة لتصحيح منهج درسنا للبلاغة التى هى قوام الحياة الأدبية الصانعة والناقدة) (١) ..

عرض فيه ما سبق ان تناوله من مسائل البلاغة فى ابحاثه السابقة ، وزاد مقارنة بين قديمنا وحـديث الغربيين (أدناء للجديد من أفق القديم ، وتمكيناللقديم من تمثـل الجـديد وتلقيه) (٢) ..

وختمه بعرض موجز سريع لمباحث فن القول ، وخطته ..

واذا كان الكتـاب مجموعة محاضرات فى (طلاب معهـــد الدراسات العليـا) الذى أنشأته وزارة المعـارف – فى أوائل الأربعينات – (لتـدفع مدرسى المدارس الثـانوية الى النمـاء المستمر ، وتصلهم بما جد فى موادهم من اتجاه وتغيير) ..
فقد حرص على ايضـــاح واجب المعلمين ، وتوجيههم التوجيه الذى ينهض بالدور الهام الذى يضطلعون به :

(فليست الصلة الواجبة لمعلمى لغة الأمة بمصـــادر التأثير العصرى فى حياتنا ، واقفة عند دراسة بعض المعارف الضرورية، من مسائل العلوم أو نوع الرياضة ، ليصيب المعلم ثقافة حديثة تصله بمن حوله ، وليست الصلة بمصادر هذا التأثير العصرى فى حياتنا منتهية عند معرفة لغة من اللغات الحديثة ، والاتصال الوثيق أو اليسير بشىء من أدبها ، وليست الصلة الموجودة فى معرفة دراسات المستشرقين للغتنا وآدابنا ، واعتناق آرائهم فى ذلك ، والترويج لها فى اندفاع بغير تمحيص – ليس بشىء من ذلك تكون هذه الصلة ، وانما الصلة المرجوة بهذه المصادر تكون

---

(١) مقدمة فن القول ص ٥
(٢) المصدر السابق – ص ١٣

بتمثل النواحي المحدثة التي اتجهت اليها الدراسات اللغوية والأدبية والفنية عامة في لغاتهم وآدابهم وفنونهم .. والشعور بأن انماط الحياة الانسانية وأساليبها المتشابهة المشتركة تحوجنا الى مثل ذلك في حياة لغتنا وأدبنا وفنوننا ، وفي مناهج فهم ذلك كله ،وفي أساليب تناوله بالتأليف او الجمع أو الشرح او العرض التعليمى ، على أن يكون لنا مع ذلك كله الاتصال الشديد الوثاقة بقديم لغتنا وأدبنا وفنوننا ، اتصال ينال كل مستتر خفي، ويجمع كل ما تفرق ، ويستخرج منه خير ما فيه ، ويعرف طابعه الخاص ، ومزاياه المفرقة بينه وبين غيره ، بعد معرفة مثل هذه الفوارق والخصائص لما عند الآخرين ، حتى يكون الأخذ على هدى وبصيرة) (١) .

وبعد بيان للصورة البلاغية - افرادية وتركيبية - عند القدماء والمحدثين وما تنوء به الصورة القديمة من فكر المتكلمين ورجال الدين ، على حين تبدو الصورة عند المحدثين - مرتبطة ببقية الفنون الجميلة - أنضر وجها ، وأبهى قسمات) (٢) .

- بين أن دائرة البحث البلاغى عند القدماء مقصورة على الجملة ، ومحدودة بالألفاظ ، على حين تتسع دائرة البحث المحدث باتساع خطوات العمل الفنى الايجاد والترتيب والتعبير (سواء أمر بها المتفنن متعجلا مقصرا ، أم متأنيا متريثا .. ملهما مستوحيا ، أم متدبرا مفكرا) (٣) ..

واذا كان الايجاد قائما على الارادة والملاحظة والقراءة

---

(١) من القول - ص ٦/٧

(٢) فن القول - ٤٥

(٣) المصدر السابق - ص ٥٤

والتأمل والاخلاص .. الخ (يجب أن تقـدروا ، وانتـم مدبرو مزاج الأمة الفنى ، أن التكوين الادبى لبنيها لا يتيسر لكم بنجاح الا اذا بعثتم ارادة تلاميذكم الى الأهداف الأدبية التى تغرونهم بها ، فكانت لهم الرغبة فى ايجاد ما تريدون منهم ايجاده من عمل أدبى ، والا فلن يقرأوا قراءة مجدية ، ولن يتمثلوا ما يقرأون تمثلا مفيدا ، ولن ينتفعوا بما ينتهى اليهم من ذلك انتفاعا صـالحا ، ولن يكونوا بعد ذلك الأشخاص الذين يحسنون استعمال اللغة أداة من أدوات التعبير الفنى ومصدرا من مصادر القوة والمتعة والحياة ... وانكم أيها المعنمون لتحسـنون جد الاحسـان الى الفتية الذين تعدونهم ، اذا ما جعلتموهم نكتبون معانيهم الأدبية من النظر فى الكون ، والملاحظة للموجود وتهيئونهم بذلك ليقظة أوسع من الميدان الفنى ، وأشمل لحياتهم كلها فى عملهم وعلمهم لا فى فنهم فحسب) (١) ..

وتكلم عن منهج درس البلاغة فى البيئة الكلامية والبيئيـة الأدبية ، وعما بين البيئتين من صـلات ، وبين أن (البلاغة هى الدرس الموضـوعى الوحيد فى الأدب ، اذا كان ماعداها من علوم الأدب انما هو درس للجانب الفنى من القول ، أو هو درس لايمس الصميم من هذه الناحية الفنية) (٢) .

ودعا ـ مستعينا بمنهج المحدثين الى (ربط الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة ، ربطا لا ينتهى عند التزامهم ايراد الشاهد الفنى الأدبى ، دون صـنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط ، ولا ينتهى عند اكثارهم من هذه الشواهد ، بل يمضى الى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية تورد بجملتها ، لينظر فيـها

(١) نفسه ص ٥٦/٥٧

(٢) نفسه ص ١٠١

نظرة متذوقة ، يشار عندها الى مالصاحب هذه القطعة من روائع أدبية أخرى فى مثل هذا الصنيع ، من تشبية خاص ، أو صورة تعبيرية موفقة وكذلك القول الى اشارات تاريخية ، تربط هذا الفن الأدبى فى اللغة المدروسة بأصولها فى الأدب أو الآداب التى كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة) (١) .

وافرد فصلا للغة والحياة ، تحدث فيه عن معركة الفصحى والعامية ، وغلبة العامية بحيويتها ومرونتها ونمائها .. وبين أن السبيل الى فصحى صالحة لعصرها لا فصحى من قواميسها ومخلفاتها — دون معاداة للعامية ، ونسيان ما فيها من مادة الفصحى وخصائصها رهن بعمل معلم اللغة ، لوصل الفصحى بالحياة ، وعمل المعلم قاموس ونحوى وبلاغى ...

١ — القاموس .... مرتبط بظواهر اربع :

(أ) كلمات مستحدثة لمعان مستحدثة ..

(ب) وكلمات مقربة قد واتاها الاستعمال ..

(ج) وكلمات مهملة قد أخطأها الاستعمال ..

(د) وكلمات ترف : أضداد أو مشتركات (مترادفات) (٢) .

٢ — والعمل النحوى :

يعتمد على الاقناع بأننا نصقل القوة اللسانية ، والمقدرة اللغوية ولا نعلم لغة أجنبية) .. وعلى (تقريب العمل الأعرابى فى الفصحى بأشباهه القريبة ، بل البعيدة أيضا ، من العامية ،

---

(١) فن القول — ص ١٠٧\١٠٨

(٢) المصدر السابق — ص ١٢٨

أو اللغات الأخرى . التى يكون لتلميذنا بهـا عهد ، ليأنس الى أن هذا الاعراب فى صوره المضطربة ، ليس شيئا من صعوبة هـذه الفصحى وحدها) (١) ..

٣ ـ والعمل البلاغى :

قوامه (ان أنماط الحيـاة وطرزهـا ووسائل تنسيقها ليست الا تطبيقا مزاجيا وجدانيا ، يوجـه أذواق بنيـكم ، ويربى أمزجتهم) (٢) ..

واذا كانت (غايات البـلاغة اليوم غايات لا تلتمس لغيرها من اغراض اخرى وراءها ، دينية كانت أو سواها ، بل تلتمس وفاء بحاجة الحياة التى يحياها الفرد والجماعة ، وسعيا الى ترقية مستوى هذه الحياة ، وافساح آفاقهـا المعنوية (٣) ..

فانا سنحاول تحقيق ما يلى :

١ ـ تحكيم الذوق المصرى الخاص ، حـين نتحاكم الى الذوق ، والقياس بالعـرف المصرى الأدبى ، حين نقضى بالفة او غرابة ، وقبول أو نفرة ..

٢ ـ البحث عن انماط التعبير ، وفنون التحسين ، التى انس اليها الذوق المصرى أكثر من غيرها ، فنمنحها حظا من عنايتنا أوفر ..

٣ ـ الانس الى لغة الحياة المصرية فى تشبيهها أو تجوزها ، أو

---

(١) فن القول ـ ص ١٣٧

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٤١

(٣) فن القول ـ ص ١٥٦

استعارتها ، أو تكنيتها ، وجعل ذلك سبيلا الى استحساننا كناية أو استعارة ، أو تفضيل تشبيه على آخر ، أو ايثار مجاز على غيره ..

٤ ـ تخير نظر البلاغيين الذين ظهر فيهم أثر البيئة المصرية ، لنؤيد به رأيا أو نعزز به اختيارا ..

٥ ـ تتبع آثار ادباء البيئة المصرية من شعراء وأصحاب نثر ، نتمثل بها ونستشهد فنصل بذلك ماضينا بحاضرنا ، ونعمل بجد على ابراز خصائص الذوق المصرى وتمييز طابع الأدب المصرى الخاص ، الذى يقدم الى الأمة المصرية فى عروبتها اللسانية أدبا ونقدا ، تمصر واحتفظ بالمحبب الى النفس المصرية ، الأثير عند المزاج المصرى ، فتنفذ بذلك الرغبة المصرية فى ايجاد أدب خاص له شخصيته (١)

وأعاد القول فى صورة البلاغة ودائرة بحثها ومنهجها وغايتها ، مقارنا بين ما عند القدماء وما عند المحدثين ، مبرزا نتائج المقارنات وكيفية تحقيقها ، تخلية وتحلية ، داعيا الى مقدمة فنية (تنتظم خلاصة القول فى الفن وأصوله ومكانه فى المعرفة الانسانية ، وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة والعلم ، واجمالات عن الجمال ماهو ؟ وبأى شيء يكون ؟ وفى أى شيء ؟ وهل يستطاع قياسه ؟ وبم ؟ ، وكيف ؟ مع التعرض الخاص للجمال الانسانى فى هذا كله ، واعتبار ماعداه من فنون الجمال الاخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت اليه لفتا يقوم على اساس ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة الأدبية ، بما يقدرهم على القول الناقد ، والحكم الصادق ، فى

(١) فن القول ـ ص ١٦١\١٦٢

تناول دقيق ، وادراك عميق ، وحكم سليم ، وشعور قوى) (١)

كما دعا الى بحث المعاني الأدبيـة والفنـون الأدبيـة ، والاساليب الادبية ، وازالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد ثقافتنا على اختلافها ، وأبعاد الابحاث التى أقحمها فى البلاغة اضطراب المنهج . ـ واختلاف المناهج ، مثل البحث فى الصدق والكذب ، والربط فى جملة الحال ، ومقدمة الدلالات ، وانواع الجامع فى باب الفصل والوصل وبيانهم للعقلى والوهمى والخيالى، وشرحهم القوى الانسانية ، وتعرضهم لغير ذلك من معارف ليست فى شيء من هـذه البلاغة ، ووجوب تمثل المنهج الفنى تمثلا واضحا ، والتزامه فى هذا الدرس التزاما صادقا ، ونحرر انفسنا من الرجعية الفنية ، التى تدين بأن كل خير فى الدنيـا قد تقضى ولا نلزم دراستنا الطابع الدينى الذى لزمها يوم كانت غايتهـا معرفة اعجاز القرآن ، ونشعر بعظمة الغاية التى نلتمس من أجلها الدرس الأدبى وحيويتها ، ونثق بأن فى الثقافـة العلمية والفنية لهـذا العصر ما ينبغى أن يلتمس ، ونزود ثقافتنـا الأدبيـة بما يجدى عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها) (٢) ..

وبهذا لم يقدم لنا مؤلفا فى فن القول على نسق مؤلفات البلاغة ، بل وضع الخطوط لمباحث هذا الفن ، والخطة التى تتبع على أمـل (أن تظـل أبد الدهر ـ لو أمكن ذلك ـ رهن التغيير والتعديل ، وهدف التجديد والتحسين ، يضيف اليها ، ويحذف منها ، وينسقها من تهيأت له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له فيه بصيرة خبيرة ، ليظل هذا الدرس للفن القولى ، صـدى لحياة أهله وسبيلا لتحقيق غايتهم فى الحياة الوجدانية) (٣) .

(١) المصدر السابق ـ ص ٨٧/١٧٨.

(٢) نفسه ـ ص ٢١٤/٢١٥

(٣) فن القول ـ ص ٢٢٣

دراساته الأدبية

كان الأستاذ الخولى ـ كما عرفنا ـ احد هؤلاء الشبان الذين عبروا البحر الى أوربا ، واتصلوا ـ بحياتهـــا المتجددة ، وظل على اتصال بما يجرى فى مصر من مظاهر التجديد ، وما يدور من عراك بين المجددين والمحافظين ..

فلما أصبح مدرسا بكلية الآداب شغل نفسه بدراســات قرآنية وبلاغية ، على أساس من منهج حديث ، وضع اسمه ، وأصل قواعده ، وسار به نحو هدف بانت معالمه ..

وكانت ازمة الجامعة مع حكومة صدقى ، ونقل الدكتور طه حسين الى وزارة المعارف فدرس الأستاذ الخولى الأدب الجاهلى ..

ولما كان منهج الدكتور طه فى دراســـة الأدب عامة (كمـــا كان يدرسه القدماء فى عناية قوية باللغة والنحو والصرف والبيان

والغريب والعروض والقافية ، و .. كما يدرسه المحدثون ى عناية قوية بفهم الصلة بين الأدب والشعب . وبين الأدب وغيره من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وفى عناية قوية بتحقيق الصلة بين آداب الأمم المختلفة ، وما يمكن أن يكون لبعضها من تأثير في بعضها الآخر – مع الاعتماد فى درسه على اتقان اللغتين اليونانية واللاتينيه ، وعلى اتقان اللغات الاسلامية وآدابها ، ثم على اتقان اللغات الأوربية الحديثة وآدابها) (١) ..

ودراسة تاريخ الأدب (كما يدرس صاحب العلم الطبيعى على الحيوان والنبات ، لا أخشى فى هذا الدرس أى سلطان ، وانا أريد أن يكون شأن اللغة والآداب شأن العلوم التى ظفرت بحريتها ، واستقلت بها من قبل ، والتى اعترفت لها كل السلطات بحقها فى الحرية والاستقلال) (٢) ..

(على هذا الشرط وحده يستطيع الأدب العربى أن يحيا حياة ملائمة لحاجات العصر الذى نعيش فيه من الوجهة العلمية والفنية ، والا فمالى ادرس الأدب لأعيد ما قال القدماء ؟ ولم لا اكتفى بنشر ماقال القدماء ؟ ومالى أدرس الأدب لأقصر حياتى على مدح أهل السنة وذم المعتزلة والشيعة والخوارج ، وليس لى فى كل هذا شأن ولا منفعة ولا غاية علمية ؟ ومن الذى يستطيع أن يكلفنى أن أدرس الادب لاكون مبشرا بالاسلام ، أو هادما للالحاد ، وأنا لا لاأريد أن انافق الملحدين ، وانا اكتفى من هذا كله بما بينى وبين الله من حظ دينى ؟ !) (٣) ..

---

(١) في الأدب الجاهلي – ط دار المعارف

(٢) المصدر السابق – ص ٥٧

(٣) فى الأدب الجاهلى – ص ٥٨

منهج متحرر غاية لتحرر ، سبق أن أثار ثائرة الرأى العام لانه يخالف ما ألف الثائرون ، ويشجب مما ورثوا .. فهل اتخذ الاستاذ الخولى هذا المنهج المتحرر قاعدة ، أو أكتفى بأن يسير على هداه ؟ !

أحسب أن الاجابة عن هذا السؤال سبقت فيما تناولناه من منهج تجديده (١) ، ونحن الآن بصـــدد عرض أكثر تبسيطـا لدراساته المتعددة فى هذا المجال ..

دراسات أدبية عامة (٢)

مذكرة للطلبة (المبتدئين) فى كلية الآداب ، جاء فى مقدمتها (أن ما نزاوله من هذه الدراســة الأدبية الاجمالية العـامة سـبيل الى اكسابكم مقدرة جديدة على حسن التعبير عن أنفسكم ، والابانة عن أغراضكم الحيوية علميـــة أو غيرها ، ابانة جـــذابة مؤثرة ، بعد أن تكون صحيحة مقبولة على قواعد لغتكم ، كما أن فى تلك الدراســـة شيئا من التعريف بالمعالم الكبرى والمراجع الشهيرة من البحث اللغوى التاريخى الأدبى الذى لابد منه لكل من يمضى فى دراسة من دراسات كلية الآداب ، على اختلاف أقسامها ، بل لأى دراسة أخرى) .

ثم لم يزد على بيان اختلاف معارف الانســان باختلاف ملكاته النفسية ، وقواه التى يتوصل بها الى تلك المعـــارف .. وعرف الأدب ووسائله ، وبالتاريخ الأدبى .. وبين عناصر الأدب من فكرة واحساس وخيال وعبارة ، وختم القول بالحديث الاجمالى عن فنون الشعر وفنون النثر ..

وأتم حديثه الى طلابه فى مذكرة أخرى ..

---

(١) انظر : أمين الخولى فى مناهج تجديده – ص ١٤٤ وما بعدها

جاء فيهـا أن الاداء الفني يعتمـد على الايجـاد والترتيب والتعبير) ثم عرف الأسلوب بانه الشخص نفسه ، وقسم الأسلوب الى ، علمى وأدبى وخطابى ، وبين خصائص كل ، وطبق ذلك على اساليب نفر من مشهورى كتاب العربية ، ثم عرض عرضا سريعا لبعض المراجع العربية ..

منهج تفكير الجاحظ

وفى مارس سنة ١٩٣٧ م اقامت كلية الآداب بالجامعة المصرية آنذاك ـ اسبوعا للجاحظ ، القى فيه الأستاذ الخولى بحثا عن (ميهيج تفكير الجاحظ) ، منتقدا الطريقة التى جرى بها ، داعيا الى :

(أن يسبق هذا التكريم نشر كتبه نشرا صحيحا ، واحيـاء مايمكن احياؤه منها) (١) ..

وبعد تعريف (منهج تفكير الرجل أو الجيل) بأنه (دستور حياتهما الفكرية ، يقرر أصول الحق ، وقواعد التعقل عندهما ، ومعيار النفى والاثبات ، والقبول والرفض)

ـ ذكر أن منهج تفكير الجـاحظ يقتضى (تبيين موقفـه من مسألة أساسية هامة : هى مسألة المعرفة) (٢) ..

ولقد تناول الجاحظ المعرفة فى كتب كثيرة لم تصلنا ، وفى القليل الذى بين أيدينا ما يفيد أنه لم يكن سوفسطائيا ، لأنه

---

(١) مناهج تجديد ـ ص ٣٦٤

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٣٩

(راح ينفى الشىء ويثبته ، ويحتج للشىء وضده) ، بل (كان يرى امكان المعرفة ، ووجود الحقائق ، فقد أنكر أن يكون طريقها الالهام ويبدو أن طريق المعرفة عنده الحواس والعقل ، على اتهام للحواس وتوثيق للعقل) .. ثم ان الجاحظ نشأ فى عصر تغلى فيه الحياة الدينية (من حيث المقالات الاسلامية والمناقشة بين اهلها . ومن حيث النشاط بين أصحاب الديانات المختلفة فى نشر دياناتهـــا والدعوة لها ، وتخطف ضعاف المســلمين واغرارهم فى جــد ، ومحاولات متنوعة ، حتى كان ما كان يشكو منه الجاحظ أن كل انسان من المسلمين كان يرى انـــه متكلم وأن ليس احــد احق بمحاجة الملحدين من أحد) ..

(ومن هنا يظهر تأثير المنهج الكلامى فى أدب الجــاحظ ، ويفهم هذا الطراز من الأدب الذى كان يتسلح به المتكلم اذ ذاك ونجد تفسير ظواهر كثيرة فى حياة الجاحظ وتأليفة ، فانه تأثرا بهذا المنهج يذكر لنا صنيع العربى فى أنه يعاف الشىء ويهجوبه غيره ، فان ابتلى به فخربه .... فانه ــ كما يقول الجاحظ ــ ليس شىء الا ولــه وجهان وطريقان ، فاذا مــدحوا ذكروا أحســن الوجهين ، و اذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين) (١) ..

وللجاحظ منهجه العقلى :

فقد اعتمد فى غير موضــوع على الرواية وهو يقدر حاجة الانسان الى رواية الآثار ... ويبين كيف كانت الرواية طريقــا للعلم .... ويرى ان الرواية يمكن أن تكسب اليقين ، وأن الخبر اذا صح اصله وكان للناس علة فى نشره كان فى الدلالة على الحق

(١) نفسه ــ ص ٣٤٦\٣٤٧

كالعيان .. ويفرق بين عدم امكان اتفاق الناس على الخبر الذى لا أصـــل له ، وامكان اتفاقهم على الرأى الخاطىء .. وانتبه مع هذا التقدير للرواية الى مواضع الضعف ، فقال : ان الكتاب احب اليه من الحفظ ، لأن الكتاب لا ينسى ، ولا يبدل كلاما بكلام .. كما تنبه الى أثر العصبية فى التزيد والكذب فى الرواية كما لاحظ أن الاســـتهتار بسماع الغريب ، والغرام بالطرائف والبدع ـ يغرى بجعل السمع هدفا لتوليد الكذابين ، والقلب قرارا لغرائب الغرور .. ولاحظ أنعوامل اشتهار الأخبار غير منضبطة ، فرب خبر كان فاشيا فدخل عليه من العلل ما منعه من الشهرة ، ورب خبر ضـــعيف الأصـــل واهن المخرج قد تهيأ له من الأسباب ما يوجب الشهرة وعاب الايمان بالرواية .. ونقد المرويات نقدا أدبيـــا ودينيا .. وقـــد ألم فى ذلك بقواعـــد لنقد الحديث ، تنم عن دقة واطلاع .. وكره تقليد المختلف عليـــه من الآثار ، دون التامل والاعتبار ـ.. ونقل عن استاذه نقد المفسرين وأن كثيرا منهم يقـــول بغير رواية ، ونقد هـــو المحدثين ، وصـــفهم بالحيـــد عن التفتيش ، والميـــل عن التنقير ، والانحراف عن الانصاف) (١) .

و (قد أعوزه كثيرا نقد مايروى ، ولاسيما حين يحتج) .. ولكن (حسبه فضلا أن تعد معايبه فى ذلك) ..

اما منهجه النظرى :

وقد اشتغل بالبحث العقلى النظرى فيما زاول من فلســـفة الهيئـــة وطبيعيـــة ، بل استعمل القيـــاس الاســـــتنباطى فى كل شىء ، حتى فيما عمد فيه أحيـــانا الى التجربة ،والمشـــاهدة

---

(١) مناهج تجديد ـ ص ٣٥٠/٣٥٣

الواقعية ـ فالعقل لايكفى عنده لتسيير العالم بدون شرع ،ولابد من الأنبياء والأئمة ... ويصرح بأنه يؤمن بأشياء كثيرة خارجة عن نسق المادة ، ومع هذا نراه يعلن ما يوجد من حسن أو لذة فى اشياء حرمها الدين ، كاطباق جميع الامم على شهوة أكل الخنزير واستطابة لحمه ، ولكنه ... يحد العقل بالشرع ..

وعلى هذا التقدير نلاحظ خطوات تفكيره النظرى فى ترتيب تدرجى .. فهو يرى التثبت ، ويتعوذ من انتحال ما لا يقوم به . ثم يشك ليثبت ، ويقول « فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له ، وتعليم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن لك الا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه .

ثم هو يستعمل الاستدلال القياسى ، مؤلفا من قضايا نظرية ، وله فى هذا ملاحظة قيمة فى تصحيح الأصل المقيس عليه والتثبت منه ..

لكن الجاحظ كان مطمئنا ـ على ما يظهر ـ الى الأسلوب الكلامى النظرى الذى يتناول الغيبيات ، ويخوض فى الالهيات ، معتمدا على القضايا العقلية المجردة ..

كان مطمئنا الى ذلك ـ أو على الأقل بالغ فى اعلان اطمئنانه ـ وفضله على المنهج الرياضى ، مع اتفاق المتقدمين والمتاخرين على أن الرياضيات هى العلوم اليقينيه) (١) ، ومناظرته يوحنا ابن ماسويه الطبيب على المائدة فى أكل السمك مع اللبن معروفة ..

---

(١) ص ٣٥٥/٣٥٩ مناهج تجديد .

ومنهجه العلمى :

يقوم على ان علم الدنيا أمران : أما شىء يلى الحواس واما شىء يلى علم الحواس ، وليس كذلك علم الدين .. لكنه يرى مع هذا أن العالم المصيب هو : الذى يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال .. وهذه المحاولة فى بيان الطبائع محاولة علمية باخص المعنى فى ذلك ، وهو فى بيانها يعتمد على المعاينة ، ويقول انه لايشبهه الا المعاينة ، وكل قول يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهبا ، وأدل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة .

ويذكر أن كتاب الحيوان جمع معرفة السماع وعلم التجربة وان فيه الغرائب التى صححتها التجربة وأبرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان ..

ومع هذا كله فما ذكر للجاحظ انما هو ضرب من الملاحظة والمشاهدة ينقصه التكرار والتثبت والتحقق كما ينقصه تدوين النتائج ، سعيا الى استنباط قانون عام ، وينقصه فوق ذلك عنصر جوهرى فى المنهج التجريبى العلمى ، هو : الملاحظة والغرض والتجربة ، مع فهم الواقع المادى العلمى بعيدا عن مؤثرات ماوراء المادة ، أو الاعتبارات المعنوية ، دينيه أو غيرها والجاحظ قد صارحنا بأنه انما يتناول هذا الدرس للاعتبار ببيان حكمة الخالق) (١) ..

علم النفس الأدبى .

.. (حين نلتمس تهذيب أصحاب الفن القولى ، واعدادهم للبراعة فى الأدب انما نحتاج فى ذلك الى جهد صادق فى امدادهم

---

(١) مناهج تجديد ص ٣٦٠ ـ ٣٦٣

بالمعرفة الكاملة للنفس البشرية ، وقواها وملكاتها ، لكى نحقق الصورة الصادقة المرجوة فى فهم الفن ، والرياضة على الفنون ، ولا سيما فننا القولى ، وهو الأدب) (١) .

قرر هـذا الاستاذ الخـولى فى بحث (علم النفس أدبى) الذى نشره فى مجلة علم النفس ـ يونيه سنة ١٩٤٢ م ـ مهدى (الى الذين يرفعون القواعد من المدرسة النفسية فى درس والادب وتاريخه) .

وقد تناول فيه جهوده ـ منذ أواخر سنة ١٩٢٨ ـ فى درس البلاغة والأدب ، راسما الخطوط الرئيسية لما ارتأى من جديد فى ذلك ، وبين (أن القرآن قد راعى قواعد نفسية عن مظاهر الاعتقاد ، ومسارب الانفعال ، ونواحى التأثير وجوانب الانعقاد وألم من هـذا بما أيد حجته ، وأظهر دعوته . وكأن مثل ذلك من الخبرة بشئون النفس الانسانية ، مما لم يهتد اليه العلم اذ ذاك ، فوق ان يهتدى اليه هذا الأمى البادىء) (٢) .

(فاللمحة النفسية فى المعنى القرآنى كانت تكون أحسم الأشياء لخلاف بعيد الغور ، كثير الشعب بين المفسرين .. اذ .. عندما يبين وجه نسج الآية ، وسر صياغتها . ويعرف بجو الآية وعالمها برفع المعنى الذى يفهم منها الى أفق باهر السناء كان لولا هذا اللحظ النفسى يرتد ضئيلا ساذجا) (٣) .

وقد أجمل الباحث ـ فى خطوتين ـ فكرته (فى علم النفس

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٣٢٥

(٢) نفسه ـ ص ٣٣١

(٣) مناهج تجديد ـ ص ٣٢٩.

الأدبي) التي دعا اليها أعواما ، وعمل لاقامة الدراسة الأدبية عليها في الجامعة وفي سواها :

١ ــ وصل الأديب بأدبه ، بحيث نفهم الأدب بشخصية صاحبه كما نفهم شخصية الأديب بآثاره الفنية .

٢ ــ وجوب نظرنا الى أدب الأديب جملة ، وعلى أن له وحدة متماسكة ، ليتم بعضه بعضا ، ويتهيأ لنا بتكامله فهم بعضه ببعض (١) .

رأى فى أبى العلاء :

وقد أشار في بحثه السابق الى آنه قدم مثلا في فهم فن أبي العلاء المعري فهما نفسيا ، قدر فيه صلة الأديب بفنه ، والفن بمبدعه في كتاب (رأى في أبي العلاء) (٢) الذى القى خلاصة رأيه فيه بمحاضرتين في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية (ابريل سنة ١٩٤٠) ، وأضاف في مقدمته الى المنهج السابق ضرورة (الانتفاع الدائم المتجدد بما عرف ويعرف في دوائر الدرس النفسي المجرب الدقيق لقوى الانسان وملكاته ومشاعره وغرائزه) (٣) .

وتساءل : (أفلا يكون أهدى لدرس (أبي العلاء) ان يقوم به احد أبناء بيئته ؟) .

وأجاب : أن نعم .. لكن هناك أشياء في هذا الدرس وفي الأديب المدروس ينبغي أن تقدرها ..

---

(١) مناهج تجديد ــ ص ٣٣٥

(٢) المصدر السابق ــ ص ٣٣٤

(٣) رأى في أبي العلاء ــ طبعة جماعة الكتاب سنة ١٩٤٥ ــ ص ١٢

فأما فى الدرس ، فانى انما حاولت فهم الكيـان النفسى لأبى العلاء ، وتبين سمات شخصيته الفنية قبل كل شىء ، وتركت ما وراء ذلك من بقية الدرس لأدبه لفظا ومعنى وموضـــوعا ، وفى ذلك يكون ابن بيئته أهدى منى وهو ، باق له ..

وأما فى المدروس ، فبعدما أغمض عينيه مبكرا عما حوله من ظواهر الوجود ، عكف على باطنه يستلهم مذخوره ومحفوظه ، فخفف نوعا ما أثر البيئة المادية عليه ، واعتمد على أقدار مشتركة من الميراث الأدبى للعربية ، وأخضع مشكلات الحياة والكون الكبرى لتأمل المتفنن ووجدانه ، وأشرف من ذلك على آفاق بعيدة تلاقى آفاق التفلسف والتدين ، والتصـــوف فى سـعتها ، فدنا بذلك كله من نفوس متفهمى الانسانية جميعا ، بل متذوقى أدب العربية) (١)

ومن أجل دراســـــته (قرأت كل ما أحسب أن قد رأى الشمس من آثار أبى العلاء ، نثرا أو نظيما ، كاملا أو منقوصا)(٢).

وكانت محاولة جديدة لفهم الكيان النفسى لأبى العلاء ، وادراك العوامل المؤثرة فى حياته ، وتوجيهها ، وتقدير شخصيته العامة ، على أساس من الواقع الجسمى والنفسى للرجل دون اسراف فى الفروض ، ولاذهاب فى الاعتبـارات الادعائيـة الى حـد بعيد) (٣) .

وقد عرض فى هذه (المحاولة) أراء الشيخ المتناقضة فى المعرفة والزهد وتحريم الحيـــوان وكراهة الحيـــاة والأسرة والمرأة

---

(١) رأى فى أبى العلاء ـ ص ١٤

(٢) رأى فى أبى العلاء ـ ص ٦

(٣) المصدر السابق ـ ص ١٦

والنسل والوحدة ، ليقرر أنه قد (تناقض فى كل شيء مما للناس فيه اعتقاد وقول يحترمونه ، أو ليس لهم فيه رأى يلتزمونه) ، ورد على قول الدكتور طه حسين (أنه كان تناقضا مقصودا من غير شك ، قد ذهب به مذهب اللبس والتعمية قصدا الى التقية ، وهى مذهب معروف – بقوله : (فكيف تكون التقية تعليلا لتناقض أبى العلاء ، فيما لا موضع فيه لتقية أبدا ؟ ! ثم أن التقية اخفاء ما يكره الناس ويغضبون من أجله ، أما حين يقول الرجل قولين متخالفين ، ويعلنهما على السواء ، ويجهر بهما معا ، فان الناس سيأخذونه بالقول السوء ولابد ، ولن يشفع له عندهم أنه قال قولا حسنا ، وبخاصة اذا كانت المسألة مسألة العامة والجماهير ، أو مسألة المتعصبين من الفقهاء المرتزقين بفقههم/(١)

ويتناول بالبيان والتفصيل مفهوم الفلسفة ، وحدود المعرفة عند الدينيين والفلاسفة ، وحظ أبى العلاء منها ، ليخلص الى أنه لم يكن فيلسوفا .

ليكن أبو العلاء رجلا ملما بالأبحاث الفلسفية والمذاهب، وليكن قد ضمن شعره هذه المذاهب والأبحاث ، أو شيئا منها ، أو ليكن أبو العلاء حكيما ، كأولئك الحكماء الذين عرفهم العرب فى الجاهلية ،

ورأوا فى أشعارهم ثمار تجارب ، وخلاصة فكر ، وجمل حقائق عملية .

ليكن أبو العلا شيئا من ذلك أو ما يشبهه ، أما أن يكون فيلسوفا ، يتخذ البحث والتفكير العقلى عملا له ، ويعتمد فى

---

(١) نفسه – ص ٩٢/٩٣

ذلك على مقدرة منطقية عقلية فما اظن ، وما اظن .. فليس على المنطق العقلي تعرض أقواله ، ويحكم بتناقضها ، ويلتمس لها التعليل ..

انما أبو العلاء رجل وجداني ، أديب ، متفنن أو واعظ وخطيب أحيانا كما سترى) (١) .

ثم ناقش تعليل (ابن سلفة) تناقض أبي العلاء بأنه (كان لا يستقر به قرار ، ولا يبقى على قانون واحد ، بل يجري مع القافية اذا حصلت ، كما تجيء لا كما يجب) - ذاكرا أن (صاحبنا ليس بالذي تغلبه القافية أو تضيق به ، وهو الذي التزم مالا يلزم ، ونظم الآلاف من الأبيات ، لم يتجل فيها ضيق النفس ، ولا قلق القافية) (٢) .

ورفض تعليل الجاحظ بأن الأدباء (يكرهون أن يضيعوا بابا من اظهار الظرف وفضل الشأن وهم عليه قادرون) ، بأن (هذه العادات الأدبية التي يتمسح بها الأدباء في أشياء غير ما وجه صاحبنا اليه فنه من مشكلات ومعتقدات لها حريتها ، ولها أهميتها) (٣) .

كما رفض التعليل بنزعة الخطابة والوعظ عنده ، والتعليل بالقول في المحاسن والأضداد ، منتهيا الى أن (السر في تناقض أو تغاير آراء أبي العلاء نفسي محض ، يرجع الى أمرين في نفسه ، أو الى ظاهرتين فيه : أولاهما : الرغبة المتوثبة في الاستعلاء على ضعفه والقهر لواقعه ، وهو ما ساد دوري حياته على السواء

---

(١) رأي في أبي العلاء ص ١٢٤

(٢) المصدر السابق - ص ١٢٥\١٢٦

(٣) نفسه - ص ١٢٨\١٣١

قبل الثلاثين وبعدها ــ وثانيهما :دقة هذه النفس الشاعرة فى ادراك عوالمها المختلفة ، وخوالجها المتغايرة ..

ثم يؤازر هذين العاملين انقطاع أبى العلاء لتدوين خواطره وفراغه لذلك ، وتوافره عليه) (١) .

وأبو العلاء (فيما عرف وصح نقله عن أسلوب حياته ... بعد تجربته طوال الدهر الأول من حياته أيام الشباب والأمل كان (الصبر عنده أروح من تكلف الطلب ، لأنه يستطيع حمل نفسه عليه ، حين يعز عليه سبيل الطلب ووسائله) (٢) ، فزهده لم يكن رهينة ، وانما (هو حال من القناعة) ، كما أن عدم اعتزاله ليس (لاحتياجه الى من يقرأ له ويكتب عنه) ــ كما يقول الدكتور طه حسين ، لأن الحاجة الى من يكتب أو الى من يقرأ ، لايترتب عليها أن يشتغل ابو العلاء بالتعليم ، ثم يكثر سواد طلابه حوله ، ثم يزوره الناس ، ويكتبون اليه ، فتستحيل عزلته الى أشد أنواع المعاشرة .. لكن غلب من نفسه ما بقى فيها من الفطرة الاجتماعية ، فلم يتهيأ له الاعتزال ، فعلم وألف ، ولقى الزوار ، وتلقى الكتب ، وهذه البقية الفطرية التى لم يتيسر له التغلب عليها هى التى ظل حتى آخر عمره يعترف بدفعها له ، وتأثيرها عليه ، اعترافا دقيقا شجاعا ، صريحا) (٣) .

ولا يفسر موقفه من المراة والنسل (بالنفور من الناس ، لأنه خالط ، كما لا أحسبه يفسر بالفقر وقلة المورد ، لأن هذا الرزق الثابت كان يكفى أبا العلاء وخادمه ، فكان يكفيه مع زوج

---

(١) نفسه ص ١٥٦

(٢) رأى فى أبى العلاء ص ١٦١

(٣) المصدر السابق ــ ص ١٦٤/١٦٥

مكان خادم .. وهبها الحاجة وضيق ذات اليد ، فهل تقوى الحاجة على منازعة نفسه فلا يحاول الاتصال بالمرأة أبدا ، حتى فى عصر نشاطه واستعلائه على ضعفه وجده فى سبيل النجاح ، حينما كان يطمع ويطمح ؟) ثم ان (للمرأة مكانها فى فن صاحبنا ، مهما يكن القول الشائع عن رأيه فى الزواج والنسل .. ولو اطمأننت الى أثر الشعور النفسى فى قوله ، لوجدت فى غزله ووصفه مثل الذى تجده فى ذمه لهن ، وفقده ، اياهن من الدلالة على الشعور بهن ، بل على الاتجاه اليهن ، ولذلك مثل غير قليلة ، حتى فى حديثه عن التسبيح والتمجيد حين يطلب أو يغـرى بالأجـر عليه) (١) .

(ان أبا العلاء فيما أرجح ـ قد منعه الزواج والنسل مانع جنس غير الفلسفة والزهد، ولهذا المانع أثره الخطير فى نفسية الرجل ، كما كان لآفته المادية أثرها ، دارسو النفس الانسـانية خلقاء أن يزيدونا فهما لأثر هذا المانع فى نفس الرجل) (٢) ..

فى الأدب المصرى

وفى سـنة ١٩٤٣ صدرت الطبعة الأولى من أمالى الأستاذ الخولى فى الأدب ـ المصرى ، مهداة (الى الشاعرين بأنفسهم) ، مصدرة بمقدمة تلميذه (الدكتور) عبد الحميد يونس ، لأنـه (اذا ما كانت المقـدمة تحليلا لكتاب ، وعرضا لفكرة ، فمن أحـق بكتابتها ممن كتب من أجله الكتاب ، والقيت الفكرة ؟ !)

وهذه الأمالى قسمان : قسم عن الأدب المصرى ، وقسم عن كيف ندرس الأدب المصرى ..

---

(١) رأى فى أبى العلاء ص ١٦٧\١٦٨ .
(٢) المصدر السابق ـ ص ١٧٨

(كلما قلبت الرأى ، وجدت جميع الاعتبارات النفسية والوطنية والفنية ، تقضى بتوافر العناية بهذا ، بل تؤذن بافراده وقصر الهمة عليه ، دون غيره ، الا ما يكون من ذلك وسيلة الى فهم هذا الأدب وتمثله ، أو ما يكون توسعا فى الدرس ، ورفاهية فيه ، بعد مالا بد للدارس منه) (١)

لكنه لم يتناول الأدب المصرى تاريخا وتوصيفا ، بل تناوله من حيث (قضية العلم فى تاريخ الأدب .. قضية العلم التجريبى التى يقررها واثقا ، حينما يتحدث عن علاقة الكائن ببيئته ، وأثر تلك البيئة بنوعيها ، من طبيعية واجتماعية ، فى الحى الذى يعيش فيها ويختص بها .. يقررها هذا العلم التجريبى واثقا حينما يرصد الفوارق الفاصلة بين البيئات ، ويدرك أن مصر تميزت من ذلك بميزات واضحة الفصل ، قوية التأثير فى التحديد والتمييز ، من بحار وصحار ، وبمقومات خاصة جعلت هذه البلاد وحدة مادية بارزة المعالم ، جلية الخصائص ، ماثلة الفوارق) (٢) .

ولطبيعة الباحث الجدلية أورد آراء مفكرى الاقليمية سياسيا ودينيا وأدبيا ، وفند هذه الآراء ليدعم ماذهب اليه ثم انتقل الى وصف المنهج الذى يجب ان تخضع له دراسة الأدب .

بين الأدب المصرى والفن المصرى

ونشر فى مجلة كلية الآداب ــ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ــ مقالا تحت عنوان (بين الأدب المصرى والفن المصرى) يرد فيه على ما جاء فى بحث نشره الدكتور زكى محمد حسن عن (وحدة الفن فى عصور

---

(١) فى الادب المصرى ــ ١١
(٢) الأدب المصرى ــ ١٧

التاريخ المصرى) جاء فيه (أن الفن فى عصور التاريخ المصرى ليس وحـدة تطورت تطورا طبيعيا ، وانمـا هو طرز مستقلة آ بعضها عن بعض) ٠

وقد قدم الأستاذ الخولى بين يدى مقاله :

١ ـ آن الفن مادام فى حقيقته ليس الا نشـاطا وجدانيا ، فهو شـديد التأثر ببيئته ، حتى ليستحيل عليـه أن يتخلص من تأثيرها الذى يقرره العلم ويبينه ٠

٢ ـ ان الفن القولى انما هو جـانب من جوانب الحياة الفنيـة العامة للجماعة أو الفرد .. فهو يجرى فى حياته وتدرجه على ما تجرى عليه تلك الحياة الفنية على اختلاف صنوفها ومن هنا يرتبط تاريخ الأدب بتاريخ ماعداه من سائر الفنون بصرية أو سمعية ٠

ثم رد على ماذهب اليه الدكتور زكى محمد حسن (بان ظـروفا طبيعيـة أو سـياسية أو اقتصـادية قد تطرأ على حيـاة الفن أو غيره من الكائنات ، فتهزها هزا عنيفا ، وتدخل عليها صنوفا من التغيير الأساسى ، وتبدو كأنها قطعت صلته بماضـيه وقديمه ، لكن الدارس الدقيق لا يسلم مطلقا بهذا الانقطاع أو هذا السير غير المتسق لتطور الكائن ، مهما يشـتد خفاء سـير هذا التطور ، وتظهر المفارقة الكبيرة بين القـديم والحـديث ، لأن الباحث واثق ثقة تامة أن هذا الحديث ليس الا وليـد القـديم والعوامل الجديد ، ونتاجه للأصلين معا لا يمكنه أن ينقطع عنهما وان اختلف نصيبه من كل واحد منهمـا ، أو بدا قربه تمـاما لأحدهما وبعده الشديد جدا عن الآخر) ..

وروى الدكتـور أن (أعلام الاختصاصيين يقولون بأن الفن القبطى لم يستمد عناصره من الفن المصرى القديم ، وانما أخذها

جميعا عن الفنون الهيللنستية ، وسائر الفنون المسيحية فى اقليم البحر الابيض المتوسط) ..

فبين الأستاذ الخولى (أن الأستاذ المحترم يشتغل بالزخرفيات ، وانما تلك الزخرفيات تطبيقات فنية لا فنون أصيلة وضرب مثلا بالشيخ الذى تحول الى (خواجة) ، ثم قال : بالنظر الأول يبدو أن الرجل قد تحول تحولا مفاجئا لا يتصل فيه حاضره بماضيه أبدا ... (لكن وحدة المزاج الفنى ثابتة متسقة فى الشيخ الخواجة ، على أنها : اما أن تكون قد بقيت لم تتغير ، فظل ذوقه اللونى ودلالة اختياره لألوان التزيين واحدة ، مع اختلاف الموضوعين اختلافا جليا ، واما أن يكون مزاجه الفنى قد تطور بهذا الانتقال تطورا بعيدا أو قريبا ، فعدل عدولا تاما عما كان يتذوقه أولا ، فيكون هذا التقابل والتنافر مظهرا من مظاهر التطور الكبير ، لكنه تطور طبيعى ، ومتسق على كل حال ، وان كان التطور المزاجى للرجل قريبا بدت الصلة بشىء من التمعن . وفى كل الحالات يظل التعبير المزاجى متصلا فيه القديم الأول بالجديد الأخير صلة تقابل وانتقال كبير ، أو صلة تدرج وانتقال بطىء أو صلة تدرج وانتقال وسط ، وهو فى الأحوال كلها تطور طبيعى السير يمكن ضبط مؤثراته القوية أو الضعيفة أو المتوسطة ، وفى كل واحدة توجد الأسباب الطبيعية الفعالة لجعل التطور يتجه أحد هذه الاتجاهات) ...

وفرق الدكتور بين الآدب المصرى والفن المصرى ، فقال : (وقد يستطيع الذين يعنون بدراسة الأدب المصرى فى عصوره المختلفة أن يجدوا الصلات الوثيقه بين الآثار الأدبية فى مختلف عصور التاريخ المصرى ، وقد يلمسون أثر البيئة المصرية فى كثير من تلك الآثار ، على الرغم من اختلاف لغاتها وعصورها ، ولكن المشتغلين بدراسة الفنون لايستطيعون الوصول الى مثل هذه

النتائج) فرد الأستاذ الخولى : (نلتزم القول بأن المؤثرات العامة فى الحياة الفنية من بيئة وغيرها تؤثر فى الأدب أثرها الخاص ، كما تفعل المؤثرات المناسبة للفنون الأخرى فعلها فيها ، فالانفعال بالبيئة ، وتسلسل التطور فى طريق طبيعى متسق ، من الظواهر التى يخضع لها الأدب والفنون جميعا ، ولا يفترق فيها الأدب عن غيره ، ولن تتزعزع الثقة بتلك الأصول للمنهج الفنى) ..

نقد الأستاذ ساطع الحصرى

وقد تعرض كتاب كثيرون لرأى الأستاذ الخولى فى الاقليمية معارضين باسم العروبة والاسلام ، كما أشار فى كتابه ، ولكن الأستاذ ساطع المصرى - أبا القومية ، كما يقولون - تناول آراء الأستاذ الخولى بشىء من التفصيل فى كتابه (آراء وأحاديث فى اللغة والأدب) (١) ، فأشار الى أن بوادر هذه النظرية وردت فى كتاب (مقدمة فى بلاغة العرب) للمرحوم أحمد ضيف ، حيث قال فى مستهل هذه المقدمة ما نصه (انها ليست آداب أمة واحدة وليست لها صفه واحدة) بل هى (آداب امم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات) .

وقد تولى الأستاذ امين الخولى تنمية هذه البذرة وتقوية هذه النظرة ، وبذل فى هذه السبيل جهودا كبيرة طوال مدة تدريسه فى كلية الآداب (٢) .

ثم اشار الأستاذ الحصرى الى ما جاء فى محاضرة الأستاذ الخولى (مصر فى تاريخ البلاغة) سنة ١٩٣٤ ، من أن الأمة

---

(١) طبع دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٥٨ ط ١

(٢) آراء وأحاديث ص ١٣/١٤

الاسلامية المترامية الأطراف ان (كونت جسما قامت منه العاصمة في الشام طورا ، وفى العراق تارة ، مقام القلب من الجسم ، وكانت مجمع النشاط ومحور الحياة .,. فان لسائر أجزاء هذا الجسم عملها فى هذه الحياة ، ومشاركتها فى ذلك النشاط) و (ان هذه الأمة الاسلامية فى حقيقة الأمر ليست الا خليطا غير تام التجانس ، خليطا لم يصبر طويلا على التوحد المركزى ، حتى فى السياسة) ·· ورد بأن : (عدم التمييز بين تاريخ الاسلام بوجه عام وتاريخ العرب بوجه خاص ــ لهو من (المزالق الفكرية) التى تورط فيها ــ ولايزال يتورط فيها كثيرون من الكتاب والمفكرين فى مختلف الأقطار العربية (١) ·· ان كل ما قاله الأستاذ الخولى فى هذا الصدد ــ فى الفقرة التى نقلتها آنفا ــ اذا برهن على شىء ، فانما يبرهن على عدم وجود (أدب اسلامى) عام ، ولكنى لا أعرف بأن أحدا قال بوجود مثل هذا (الأدب ، كما أنى لاأجد أى مساغ منطقى لاتخاذ هذه القضية دليلا على (اقليمية الأدب العربى) (٢) ·

ويرد على ماجاء فى قول الأستاذ الخولى من (اختلاف الأقاليم فى المقالات الاعتقادية والآراء الاسلامية) بقوله : هل خضعت حقيقة الآراء الاعتقادية والمذاهب الفقهية الى العوامل الاقليمية ؟ وهل توزعت فعلا توزعا اقليميا ؟ ان نظرة واحدة الى تاريخ المذاهب تضطرنا الى الرد على هذا السؤال بالنفى البات ، فان الآراء والمذاهب الاعتقادية والفقهية تغايرت وتنوعت كثيرا ، الا انها لم تخضع لعوامل اقليمية ، بل خضعت لسلسلة من العوامل الاجتهادية والاجتماعية والسياسية والتاريخية ... ولذلك انتشر كل مذهب الى أقاليم عديدة ، كما ان كل اقليم صار مسرحا لتنازع مذاهب مختلفة ...

---

(١) المصدر السابق ص ١٥/١٦

(٢) نفسه ــ ص ١٨

والأستاذ آمين الخولى يطلب من دارسىالفنون الأدبية وتاريخها أن يقتدوا بدارسى الحياة الاسلامية الفكرية) فيدرسوا الأدب العربى اقليما بعد اقليم ، لا عصرا بعد عصر ، ولكنه يغفل عن أن باحثى تاريخ المذاهب لم يدرسوها اقليما بعد اقليم ، بل درسوها نوعا بعد نوع ، وعصراً بعد عصر (١) .

أما عن قول الأستاذ الخولى : (نحن نرى أن العلم يقرر أثر البيئة فعالا عنيفا ، ينازع الوراثة أثرها ، فكيف يريد علماء تاريخ الأدب أن ينسوا أو يهملوا تأثير البيئة ؟) فان الأستاذ الحصرى يقول : شهادة العلم فى هذا الصدد ـ عندما تفهم على حقيقتها ـ لا تؤيد نظرية (الاقليمية فى الأدب العربى)
علىعلى حقيقتها ـ لا تؤيد نظرية (الاقليمية فى الأدب العربى)
بوجه من الوجوه .... لأن مفهوم البيئة ـ فى نظر علم الاجتماع ـ من المفاهيم المعضلة التى تتألف من عناصر كثيرة جدا ، ومتنوعة تنوعا هائلا .. فان هناك البيئة المادية (البيئة المعنوية) .... والبيئة المادية تشمل الخصائص الجغرافية والمناظر الطبيعية والأحوال المناخية ، وبتعبير أقصر : كل ما يتعلق بالطبيعة المادية ... وأما البيئة المعنوية فتشمل الأحوال الاجتماعية ـ السياسية والعلمية والأدبية والأخلاقية ـ وكل ذلك فى حدود الأسرة والحارة والقرية والمدينة والقطر والنقابة والحزب والمدرسة .. الى آخر ما هنالك من بيئات غير مادية .. وهذه الأمور كلها لا تختلف من قطر الى قطر فحسب بل تختلف من مدينة الى مدينة ، وحتى من أسرة الى أسرة فى المدينة الواحدة فيلاحظ الباحث كثيرا من أوجه الشبه بين بعض البيئات القائمة فى أقاليم متباعدة ، وبعكس ذلك يشاهد كثيرا من الاختلافات بين بعض البيئات الواقعة فى اقليم واحد ، بل فى مدينة واحدة .. ومن الأمور التى تحتاج الى برهان ، أن

---

(١) نفسه ص ١٩/٢٠

آثار الأدباء السالفين والمعاصرين تؤلف جزءا هاما جدا من (البيئة المعنوية) التي تؤثر في الانتاج الأدبي تأثيرا كبيرا (١) ٠

ومن الحقائق التي يجب الا تغرب عن البال ، أن الأدب العربي حافظ على صفته (الموحدة والموحدة) حتى في أسوأ عصور تفكك الدول العربية ، وتفتت شعوبها ٠٠ وحتى في خلال العهود التي ما كان يتيسر فيها الاتصال بين البلاد العربية الا على ظهور البغال والحمير ، وعلى متن الزوارق والسفن الشراعية ٠٠ والتي ما كان يتم انتقال الآثار الأدبية خلالها الا عن طريق الأخذ بالمشافهة والحفظ في الأذهان ، والاستنساخ باليد ـ فهل من المعقول أن يفقد الأدب العربي هذه الوحدة العريقة في هذا العصر الذي توافرت خلاله وسائل الاتصال بالبواخر والقطارات والسيارات والطيارات ، والذي صارت تنتشر فيه الآثار الأدبية بسهولة وسرعة هائلة عن طريق الطباعة والصحافة والاذاعة ؟ (٢)

وبعد ٠٠ فما أحسب الأستاذ الحصري الا واجدا (في الأدب المصري) ما يفيد أن الأستاذ الخولي لا يريد الا تأصيلا منهجيا للدراسة الأدبية ، بعيدا كل البعد عن مفهوم التمزق أو التوحد السياسي .. ثم ان مفهوم البيئة ماديا ومعنويا حدده الأستاذ الخولي تحديدا واضحا فيه ، بحيث لايبعد عما ذهب اليه الاستاذ الحصري ، اذا أخذ نفسه بالمفهوم الجغرافي والطبيعي أولا والاختلاف في الظواهر الأدبية حقيقة ماثلة امام من ينظر اليوم في الأدب المصري واللبناني والمغربي ٠٠

---

(١) آراء وأحاديث ـ ص ٢٢/٢٠

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٢٤

ولا ادرى سببا لعدم الرجوع الى كتاب (فى الأدب المصرى) مع ورود نقد الأستاذ الحصرى متأخرا جدا .. ولكن الجو الذى صدرت فيه آراء الأستاذ الخولى كان ينوء تحت انفعالات سياسية بالغة العنف ، مما صرف الكثيرين عن تفهم المنهج العلمى الذى دعا اليه للدراسة الأدبية ، فخلط هؤلاء بين دعوة الأستاذ الخولى المنهجية وبين قول الدكتور طه حسين : (ان الفرعونية متصلة فى نفوس المصريين ، وانهـــا ســتبقى كذلك ، بـــل يجب أن تبقى وتقوى) (١) . (ان المصرى مصرى قبـــل كل شيء ، فهـــو لـــم يتنازل عن مصريته مهما تغلبت الظروف) (٢) .

(ان الأكثرية الســـاحقة من المصريين لا تمت بصلة الى الدم العربى ، بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء) ..

(تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ اى بلـــد آخر (٣) .

.. وظن الظن بكل دعوة تعكس ظلا خاصا ، وان كانت فى حقيقتها دعوة الى ترك (المصرية تعرف نفسها حق المعرفة ، لتعرف كيف تتصل بغيرها ، ولتتبين أساس هذا الاتصال ، ولتقـــدر نواحى قوته) (٤) .

و (ان الذى ينكر مصرية مصر تكذبه أهرامها ، وما اليها من ســـواطع ماضيها ، والذى ينكر عروبة مصر ، يكذبه لسانهـــا ، وتنادى على خطئه مآذنها) .

---

(١) آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية لساطع الحصرى ط ٢ سنة ١٩٥٤ ص ٩٦\٩٧

(٢) المصدر السابق – ص ١٠٠/١٠١

(٣) فى الأدب المصرى – ص ٣٧

(٤) المصدر نفسه – ص ١٣٤

والدكتور الأهوانى

وقد تعرض الدكتور عبد العزيز الأهوانى لموضوع الاقليمية فى محاضرة له – فى ذكرى الأستاذ الخولى سنة ١٩٦٨ بنادى القصة – فقال :

الى أى حد تصلح الاقليمية لدراسة الأدب العربى ، وتفسير الانتاج على ضوء البيئة ؟

ان افتراض شخصية متميزة لاقليم لا يخلو من خيال .. وهل يمكن أن يكون عنصر واحد سببا لتفسير الانتاج الأدبى ؟

رأى (تين) أن الادب يدرس على هدى البيئة والعصر والجنس ، مفترضا أن الانسان ينتج الأدب كما تنتج الدودة الحرير .

ورأى المؤرخون ان (تين) أهل الشخصية الفردية ..

اذن فالبيئة من عوامل متعددة ينبغى أن توضع فى الحساب ..

والبيئة العربية لم تكن من التفاوت بحيث تصبغ الأدب بصبغة متميزة ، كما هو الحال فى العمارة الاسلامية المختلفة عن العمارة القوطية) (١) .

ومع أن الأستاذ الخولى لم يقل بتأثير البيئة وحدها – وهو صاحب المنهج النفسى فى الدراسة الأدبية ، وصاحب (رأى فى أبى العلاء) وترجمة محررة لمالك بن أنس – فانه ضرب مثالين واضحين (ص ٣٣ فى الأدب المصرى) على أثر البيئة ، بالبريطانيين فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة ، والسوريين فى بلادهم

---

(١) نص عبارة الدكتور الأهوانى ، والمحاضرة لم تكن مكتوبة .

ومهاجرهم .. وقال بأنماط موحدة وأصــول عامة كبرى للحضارة الاسلامية لا ينبغى أن (تصرفنا عن أدراك الزائد الخاص الذى تفردت به كل بيئة تفردا ، ليس هينا ولا يسيرا ، فى حساب البحث الدقيق والنظر المتمعن) (١) .

فالأستاذ الخولى يضع قواعد بحث علمية ، ولاتهمه النتائج حتى ولو جاءت على غير ما كان يتوقع ، لأنه (يبحث عن شىء يريده أو يفضله ، ولكنما يبحث عن شىء يصححه ويصدقه) (٢) ..

أما ما قاله الدكتور الأهوانى عن (الشخصية الآزليــة .. وأن التطور الاجتماعى يشكل من هذه الشخصـــنية صورة تخالف الصورة السابقة ، وبخاصـــة آن هذا التطور انتقل من بيئة رعوية الى بيئة زراعية صناعية ، مما يجعل موضوع الشخصية الثابتة شخصية مهتزة) .. فان الأستاذ الخولى لم يقل بالثبات ، وهو الباحث فى تطور دلالات الالفاظ ، وانما يرى (أن العلم الذى يرتقب الوراثة البعيدة بعد الأجيال الطويلة ، ويرصـــد آثارها فى الفرد منحدرة اليه من أجداد بيه وبينهم عقود السنين المتباعـــدة ، والعهود المتمادية) ـ قادر على تتبع الأساطير والتقاليد والعادات والشعائر والمثل والقيم والأمزجة والميول وغير ذلك من ظواهر البيئة المعنوية ..

أما أن (الانسان لم يعد مغلوبا للطبيعة ، بل هو غالب لها .. وان البيئة لها دورها ، ولكنها ليست صـــاحبة الدور الحـــاسم ، بل لابد من مراعاة عوامل أخـــرى كالصراع بين البداوة والحضارة واستبحار العمران ، كما يذكر ابن خلدون ، وقيام المدن الضخمة ، ودخول الثقافات الأجنبية) ـ فالأستاذ الخولى لم يعارض فى

---

(١) فى الأدب المصرى ـ ص ١٢٨

(٢) المصدر نفسه ـ ص ٧٢

شيء من ذلك ، بل قال بأثر (التحــرر الاجتماعي والاتصال بالغربيين واقتباس صور الحضارة الأوربية في الحياة اليومية) في رسم الصور القلمية ، منذ تصدى للدراسة الأدبية فى الجامعة وقال عن البيئة المادية والمعنوية وأثرها على كل من عبد الحميد الكاتب والجاحظ والهمذانى فى محاضراته الأولى ٠٠ ثم اتسعت أبحاثه وعمقت عن المؤثرات النفسية والبيئية لأهداف منهجية ٠

مالك بن أنس ٠٠ ترجمة محررة (١)

(الى الذين يقدرون تبعات القلم وما يسطرون) ٠٠

بهذا الغمز الدال أهدى الأستاذ الخولى (ترجمته المحررة) متخذا أسلوب الفارس المقتدر ٠

(أبرأتها من آفات التراجم عند القدماء والمحدثين) فقد (كان أصحاب الدرس الأدبى — حين تسعفهم طاقتهم العقلية ، وتمدهم ثقافتهم العلمية — هم الأقدرين على كتابة هـذه التراجم ، والتناول الصحيح الدقيق لها) ٠٠

(ان من كتاب التراجم عندنا من آخلوا بجوهره — التاريخ — اخلالا منع تراجم كتبوها من أن تاريخا خليقا بهذا الاسم ، حين يطمع الفن فى أن يعد نفسه عملا ذا حرمة ، بين أعمال العصر ٠٠ وهذا الذى رنوت اليه وافتقدته ، وطمعت — فى غير غرور — أن يكون عملى فى هذه الترجمة المحررة ، سـعيا الى تحقيقه ، انما هو صـــدى لمنهج عقلى ونقلى ، وفنى وأدبى ، وينبغى أن يلتزم فى الترجمة ، حتى تكون ترجمـة محـررة حقا ٠٠ ومن هجيراى المسيطرة أن أضـع الكتاب مثـالا للمنهج ، وأصلا فيه ، بعد ان

---

(١) دار الكتب الحديثة ط ١ سنة ١٩٥١ ٠

حرر القول في المنهج تحريرا لا بأس ـ ان شاء الله ـ في ان اعتده العمل كل العمل في جيلنا هذا ، فمتى ما يستمر ويثبت ، يكن له ما بعده ، من اشادة واجادة) ..

وأسس هذه الترجمة المنهجية : (الجمع المستقصى لمواد الموضوع .. ثم النقد الفاحص لها .. يعقبه التفسير المبين لمرامى هذه المرويات ، الكاشف عن دلالتها .. فاذا تبين ذلك ، كان العرض المعبر عنه ، في صورة مجلوة وضيئة) (١) .

وكان الأستاذ الخولي ـ وقد وضع بين يديه هذه الاسس واتخذ طابعه العلمي ـ قد راجع نفسه ، وهدهد من دلاله ، فقال :(وعلى رغم ذلك كله لا أزعم أني قد نجوت من أثر الوراثة العتيدة ، وجو البيئة المحيطة ، فلم أفسر بعض المرويات تفسيرا مستهوى ، أو مخدوعا ، فان يكن شيء من ذلك قد كان ، فأنا على اهبة الاصلاح له في أول فرصة مواتية) (٢) ..

وختم مقدمته المستعلية بنفس الروح السمحة الطيبة التي الفناها :

(هذه الترجمة محاولة راجية لتأصيل منهج سديد) (٣)

وليس عذر الأستاذ الخولي في هذا الاستعلاء أن طالت لفقته لصاحبه : (حتى جاوزت العشر السنوات ، ان نسيته بعض الوقت ذكرته جل الوقت : اقرآ عنه ، وأفهم له ، واتعرف عليه (٤)

---

(١) مقدمة مالك بن أنس ص د ط .

(٢) ص ق

(٣) مقدمة مالك بن انس ـ ص د

(٤) المصدر السابق ٢٣٣/٢٣٤

بل عذره فى صدور هذا الكتاب عقب أزمة (الفن القصصى فى القرآن الكريم) ، التى كشـفت عن أفلام معادية كثر ، ولبعضها فى ميدان الترجمة أشواط ..

ولم يقف الأمر بين الطرفين ـ حول الترجمـة ـ عند حـد التعريض من بعيـد ، بل كان صـداما ذا قروح ، كمـا سيأتى ان شاء الله .. لذلك سنلتقى خلال الصفحات الثمانمائة ، فى اكثر من موضع ـ بهذه الدالة القادرة المعتزة بامكانياتها سواء فى عرض الروايات وفحصها ، أو فى عرض آراء الأقدمين والمحدثين ووزنها أو فى تنـاول بعـض الموضــــوعات تناولا تكامليا ، كالحديث عن البيئة مادية ومعنوية ، بلغ مائة صـــفحة ، والحديث عن الرواية والفقه والرأى ..

وقد قسم كتابه ثلاثة أقسام :

الجزء الأول : عن حياة مالك الاولى ، عن تكوينــه ، وتأثير البيئة فيه ماديا ومعنويا (استمعنا فيه بانصات يقظ للمرويات عن حياته فى ذلك العهد ، فنقدنا منها ما وجب نقده ، وأقررنا ما غلب على الظن حقه) ..

والجزء الثانى : كان عن مالك الانسان ، فى بيته وأسرته .. حياته المادية ، وعاداته وأخلاقه ، وصلته الاجتماعية والسياسية بقومه ، والمحنة التى تعرض لها وآثارها ..

والجزء الثالث : عن مالك العالم : منهج تفكيره ، وتحديثه : رواية ودراية وتصنيفا ، وفقهه ،وتقديره فى الفقه قديما وحديثا ثم عن قدراته اللسانية والقلمية والتعليميـــة والكلاميـة ، وعن شخصيته العملية ..

ومن خلال هذا كله تحدث عن الوراثة وآثرها ، وعلل لظهـور الفرق الدينية وقدم صورة احصائية لانتشـــار المقالات فى الأقطار الاسلامية وشجب تقســيم التاريخ الاســلامى أدبيا أو تشريعيا أو ثقافيا الى عصور ، ثم تحدث عن واجبات المترجم وأهمية آثار العالم والفنى بين مصادر ترجمته ثم رسم لنا الطريق الى درس (الكتاب)، متخذا (الموطأ) مثالا .

(ان حياة الكتاب موضع لدرس مفصل ، عن تلقيه ، وتدوينه ومن فعل ذلك ؟ وعن شرحـه ، أو التعقيب والنقـد والتتبـع ، أو الاختصار والتقريب .. وما اليها) ..بعد الكلام عن زمن صدوره (بين مادون من امثاله ، وعن تسميته ومضيئها ، ودلالتها ، وما يتصل بذلك من دراسة لنشأة الكتاب وظهوره) .. وبعد الدرس التاريخى ، فيه المجال الواسع للدرس الموضوعى ، قديما وحديثا كدراسة فقهه ، وأصـــوله ، وحديثه موضوعيا ، من وجهـــة نظر المالكية ، أو من الوجهة الجامعة ، فى حياة الفقة والعلوم الشرعية العامة والمقارنة .. وكالذى توجبه الدراسة الحديثة المتعمقة ، من تحقيق نصه ، وتاريخ نسخه ، حتى نظفر منه بنسخة تمثل أدق صورة ، له خرج بها من يد الامام ، وكدراسته درسا موضوعيا مستجيبا للحاجة العلمية الجديدة فى النقـــد والفحص والتعمق . وكل أولئك وما اليه مما تقوم به أجيال مختلفة ، لو أريد درس (الموطأ) درسا تاريخيا أو شرعيا فقهيا صحيحا) (١) ..

---

(١) مالك بن انس - ص ٥٥١

مالك .. تجارب حياة (١)

وبعد صدور كتـــاب (مالك بن أنس) جرت معـــركة أدبية بين الأستاذين الخولى والعقاد ، امتدادا لما كان حـول (الفن القصصى فى القرآن الكريم) .. وصدر كتاب (مالك ... تجارب حياة) يحمل طابع هذه المعركة ، بـل كأن الأستاذ الخولى لم يعن بتقديمه الى القراء الا ليكون ردا على الاستاذ العقاد الذى قسا فى عراكه مع (الأمينة الأولى) فالكتاب ليس الا صورا ميسرة من الكتاب السابق (مالك بن آنس) ، أو هو صـــورة أخـرى . خلت من الروايات ومناقشتها ، الا اليسير .

وقد جاءت المقدمة التى تقارب الأربعين صفحة نقدا لطريقة العقاد فى كتابة (العبقريات) ..

(يزعم زاعم ، تبريرا أو تقصيرا ، ألا حاجة به ــ فى ترجمة يكتبها ــ الى تتبع الأخبار كافة ، والاعتماد على المراجع عامة ، لأنه فيما يقال ــ يجد مفتاح الشخصية فى شيء بذاته ، فلا يعنيه بعد ذلك أن تكون أفعال معينة قد صدرت عن صاحب تلك الشخصية بعد معرفة الأصل الذى يصدر به مثلها عنه ، فلا حاجة به اذن الى جمع أو تتبع ، على الوجه المتزمت المتحرج ، الذى يشير اليه ما تذكر من استقصاء .

لكن فى الأمر خطأة قلبت أوله آخره ، وآخره أوله ، وذلك أن أحدا لايعرف مفتاح شخصية ما الا بعد أن يعاشرها ، ويحيط بعاداتها ، واساليبها ، وميولها ، وليس الى ذلك سبيل ما فيمن غبر ومضى ، الا عن طريق التاريخ والخبر ، ولا تكون عشرة ، ولا معرفة يحل لصاحبها أن يفتح الشــخصية ، ويقتحم الطوية ، الا

(١) أعلام العرب ــ نوفمبر سنة ١٩٦٢

بعد احاطة أوسع وأعمق من احاطة العشير الحى بتصرفات عشيره الذى يغدو أمامه ويروح ، فتغنى الرؤية ، والخبرة والفطنة ، فى ادراك تصرفاته ، وتبين أغراضـــه ، عن الكثير المكرر منهـا ، لأن بعضها يدل على بعض) (١) .

و (ليس من التاريخ ولا من العلم أن تتناول الترجمة دفاعا عن المترجم له ، وردا نهجوم الهاجمين عليه ، ولا تقديرا لعظمته ، التى هى كذا وكيت ، فى الدنيا ولدى الانسانية .. وليس من ذلك فى شىء أن تسمى عبقريات : محمد ، وفلان من أصحابه وفلان ، ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة ، فاذا اسم الكتاب (فلان فى الميزان) . وانما الأمر ان الكل جميعا فى الميزان ، مهما تكن الظروف والأسباب فى الماضى أو الحاضر .. فالكل ليسوا الا بشرا . والكل يفهـم ثم يحكم عليـه ، ولا شىء فى الدنيـــا ، من عقيدة ، أو تلقين ، أو محبـة ، تحل الحكم أولا . ثم الفهم ثانيا ، فى كتابة الترجمة التاريخيـــة الاخيرة بأســباب العلم) (٢) ..

.. (ومن الموضوعية العلمية فى تلك الترجمة التاريخية أن يتميز ادراك المترجـــم له ، بعصره ، وبيئته وذوقه ، وعاداته ، عن شخصية كاتب الترجمة ، وحال قومه ، ومنطق عصره ، واتجاه رغباته ، فلا يحكم على شىء من حال المترجم مقيسا بميله ، ولا معتبرا بمثله ، ولا يسقط من نفسه على مشخصات المترجم له ما يريده مما يعجب الكاتب ، ولا يقومه بما يرضيه هو) ..

(١) مالك تجارب حياة ــ ص ١٢/١١

(٢) مالك ــ تجارب حياة ــ ص ١٥

ثم ... انتقل الى بيان الترجمة الأدبية ، فقال :

(لقد قيل ان التاريخ يدون صنع السلف ، واما القصة الادبية فتدون ما يجب صنعه على الخلف ، وهى عبارة تشير الى أن القصة الادبية حين تعمد الى التاريخ لتختار منه موضوعها انما تعمد الى موضع العبرة ونتيجة الخبرة التى أدتها الحادثة التاريخية ، وانتهت اليها تجربتها ، دون أن تقف عند أخبار الحادث الجزئية ، تجمعها ، أو تنقدها ، أو تفسرها ..

.. بعض هذه الترجمة الأدبية قد يكون صورة قلمية كاملة لانصفيه ، ولا وجهية ، ولا جانبية ، وتكون ملامح تلك الصورة ، واجزاؤها ، مما حدده وميزه شعور الكاتب نفسه ، خيالا أو واقعا لأن للكاتب ميلا خاصا ، وشعورا بعينه ، نحو صاحب الترجمة ، فهو يترجم الشخص كما تصوره ، أو كما تمثله أو كما يراه هذا الكاتب ، وتكون تلك الصورة مهما تكمل أجزاؤها صورة للمترجم له ، فى نفس الذى صوره ـ ولا عليه أن يكون التاريخ قد تصوره هكذا ، أو تصوره غير ذلك تماما ـ وهذه الصورة الأدبية لشخص تاريخى ، كما يجده صاحب الصورة ، انما هى تعبير عن شعور صاحب هذا القلم نحو من صوره ، أو ترجم له ، سواء أكان شعور الرضا والاعجاب أم شعور الكراهية والسخط ، ولا رقيب على مثل هذه الصورة للتاريخ والماضى الا الاعتبارات الاجتماعية من سوء وقع هذه الصورة أو حسنه ، على أخلاف هذا الشخص المترجم له ، وعلى الجماعة البشرية ، فيما تتطلع اليه من مستقبل مقيس على ذلك الماضى) (١) .

---

(١) مالك ـ تجارب حياة ـ ص ٢٥/٢٧

لكن ... هل تقال الكلمة الأخيره فى التاريخ حتى حين يكون عصريا يكتبه معاصرون

.. (مادام التاريخ جمعا مستقصيا ، والاستقصاء التام لايقف عند حد ولاينتهى بزمن ، بل لاتزال هناك الفرص المواتية للعثور على روايات تاريخية ووثائق ، وشواهد ، سواء فى قديم التاريخ الذى لم نقم بالبحث الواجب عنه أم فى حديث التاريخ الذى لم تجمع له وثائق عندنا على وجه يعفى من المسئولية ، فبذلك يظل الباب مفتوحا على مصراعيه ، لتدخل منه الى ميدان البحث مواد جديدة من أخبار التاريخ ومصادره .

ثم يكون بعد ذلك النقد ، وهو متأثر بجديد ما يظهر ، من وسائل الدقة والتحرى ، والفحص العقلى والعلمى لمرويات التاريخ ومواده ، وجميع المعارف البشرية النظرية والعلمية وسائل فى ذلك ، تقديم المتجدد من أسباب الدقة والتحرى ، ثم هذا النقد متأثر أوضح التأثير بجدية ما يضاف من أخبار تاريخية مما أشرنا الى عدم تطلعنا الى شىء منه .

فاذا ما كانت خطة التفسير النفسى والاجتماعى ، فكل ذلك متأثر أقوى التأثر بكل ما تعرف الانسانية كل يوم ، من حال هذه الدنيا المادى والعقلى ، ولا تدرى نفس ماذا يكون غدا من علم الانسان بنفسه ، كلما زاد توغله فى أنحاء الكون ، فجاز الفضاء ، وأمن طريقه فيه ، وعبر الى الكواكب ، وعاش بها و .. و ... مما لا يقف عند غاية .. وقبل هذا البعيد قريب من الدرس النفسى والاجتماعى الدقيق ، نوعا ما ، لرجال تاريخنا المعروفين ، ولمجتمعات أسلافنا وما كان يضبط سيرها ، من سنن الحياة ، فاذا ما أضيف الى القديم ــ وهو كالمجهول تماما لدينا ــ جديد من خبر هؤلاء الأفراد والجماعات ، فقد تهيأت أسس التفسير للتطور والتحول المستمر الدائم) (١) .

---

(١) مالك ــ تجراب حياة ــ ص ٣٢\٣٤

ثم عنى بالتجارب الحية من حياة (مالك) .. وهى الهدف الأول من تأليف كتابه ..

وبعده شـــغل الأســـتاذ الخولى نفسه ببحث تاريخى أدبى ، اشترك به فى مؤتمر المستشرقين الدولى المنعقد فى موسكو ، ألقاه يوم ١٠/٨/١٩٦٠ تحت عنوان :

من روح التاريخ .. صلات بين النيل والفولجا ..

وقال المستشرق بلاييف فى مقدمة الترجمة الروســية لهذا البحث : (أول مؤرخ عربى يتناول موضـــوع العلاقات التاريخية بين النيل والفولجا) ..

.. وكان من دواعى هذا البحث : **الايمان بوحدة أصل هذه** البشرية ، وحدة لا يصـــح معهـــا تداعى بعض الناس فى مختلف الأعصر ، بأفضلية وتميز ، يصل الى هذا القدر من التفريق المحتكم الذى ترتب من أجله الشعوب مراتب ودرجات !! (١)

والايمان بوحدة المصير الانسانى

فان شعورا وجدانيا يكبر هذه الغاية ، ويهفو اليها ، ويشعر بأن الحيـاة لو لم تكن متجهة اليهـا ، كمـا تتداعى بها ، ولم تكن ضحاياها الكثيرة قرابين لقداسة تلك الفكرة ، عن السلام العام ، والمصير الموحد ، لكانت تلك البشرية تدمر نفسها ، وتنتحر بأقبح وسيلة للانتحار وأبشعها ، فيما تحتمله من الآم لا يمكن أن يتقدم لاحتمالها كائن رشيد لغير غاية (٢) .

---

(١) مقدمة صلات بين النيل والفولجا ط دار المعرفة سنة ١٩٦٤ ـ ص٠م

(٢) المصدر السابق ـ ص٠ن

العمل لتدعيم المنهج التاريخى :

فمع هذا التقدم اليوم لم تعد تلك الدراسات تقنع بالنظرة العابرة ، واللمحة القاصرة ·· بل راحت تقرر أثر البيئة بمادياتها والبيئة المعنوية بمؤثراتها — ومن بين المؤثرات الطبيعية ثم المعنوية — الهجرات البشرية ، كتلك — التى نقلت لمصر — بحكم موقعها — ما نقلت من — موجات الوافدين الآدمية ، التى كونت — كما يقول أصحاب — العلم — طبقات رسوبية فى كيان هذه الأرض وساكنيها (١) ·

هذا الى أن : من وسائل التعارف الصحيح معرفة ماضى الصلات ، وسالف الروابط بين الأمم ، ولاسيما حينما يكون النظر الى ذلك الماضى نظرا واسع الأفق ، يستبين الحقائق الكبرى والتيارات العليا التى توجه الحياة ، وتحدد المستقبل ، ويكون مع ذلك النظر الواسع الأفق ترفع سمح ، يستنكف ان يتأثر بأى تعصب مهما يكن مرده ، من جنس — ·· أو عقيدة ·· أو عاطفة ، ثم يكون مع ذلك النظر الواسع ، والترفع النزيه ، اجلال للحقيقة وتقديس ، فلا تسخرها لمنفعة ، ولا نستبدل بها عرضا ، ولا ننخدع عنها بوهم ، ولو كان ذلك الوهم ملكا عريضا ، أو سلطانا كبيرا (٢) ·

·· وبعد بيان لموقف مصر والشام من قوتى الصليبين والمغول ·

وبعد بيان أهمية هذه الفترة — مجال البحث — عرف

---

(١) نفسه — ص·س

(٢) نفسه — ص ٣/٢

الأستاذ الخولى بمنطقتى النيل والفولجا ، وذكر أن الروابط بين المنطقتين تتمثل فى :

(ان علم الأجنـاس لا يرفض أن يعـد التتر والترك والمغول دما واحدا ، وهو الدم الذى تسرب منـه الى مصر ما تسربه فى عروق المماليك البحرية الذين يقول قائلهم ، وهو أحد سلاطينهم ، ما عبارته : نحن والتتر من جنس واحـد لا يتخلى بعضـه عن بعض) (١) ..

... (من صـحراء قبجق ، ومن هـذا الدم ، كانت كثرة تمثل جيش مصر ، وتحكم فيها ، ويتيسر لبعضهم أن يقيم أسرة حاكمة ، يظل الحكم يتوارث فيها بين نسله أكثر من مائة عام (٢)

ويستطرد فى بيان هذه القرابة بالاكثار من المماليك والجوارى والاختـلاط بالمصـاهرة والجوار ، حتى (أن هـؤلاء المماليـك القفجاقيين منهم قد كونوا طبقة دم ، فى كيان الشعب الذى يسكن مصر) (٣)

وقد تبودلت البعثات الدبلوماسية بين القاهرة وسراى — عاصمة مملكة القفجاق تتر الشمال — فبلغ عددهانحو خمسين بعثة ، فى نحو قرنين من الزمان ، أو أزيد قليلا .

وأهم ما سعت به تلك البعثات ، مكاتبة ومشافهة ، هو ما يشـكل حلفا عسكريا بين النيل والفولجا ، سـاعد على دحـر الصليبيين والتتار الشرقيين ..

---

(١) صلات بين النيل والفولجا ص ١٧

(٢) المصدر السابق — ص ٢٥

(٣) نفسه — ص ٢٧

وقد حملت هذه البعثات هدايا من التحف والطرائف المادية أو الدينية الاعتقادية ، أو الثقافية العامية ، مما يكن مادة البحث فى نواحى الصلات المختلفة بين الاقليمين) (١) ٠

والمصاهرة الملكية ــ قديما وحديثا ــ مما عرف أثره فى تقوية الروابط بين العروش وتوجيه سياسة الدول ، ولم تخل هــذه الصلة بين النيل والفولجا من الانتفاع بهــذه الصلة وتأثرت العلاقة بالمصاهرة ايجابا وسلبا (٢) ٠

وكان التجار دبلوماسيين ورسلا سياسيين ٠٠ وكان التجار ايضا جواسيس ورجال مخابرات ، وحينا رجال دسائس ومؤامرات٠٠ وكان التجار ثروة متنقلة لحكام بلادهم، تعنيهم سلامتهم وأمنهم ، ويدخلون فى مشكلات دولية بسببهم (٣) ٠

ومع ترادف الاتصال بين الجانبين ، يقوى الشعور فى الشمال بالأهمية الدينية والسياسية للنيل ، أثرا لوجود الخلافة فيه ، وحكم الحرمين ، وما يتصل بهذا الجو ، ويسند هذه كلها المركز السياسى القومى لمصر فى العالم القديم كله (٤) ٠

وكان تبادل فى الأطعمة والأشربة واللباس والسكن ، وشاع حب الجنس ، مما قوى الروابط الاجتماعية بين المماليك والمصريين ثم كان تبادل ثقافى ٠٠ وان كان المماليك قد تعصبوا للغتهم ، لدرجــة أن منهم من كان يعرف العربية ، ويرفض أن يتكلم بهــا وقد أثر هــذا فيمن أرادوا التقرب الى الحكام فعرفوا لغتهــم (٥)

---

(١) نفسه ــ ص ٢٨/٢٩

(٢) نفسه ص ٢٩

(٣) نفسه ــ ص ٣٤

(٤) صلات بين النيل والفولجا ــ ص ٤٤

(٥) المصدر السابق ص ٧٠

وقد أثار وجود المماليك النظر فى مقاييس الجمال ، لما تمتع به هؤلاء المماليك نساء وصبية ـ من معالم جمالية باهرة (١)) ٠

(هذه خطوط كبرى للصلات بين النبل والفولجا ، فى سبيل الدرس الفنى الصحيح والهدى الاجتماعى الكريم) (٢) ، ذيلها الأستاذ الخولى بملحق عن البعثات الدبلوماسية بين سراى والقاهرة وآخر عن المصاهرة السياسية بينهما ٠٠ (٣) ٠

---

(١) نفسه ـ ص ٧٤

(٢) نفسه ـ ص ٧٨

(٣) لم أتناول معركة الفن القصصى فى القرآن فى نشاطه الأدبى ، اذ افردتها ببحث خاص ٠

مواطن يتكلم

ان هذا الرجل الذى اتسعت به ميادين البحث العلمى في مصر وخارج مصر ـ ظل دهره يفلح الأرض ، ويعمق جذوره فى تربتها ويغسل ـ بعرقه وجه الحياة فيها ، فشغلته مشكلات بلاده ، دقيقها وجليلها ، وأهمته هموم مصر ، صغيرها وكبيرها ، .. ومن ثم لم تخطئه مواطن الداء فيها ، ووسائل العلاج لها ..

حين وقفت مصر تذود عن حماها سنة ١٩١٩ م ، وتضحى بخيرة شبابها فى سبيل استقلالها ،تقدم الصفوف مناضلا ، وشرع قلمه مقاتلا :

(ان حلاوتنا فى القول والفعل سئمنا طعمها ، وتجرعنا الألم الممض من عواقبهـــا ، فما أحوجنا الى ملوحة تصلح النفس ومرارة تقوم ما فسد من المزاج) (١) .

---

(١) السفير ـ عدد ٢٠ فبراير سنة ١٩١٩ .

ورأى أن الوجود الاجنبى أصاب بلادنا بتمزق نفسى واسع المدى ، فرزخ الكثيرون واستسلموا لضغوطه السياسية والثقافية وما نقل اليهم من مرذول عاداته وتقاليده ، فالتـوت الأشـداق وغصت الحلوق ، واصيب الكثيرون بنزلات فكرية حادة حتى (طغت على هذا البلد عجمه وجحود ، جرفت أصول الشرقية فى دينها ولغتها فسادت الاستهانة بهذه الأمور وما يتصل بها وملأ الرءوس غرور لاندرى ماذا تكون عاقبته ، بعد ما نرى ، الا ان تصبح أمة بلا دين ، ولا شعار ، ولا قومية ، لا لون لها و لاقوام ، ولا وجود ، ولا كيان) (١) .

ونادى بأن يتطلع أبناء هذه الأمة الى ما ضيهم ، ليستروحوا ريح المجد ويستشرفوا شرف الكفاح ، ويتخذوا من تاريخ بطولاتهم سبيلا الى غد أعز وأكرم :

(هل يحرك ذلك اريحية خلفاء الأمجاد ، فينهضوا لبناء مجد عملى واستقلال قوى ، وحرية صحيحة اللهم فاستجب)(٢)

وحين سـافر الى أوربا وواجه الشرق الغرب عـلى أرض صلبة ، لم يضعف ، ولم يستخز ، ولم يعلن ولاءه ، كمـا فعـل الكثيرون ، وكتب يدافع عن تاريخ مصر (التى آمنت بالخلود ، وجاهدت فى كشف أسراره ، واحتالت له ، قد صار الخلود شعارها

(١) القضاء الشرعى ـ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ هـ .
(٢) المقتطف ـ ديسمبر سنة ١٩٢٣ م .

للانسان الا ما سعى » .. وأما العزة ففى ايمان تلك العظمة تأبى أن تلتمس النجح برذيلة ، أو خبيث من السبيل ، مصممة أن مقاليد الأمر ليست بيد أحد من البشر ، فتذل له أو تتملقه ، ويشغلها من ذلك السافل النازل أو التافه العاطل ، عندها ابدا أن لا اله الا الله وأن الله اكبر ! ..

وفى العدد الثانى ـ ذو القعدة سنة ١٣٥٢ هـ ـ قدم لنا (صاحب الفضيلة العالم البحاثة) (١) سعيد بن المسيب ، مثلا لهذه العظمة ، عظمة عالم (لقبه معاصروه عالم العلماء ولكنه لم يعش بالعلم ، فشرما يكون العلم حين يصير مرتزقا) ـ فى مواجهة حاكم (لم يتورع عن واسطة فى سبيل غايته .. حارب وقسا ، ونكث واغتال ، وضرى ضراوة الملك المستوحش) ..

وفى العدد الرابع ـ المحرم سنة ١٣٥٣ ـ كتب الافتتاحية ، مناجيا الهلال بأسلوب أدبى أنيق ، ولم يخرج على ما اعتاد الكتاب أن يفعلوا ، من اعتبار بالماضى ، استشراف للمستقبل ..

وقــــدم فى نفس العــدد (يحيى بن يعمر العــدوانى) الذى (صدع بالحق فى وجه ظالم ، كان البغض نادرة دهره) ..

سأله الحجــاج الثقفى و (أرخص ما عنــده الأرواح) : واسمعتنى ألحن ؟ فقال له : نعم فى حرف احد .

فيقول الحجاج دهشا ـ وهو المشهــود له بالفصــاحة ، المباهى بها ، فى أى ؟! فيقول يحيى : فى القرآن !! تحد بالغ الجرأة من (أديب مبرز ، ثبت الجنان ، قوى الايمان) ..

(بنى الحجاج مدينــة واســط ، وبوده أن تكون عروس الدنيا ،

---

(١) الألقاب للمجلة .

وبهجة المدائن وهو من اعجابه بها يسأل الناس ما عليها ؟ والناس يرونها جحيم الحياة وأبشع السجون ، مادام هو صاحبها ، ولكن ليس فيهم من يقوى على شفاء نفسه بكلمة ..

وما كان يحيى بحيث يتردد ، أو يقلب الرأى مثل تقليبنا الساعة له ، فقد سئل ماعيبها ؟ فأجاب بروح من الله ، مسارعا الى الحق ـ يقول للحجاج ، للحجاج نفسه : بنيتها من غير مالك ، وسيسكنها غير ولدك) ...

★★★

منشور ثورى لا ريب فيه ، يلحق بمنشور آخر ـ عدد ربيع الاول لسنة ١٣٥٣ هـ ـ جاء فيه (أن مولد محمد لم يكن خروج جنين الى الدنيا ، ولا انفراج امرأة عن طفل فحسب ، بل كان خروج انسانية من قبر ، ونجاتها من عنت وعناد ، وانفراجا لضائقة من الاستبعاد والذل والاسفاف ، وان لهذه الذكرى لما يوائم فضلها ، ويلاقى عظمتها ، ويضارع جلالتها فى الاحياء) .

★★★

ويفتتح العام الثانى للايمان ـ المحرم سنة ١٣٥٤ هـ ـ بحملة قاسية على مجتمع ذل فهان والتبست عليه القيم ، فضاع وغره الغرور .. فى لهجة (أفغانية) عالية الرنين .

(محرم وأخزى الحرام ، أن يكون لأعداء دينكم ودنياكم كل ما أكنت أرضكم وحوت بلادكم وأورثكم أجدادكم ، يطئون منكم الهام ، ويركلونكم بالأقدام ، وأنتم غارون غافلون ، بل أموات لاتبعثون ، كساؤكم من سؤالهم ، وما عونكم من عطائهم ، وغذاؤكم من فضلاتهم ، وكسبكم من بقية ماتخموا به وعافوه .. حتى ضرب الذل على أبناء من انبعثوا بالأمس ليحرروا الناس

ويمنحوا الكرامة ، ويهيئوا للانسانية نعمة الخلاص من عبادة الأفراد ، وسيادة الآحاد ..

محرم .. ومحرم .. ومحرم ، أن تضج الدنيـــا حولكم ، ويأتمـــر النـــاس بكم ، وأنـــم ترون وتســـمعون فلا تفقهـــون ولا تعقلون) ....

وفى العدد الثانى ـ صفر سنة ١٣٥٤ هـ ـ يتحدث الى (الهيابين طريق الكرامة ومن يئودهم الاباء ويعز عليهم الترفع) ، الذين يرون صعوبة التمثل بما يقيم من مثل عليا فى العظمة النفسية بأنه (مهما تكن قد عبثت بكم أعاصير الحياة ، فلن نيأس من أن لكم نفوسا ، وأن لكم عقولا ، وأن فى صدوركم مصدر قوة ومعين همة لو رجعتم اليه لأنقذكم وأسعفكم وأمدكم بشمم وكبرياء) ..

★★★

ثم وعد بأن يتم حديثه فى عدد قادم ، ولم يفعل ، لأن ادارة المجلة خضعت لمن لا يأنس اليهم ، ولا يجد سبيله معهم ....

مع السياسة الاسبوعية :

وحين نشر الأستاذ توفيق الحكيم فى العدد ٢٤٠ من مجلة الرسالة ـ ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ـ تحت عنوان (من برجنـــا العاجى) ...

(التجارب هى احدى وسائل (العـلم) ، ولعل ســـاعة (التجربة)هى أمتع لحظات (العالم) ..

خطر لى مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة ، أن أضع امراة فاتنة بين اخوانى الأدباء الأفاضـــل : العقاد وطه والمـــازنى وأحمد أمين والزيات والبشرى ، ثم أنظر بعد ذلك مايكون .. انى على ثقة

انهم لن يناموا ليلتهم قبل ان يسيطر كل منهم على الورق اشياء قد تكون من أجمل ما كتبوا).. ..

كتب (الأستاذ الكبير أمين الخولى الى تلميذه الأستاذ سيد نوفل) العدد ٦٨ من السياسة الأسبوعية ــ ١٩٣٨/٢/١٩ تحت عنوان (أدب العصر) :

.. (المعادلة التى اقدر بها المعلم الموفق والتلميذ الناجح .. أن التلميذ اليوم = أستاذه + فرق الزمن بينهما ..

.. انى على هذا التقدير اجد عندك من علم (الفرق بين الزمنين ، مابه أسألك أن تحدثنى عما لا أفهم من زمنكم ، وتعلمنى من امره مالا أعلم) ..

.. (لقد كان فى العرب جوار كالشموس ، لأنه كان فيهم كماة شوس وكان فيهم زهاد رءوس ، يهزون العروش ، ويذلون التيجان ، ويرمون الطغاة برءوسهم مجتمعين اذا لم يشف منهم القول ولم يكف مادون الموت من فعل .. بهذا كانت تتعادل الحياة وتعز الدولة ويجهد الناس ، فيغنيهم بعد الكد وقبل الموت فن له رقته وفيه عذوبته .

أما أنتم فقد كثرت شموسكم ، وفاضت أنواركم حين ماتت شوسكم ، وذلت رءوسكم ، وبقى لكم شهداء الوحى المستقطر من الشفاة .. فهلا يفعل الله بكم خيرا ياصديقى لو أسكت كل متكلم فى الأدب عشرين حجة أو أكثر ، حتى يتكلم فيكم أحد بغيره وحتى يكون فيكم رجال يغنون ويمتعون ؟) ...

★★★

وتتابعت أقلام الأستاذ سيد نوفل وعبد الحفيظ ابو السعود ومحمد حاج حسين تؤيد ما ذهب اليه الأستاذ الخولى .. لكن

الأستاذ توفيق الحكيم لم يبال بما أثير حوله ، فكتب موضحا ـ الرسالة ١٩٣٨/٤/٢٥ :

(ان نفس الاديب العارية كل ماينبغى له ان يضعه تحت انظارنا ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقا بأديب ، فالأديب هو الآدمى الوحيد الذى خلق لكى يفتح لنا نفسه ، لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة ويتحدث لنا عن نفسه ، فنرى من خلال حديثه كل تجارب الانسانية الشاعرة) ..

وكأن الحكيم لم يقرأ ماكتب الخولى ، أو كأنه لم يدر بخاطره أن ما عيب عليه ان يجرى تجاربه على الشموس والاقمار ، هكذا فى رائعة النهار ومع سبق الاصرار .

لذلك لم يعاود الأستاذ الخولى الكرة ، بل فتح ثغرة أخرى هاجم منها دار العلوم وتفتيش اللغة العربية فى مقال (الجيش واللغة .. مفتش ومفتشان) السياسة اليومية ٣ مايو سنة ١٩٣٨ ، والسبب أن صحيفة الاهرام نشرت خبرين فى نهر واحد أحدهما عن (مناورة جوية) والثانى عن (اصلاح دار العلوم) .

ويبدو أن الأستاذ الخولى لم يتناول (الحدث) من حيث حاجة الميدانين الى التفتيش بل أثاره ضد (اصلاح دار العلوم) كونه ينادى بتوحيد الدور التى تعلم العربية ـ الآداب ودار العلوم واللغة العربية بالأزهر ـ فقد عاد الى هذا الموضوع حين بدأ يكتب :

هتافات .. بالبلاغ عام ١٩٣٩ :

وقد جاء فى مقاله الأول (ايها الشباب تقديم) ـ ١٧ فبراير سنة ١٩٣٩ :

(ان تعدد هذه المعاهد لتعليم العربية فى مصر التى هذا حالها عبث أن يقضى عليه توا ، ونحن فى المعاهد الثلاثة متضامنون فى

هذا المطلب ، مصممون على القضاء لتفتح أبواب اخرى للعمل تقوم بمرافق مصر الناهضة ، ويجد الشباب جده متضامنا مضحيا لا متخاذلا متقاتلا) .. فى الوقت الذى تنوء مصر بمشكلاتها (الضعف الصحي المستحكم، وما تنخر الأمراض المتوطنة وغير المتوطنة من أسس الحياة المصرية .. جهل شائع يجعل الأمين كثرة مصر المطلقة وسوادها الأعظم .. التدهور الاقتصادى الذى يعطل مرافق الحياة فيها .. جعل الموجود من مرافق البلد فى يد الأجنبى ، وتسربت كثرة العقار فى المدن الى يد الأجنبى ، والأراضى الزراعية على الطريق لا تدركها تسويات عقارية ، ولا تنقذها اسعافات حكومية .. اختلال التوازن الاجتماعى فى كل شيء : فى مستوى المعيشة ، وتوزيع الأرزاق فى تنظيم التعليم ، فى توزيع القضاء ، فى خلق الوظائف ، فى اعداد السكان ، فى الاستعانة بالأجانب وفى ، وفى .. تدهور خلقى حال بين مصر وبين كل ما هو خير المدنية وحياة أوربا وأظفرها من ذلك بكل مفسد متلف) ..

وتحت عنوان (أيها الشباب .. آمن بالوطن واكفر بالسياسة) عدد ٢٧ فبراير ـ سنة ١٩٣٩ ـ قال :

(كان الشباب سنة ١٩١٩ ـ يهتف اذ الهتاف ثورة فى وجه الحكم العسكرى والقوة العسكرية ، أو يتظاهر اذ التظاهر تمرد وعصيان ، يقمع بالحديد والنار ، وباهول من ذلك .. كان يدرك أن لابد للحياة من عمل جاد ، وتأسيس قوى ، فدعم مع مظاهراته ومقاوماته بنك مصر ، تدعيما للوجود الاقتصادى .. وأما وحق الوطن ، لقد التقت تبرعات الاسلحة بأثمان أسهم بنك مصر واختلطت هذه بتلك) .. و (دار الفلك دورته ، وقطع الزمن أشواطا ، ومضى الشباب ـ سنة ١٩٣٩ ـ يشتغل بالسياسة ، فماذا كان ؟ .. كانت مظاهرات لا لمواجهة الحكم العسكرى ،

بل للتهانى ، والتبريكات ، والتحية والتأييد ، لا تواجه عدوا ، بل تواجه الدواوين ، وتزف الحكام وترقص المدللين) . .

★ ★ ★

وفى مقال (أيها الشباب .. حرم الزينة على نفسك ! ـ عدد ٣/٦ سنة ١٩٣٩ ـ عالج (القصة) بأسلوب هو مزيج من الفصحى والعامية الموحية ، صور فيها بؤس الفلاح ، واسراف الساسة المتكلمين باسم الفلاح (بلا مذهب فى الحياة خاص ، ولا خطة فى العمل ، ولا هدف كريم لمستقبل الوطن ، ولا تجارب معينة لاسعاده) . .

وينصح الشباب بألا يقدم شيئا على اعداد نفسه وتكونه العلمى ، الا أن تكون الكرامة الوطنية مهددة ، فلا يصغى الى تجار السياسة ولا يفكر فى الحياة الاجتماعية المصرية من الناحية التى تمسها دراسته وتكوينه . . .

وختم (هتافاته) بدعوة الشباب الى تقديس الوحدة الاجتماعية ـ عدد ٣/١٣ سنة ١٩٣٩ :

(لا تجتمع هنا ، وتتخذ الشعارات ، وتؤلف الجماعات ، وتتبع الأحزاب فى المدن ، بل هناك ، فاجمع صفوفك على المصطبة ، وفى المضيفة ، أو الدوار ، وفى الجرن ، أو حول الساقية ، أو على الترعة ، فى المسجد ، أو فى كتاب القرية ، تتألف هيئات الشباب العامل لاحياء الموتى من آبائه وأقاربه .. هناك فبحوا أصواتكم ، وأتعبوا سواعدكم ، وتصببوا عرقا واعدوا مسرعين ، لا فى الهتاف ، وتوطئة الأكتاف ، وفقدان الكرامة واهدار الشخصية) (٥٢٥)

جماعة حياة القرية :

وظل ايمان الأستاذ الخولى بإصلاح القرية يقوى ، وأخذ فكره يعمل فى سبيل هذا الاصلاح ، حتى أصبح (الريف عند صاحبى هو مصر كلها .. ان تكن فيها مشكلة فلا مشكلة اسبق من مشكلات الريف وان يكن فيها اصلاح فلا اصلاح أوجب من اصلاح الريف ، وان يكن فيها خير فلا خير اوفر من خير الريف ، بل ان يكن فيها صناعة فلا صناعة اثبت مما يعتمد على الريف ، وأن يكن فيها فن ، فلا فن أصدق من فن الذين يحسون الريف . وان .. وان .. الى مدى بعيد) (١) .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى ، حتى تشكلت (جماعة حياة القرية بشوشاى) حوالى عام ١٩٤٥ ، ومن ابنائها المثقفين حيث كانوا ، وفى أى مراحل الثقافة ، منذ سن التمييز ، وانضم اليهم مجربو الحياة ، من ذوى الثقافة المختبرة الدنيا ، ولم يسعفها فك الخط .. وشارك فى ذلك من يتولى فى (شوشاى) عملا ذا صبغة ثقافية ، ومصلحة اجتماعية .. وعملت لتدنى اليها البعيدين من أبنائها الذين لهم فيها عمل فنقل اليها من تقل من معلمى الالزام ، وقرب منها من قرب من معلمى الابتدائى ، واتصل بها قدر الاستطاعة ذوو العمل البعيد فى القاهرة أو غيرها ..

فكانت هذه الجماعة فى شوشاى » فرعا أو فروعا من شجرتها ، وهى التى تهزها وتحركها بحكم صلتها بها ، وتجاوبها التام معها ، ومعرفتها موضع المها .. فهى رغم كل شىء ، ورغم انها

---

(١) ذكريات وآلام من الريف ـ الأدب ـ اكتوبر عام ١٩٥٨ .

مسجلة فى وزارةالشئون التىفتشتهـا ، وأن هـذه الوزارة لم تساعدها بقرش واحد طوال حياتها هذه .. رغم ذلك وغيره — تمضى ثابتة الخطوات مستبشرة عاملة ، تكسو وتؤكل .. وتصلح وتحكم .. وتعالج وتدفن .. وتقرض وتساعد بمجهود غير صغير .

(فجماعة حياة القرية هى الهيئة التى أراها ، ولعلك تراها معى هى الفرع الذى يهز شجرة القرية ، وهى الهيئة التى يمكنها أن تحدث فى حياة الريف أثرا فعـالا بعيدا عن الديوانيات والاجراءات والشكليات ، لكن على شرط أن تبعد هذه الجماعة نفسها عن السياسات والحزبيات والانتخابات .. وعلى شرط ان تترفع عن الخصومات والخلافات .. (١)

وفى ميدان التروية والتجربة ، لحياة القرية (كانت مشروعات لسد باب الربح أو الطب الوقائى ،رتبت الأمور حسب أهميتهـا السياسية ، فجعلتها على هذا النسق :

رافع مستوى الدخل لهؤلاء الأهلين ،

اصلاح المكن ،

كفاية التغذية ،

تيسير الكساء .

ثم يلى ذلك وينبنى عليه ، الاصلاح المعنوى للعقول والأخلاق والنفوس ..

ويذكر الأستاذ الخولى من مشروعات (حياة القرية) التعاون

---

(١) جريدة المصرى ١٤/١٩٥٣ .

الزراعى بين أشخاص متعاونين متجاورين وبذلت جهود للاقناع به

واحياء صناعة النسيج ، ولها أساس فى القرية يمكن به جمع نساجيها وأخذهم تدريجيا باستعمال الأنوال الجديدة، ونسج الغزل الرفيع نوعا ما ، بدل نسج الدفية والبشت والحرام والحمل .

ونفذ مشروع محدود اسلفيات صغيرة بلا فائدة ، على سنة أو سنتين تعتبر رؤوس أموال للأرامل ذات الأولاد ، فى تجارات صغيرة ..

وفى كفاية الغذاء وتعويض نقصه كان استعمال المواسم الدينية فى ذلك ، كموسم الصوم ، والانتفاع بمعنويته فى اثارة شعور الواجدين ، ليبذلوا اذ ذاك طعام فرد ، فدية أو منحة ، أو يعطوا مايزيد عن ذلك حسب درجة شعورهم ..

ومن العمل لكفاية الغذاء انشاء ابراج للحمام ، يباع من حمامها للأهالى بسعر رخيص ، على ان يذبح لهم ما يشترونه لئلا يتجروا به ..

ومن ذلك انشاء منحل يبيعهم العسل بثمن معتدل ، ربما وصل الى النصف ..

ومن الطيب فى كفاية الغذاء تربية نوع السمك يسمى (المبروك) يتغذى على البعوض ، فيفيد صحيا ، وينمو نموا سريعا ، ويتولد كثيرا ، حتى يغل الفدان منه أكثر من ثلاثين جنيها ، وهو علاج مؤقت للبرك اذا تعذر ردمها ، فيمكن زيادة مائها ونقل هذا السمك اليها ..

كل هذه وسواها من ـ المشروعات لسد باب الريح ، أى للطب الوقائى ، تحمل تفصيلاتها مجالس الجمعية العمومية (لحياة القرية) ، ويحتفظ الممارسون لذلك نتائج التجارب ، ومواضـــع الحروق التى لم تسد ... (١)

★★★

هذه تجربة خيرة كبيرة تحدد مجالا من المجالات العديدة التى أخلص لها الأستاذ الخولى فكره وجهده ، وتصور لنا قوة اخلاص هـــذا الرجل للأرض التى نمته وشدة ارتباطه بهـــا ، حتى أصبحت مصريته أقوى نشيد ذابت الحانه المقدسة فى كيانه مع كل نسمة وكل شربة وكل لقمة ، وانطلقت على لسانه أغاريد فى كل محفل وكل كتاب ..

★★★

واذا نحن أصغينا الى الأحاديث التى أذاعها ما بين سنتى ١٩٣٧ ـ ١٩٥٢ ، يتجلى لنا تعمق هذا الرجل مشكلات بلادنا ، بل أمتنا ، وقدرته على ايجاد حلول لهذه المشكلات ، وخبراته فى عرض هـــذه الحلول ، متخـــذا من الهـــدى القرآنى ، ومن القيم الروحيـــة ، والمثـــل الاسـلامية ، زاده الـــكبير ، وحججه التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها تنزيل من حكيم حميد ...

ولصلته بالاذاعة قصة ... فهو يقول عن نفسه :

(طلبت ـ الاذاعة ـ الى أحد الأساتذة الجـامعيين عـــام ١٩٣٨ أن يذيع ، فكان جوابه :

---

(١) المصرى فى ١٩٥٣/٨/٨ .

أنا .. أنا .. لايمكن ان احط وشى فى المحيط ، واقول :
توت بأى ثمن .

ولأمر ما الحت الاذاعة طوال أشهر على هذا الأستاذ أن يذيع فاشترط لذلك الا يذيع الا احاديث تناسب مايتمثله العارفون لمستوى الأستاذ الجامعى وما يصح أن يسمع منه ، وينسب اليه وقبل أصحاب الأمر ذلك ، ومضى الأستاذ يذيع سنوات ، كثر ما طلب خلالها أن يعفى من التحدث لأنه شاعر بغربته بين ما يقال ويعاد . فلم يعفه القوم حينذاك ، بل قالوا : لو كنت تذيع لخمسة أشخاص فقط لكان ذلك عندنا كافيا ..

وشعرت الصفوة المثقفة من أحاديثه بما شعرت ، حتى كتب اليه احد أعلام القانونيين ما معناه ، لقد مضيت افهمك بأذنى شهورا ، شعرت بعدها بضرورة أن افهمك بعينى .. اى ان يقراه ، ولا يكتفى سماعه ..) (١)

السلم ..

كانت نذر الحرب سنة ١٩٣٧ مما يدعو الى اتخاذ السلم مجالا للتحدث الى الجماهير ، لأنه ارادتها وخيرها ، ولما كانت هذه الأحاديث تدور حول شعار الاسلام (السلام عليكم) فقد بين لنا الأستاذ الخولى فى حديثه الأول (السلام تحية البشرية وشعار هذه الأمة) انه يريد التحدث (عن الحياة الفاضلة الخيرة كما يرسمها القرآن الكريم) .. ورسم لنا هدفه من هذه الاحاديث بقوله :

---

(١) الأدب — يونيو عام ١٩٥٧ (فى الاذاعة .. ذكريات) وتاريخ اتصاله بالاذاعة اختلف تحديده فى أكثر من كتاب بين عام ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ولعله اواخر عام ١٩٣٧ .

(نريد لنتفهم أغراض القرآن البعيدة ، ومراميه السـامية ، فلا نكتفى بالفهم السطحى لمعانيه ، ولا بالتفسير البسيط لمفرداته ، لأن لهـذا الكتاب المعجز مغازى حكيمة فى اختيار اللفظة ، وتأليف الجملة .. على أنا لن نأخذ فى ذلك ان شاء الله الا بما تحسه الفطرة النقيـة ، وتجـده النفس الحسـاسة ، من قرب ، وفى سهوله . لن نأخـذ بشىء من التلطف ، ولن نقصـد الى شىء من الاغراب أبدا) (١) ..

وعلى هذا النهج بين لنا الاستاذ الخولى (كيف راض القرآن الحياة ؟ كيف دبر لها طريق الوصول الى غايتها السليمة التى أحبها لها ، ومناها بها ؟ وسبيل معرفتها لطريقة القرآن ، فى سياسة الحياة وتنظيمهـا ، أن نعرف أولا : كيف أفهم القرآن اهله تلك الحياة ؟ كيف دلهم على طريق النجاح فيها ؟) (٢)

كما بين لنا أن ما حاوله من التحدث عن القرآن ، وما عرض له من موضوعات ، وما تناوله من أسلوب :

(ليس قريب المراجع ولا موفور المصادر ، ولا يسير الشأن على أنا ، بل هو كاد مجهد .. ولكن ، لماذا أحاول هذا مادام شأنه كذلك عند عامة الناس ، ومادام غير ممهد ولا مقرب لى ؟ لا أتردد حينما أجيب عن هـذا السؤال فى أن أقول جهرة ، وبكل صراحة ، انما يدفعنى الى ذلك ان الثقافة الدينية الاسلامية فى

(١) الجنديه والسلم .. واقع ومثال ـ دار المعرفة عام ١٩٦٠ ـ ص ١١٣ (مع تصرف يسير) .

(٢) المصدر السابق ـ صفحة ١٢٧

مصر ــ بل في العالم الاسلامي كله ــ تحتــاج الى مثــل هــذه المحاولة) (١) ..

وفى حديثه عن السلام شعارا أورد رأى المحدثين والقدامى وتعرف على احساس اللغة بلفظ السلام ،ونظر فيمــا يوحيــه اســتعمال القرآن الكريم للفظ الســلام ، والاحساس الذى يريد الاسلام أن يؤصله فى قلوب المســلمين حين يورد هذه اللفظة ، وحين يؤدبهم بهذا الادب ..

(هذا الاسلام الذى لقى الاعتداء بالاعتداء ، فامر بالقتــال حتى لا تكون فتنــة ويكون الدين كله لله ، هو هو الذى يهــدى من اتبع رضوانه سبل السلام ، وهو الذى جعل السلام شعار هــذه الأمة) (٢) واتخذ الرحمة الوجه الثانى للســلام شــعارا آخر ، فالقرآن (بدؤه كل عمل بالرحمــة ، وهو بكل أولئك يغرى الانســان بالســلام والرحمــة ، ويهتف به ليسمو الى ذلك فى فهم صحيح للواقع وادراك دقيق لحاجة الحياة الحياة) (٣) .. و (ان النظرة الفاحصة لهذا القرآن لتدلنا على أنه يصرح أن الحيــاة منظمة بنواميس عملية ، مضبوطة بنظم واقعية خارجية . والنجاح فيها ، والظفر بخيرها ، والنصر فى جهادها ، انمــا هو مرهــون بعمــل العامل الخارجى ، مترتب على كفــاحه الفعــلى ، رتبط بادراكه الصحيح بواقع الأشياء الكونية ، وتقديره السليم لنظم هــذا العــالم وتدبيراته) (٤) .. ومن ثم فــان (التأليف بين

---

(١) الجندية والسلم ــ صفحة ١٢١

(٢) المصدر السابق ــ صفحة ١١٩

(٣) نفسه ــ صفحة ١٢٦ .

(٤) نفسه صفحة ١٢٧ .

قضيتي السلم والحرب تأتلف الشخصية الصالحة في نظر القرآن فتكون رجولة حازمة ، عزيزة الجانب ، موفورة القوة ، كاملة العدة ، تامة اليقظة ، صحيحة الشعور بما حولها من واقع الحياة ، صامدة الابتلاء ، على أن تحمل قلبا نقيا تقيا ، قوى الاحساس دقيق الشعور ، خيرا انسانيا ، طامحا لروحانية سامية ، يلقى الجاهلين بالسلام — ما استطاع — محبا للسلام ، داعيا له دعوة القرآن الى دار السلام) ، حتى يحقق سعادة البشرية ..

القادة الرسل ..

فلما اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، واشتدت ضراوتها ، وأصاب مصر منها في الزعماء أكثر مما أصابها في الأنفس والأموال ، وتكاثف الضباب ، وانبهم الطريق ، وحار الرعاة بين سالك الى الحكم بدبابات الانجليز ، وداع الى الاستقلال تحت راية الألمان ، ومعلن حربا لا يملك من مقدراتها الا لفظ الاعلان ..

لما كانت الامور من النزق والطيش والتخبط بحيث سارت الجماهير تهتف (لروميل) أن يدق أبواب مصر ، وعلى أعدائي — احس الأستاذ الخولى أن مصيبتنا في قادتنا ، فلو قاد هذا الشعب المضيع قائد مكتمل أسباب القيادة الحازمة الرشيدة الأبية لكشف عن الجوهر الحر الأصيل لهذا الشعب العريق ، وبصره بما يملك من قيم ومناهج لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وخطا به الخطوة الصحيحة الى الخلاص والنصر ، دون أن يستبدل جلادا بجلاد ..

ومن ثم التمس في أحاديثه — ما بين ١٩٤١ — ١٩٤٢ —

هدى القرآن فى تقدير قيم الأشخاص والأشياء والأعمال ، ووزن البواعث والغايات التى ينبعث الناس بها فى حياتهم ، ويصدرون عنها فى تصرفهم ، ويرمون اليها فى سلوكهم ، ويجعلونها هدفهم فى سعيهم .. فقد اضطربت فى ذلك الأهواء ولاذ الناس فى تقديرهم وتأثرهم بأحكام ومذاهب أبت الا أن تقيس كل مافى الوجود بالعروض والنقود (١) ..

وان الانسانية ما خطت خطوة واحدة فى سبيل رقيها الا على يد أولئك الذين استهوتهم اللذائذ الراقية ، فنسوا أنفسهم ، وسعدوا بخير من حولهم (٢) ..

بعد ان تمثلوا بالسلوك القرآنى النبيل (ان أجرى الا على الله) .. (لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) .. (ان هو الا ذكر للعالمين) فلا تكالب على خزائن الدولة ، دون تصنيع ولا استثمار .. ولا ارتماء فى أحضان الأعداء ، دون خجل أو استحياء .. ولا تمرغ فى سبيل الألقاب ، تأخذهم العزة بالاثم ، والتفاخر بباطل من القول وزور ..

فى رمضان ...

وخلال ثمانية عشر عاما (١٩٤١ — ١٩٥٨) كان للاستاذ الخولى أحاديث فى رمضان عن رمضان ، يتقبلها أولئك الذين لا يعرفون الطريق الى المعابد ، يحسبون انهم شبوا عن التلقين الايحائى ، وجاوزوا دور الغيبية المقلدة ، وفاتوا طور السذاجة

(١) القادة الرسل ط دار المعرفة سنة ١٩٥٩ — ص ١٤

(٢) المصدر السابق — صفحة ٢٢ .

التى تنومها الترنيمات البدائية ، فى عباراتها الزخرفية الخاوية المحنطة)) (١) ..

وقد قال فى فلسفة الجوع بعدما فند آراء الفقهاء والمتصوفة فيما جاء فى القرآن ربطا بين الجوع والحرمان والتهديد ، وبين الاطعام والانعام والمن .

(ان هذا الجوع ليس مخ الصوم نفسه ، وليس من الصواب أن يكون الجوع طابع الصوم الظاهر عند المتكلمين فى الحكمة وفضل الصوم .. وحبذا الصوم امساكا عن جميع الأهواء والأخطاء والعوائد الواهمة ، والفاسدة ، ليكون الصوم رياضة مصلحة للنفوس ، مجدية على الفرد والجماعة ، مروضة على مالا يسهل الارتياض عليه فى سائر الأوقات ، لضعف ، أو اهمال ، أو عدم رقابة .. فيكون رمضان وسيلة الى التقوى التى رجاها القرآن وختم بها آية هذا الفرض ، (كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون) (٢) .. .

ان هذه المشقة ــ مشقة الصوم ــ لاتراد لذاتها أبدا ، وانما هى تدريب للقادرين الواعين المكلفين ، المستفيدين منها ، فاما صوم ترجى معه التقوى ، فهو يصلح النفوس ، ولا يفسد الاجسام ــ ، وأما لا .. ــ (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٣) ..

أليس هذاالموسم السنوى للصوم هو الذى ربطت به الضريبة

---

(١) فى رمضان ــ ط دار المعرفة سنة ١٩٦١ م ــ ص ٥

(٢) المصدر السابق ــ ص ٤٧

(٣) نفسه ــ ص ٨٤

الثانية من ضرائب الأخذ فى الاسـلام ، من الواجد ، لاعطـاء الفاقد الا وهى صدقة الفطر ، بعد زكاة المال ؟ ..

من أجل ذلك كله ــ مما يضيق عنه الوقت والقول ــ اشعر أن الهدف الاجتماعى لهذا التدبير التعبدى فى رمضان ، أنه موسـم خير ، يقام سنويا لعلاج مشكلة الفوارق ، وتذليل مصاعبها (١) ٠

لذلك ·· أدعو الى أن يكون رمضان فى هذا الشرق موسم خير سنوى ، يدبر له التدبير الناشط الذى يرده موسما ناجحا ، بعيد الأثر فى حياة جماعة ناهضة ، تلتمس القوة والعزة ..

وكذلك دعوت من قبل الى أن يكون احتفالنا بمولد الرسول عليه السلام عملا شاملا ، فنجعل يوم المولد هو يوم اليتيم ،وعيد اليتامى ، حتى ليعتمد المصلحون العاملون عليه فى حل مشـكلات اليتامى (٢) ··

فى أموالهم ... مثالية .. لا مذهبية ..

وفصول هذا الكتـاب أحاديث اذاعة تباعدت سـنوها ــ ١٩٤٤ ــ ١٩٥٢ ــ فشغلت نحـو ثمـانى سنوات ، واتحـدت فيها الفكرة ، وثبتت الخطة ، واتصل التنبه .

لم يمسسها تغيير ولا تبديل ، الا شىء من وصل النص بعبارة أو بعض عبارة ، يكون قد محل لونها فى الصورة المكتوبة بالكوبيا ، أو لم تدق وقتها ، أو قد غيرها مر الليالى والأيام ..

واحتفظت هذه الفصول من خصـائص الحـديث بشىء او

---

(١) فى رمضان ــ ص ٥٥

(٢) المصدر السابق ــ ص ٦٣

أشياء في عبارتها ، مثل : معاودة التلخيص لما سبق ، وربطا للموضوع وتثبيتا للمعنى • ومثل التوسع فى التعبير ، لئلا يفجأ الايجاز من يصغى الى الحديث ، فيضيع عليه شيئا من المعنى ، يفلته ، تعبير لم يلاحقه ..

وما حذفت منه شيئا الا هتافات بالمستمعين تحية ولفتا ، لم أر ضرورة لتوجيهها الى القارىء المستجمع النشاط .. (١)

والمقدمة تشير الى سبق الاستاذ الخولى بالدعوة الى ضرورة العلاج الاجتماعى ، على (أن يؤخذ الناس بالنظم التى تجعل فى المال تلك الحقوق المعلومة التى أساسها : أن المال فى خزانة الله وانهم ينفقون مما جعلهم مستخلفين فيه ، ويؤتون من مال الله الذى أتاهم .. (٢)

ولكنه مع ذلك يستنكر أن (يدخل -- القرآن -- بذلك فى مشكلات اقتصادية ومذهبيات اجتماعية ، يزيد بها الآراء رأيا ، والمذاهب مذهبا ، ويدعنا فى حيرة لانعرف الأصوب والأصلح (٣) •

ويبين أن القرآن (يتناول الكليات والمبادىء ، لا الجزئيات والفروع) ويجب أن يفهم (الاعجاز القرآنى فهما منضبطا محدودا مرتهنا بالدلالة اللغوية الواضحة فى تطور معانى الكلمة العربية ، ثم بالايحاء الفنى للفظ الذى تحددت دلالته الأولى ، فحددت معانيه الثانية ، وبما قرر السياق القرآنى من أصل المعانى وكل ذلك يثبت للاسلام فى تدبير الاموال مثالية أوسع أفقا وأفسح فهما ، وأسمى

---

(١) صفحة ك من مقدمة فى أموالهم -- ط دار المعرفة سنة ١٩٦٣ •

(٢) صفحة ح

(٣) صفحة م

الانسانية ، من كل ما عرفت هذه البشرية من حقوق افرادها وكرامة أبنائها) (١) ٠

وان كان الاسلام (بأصوله الواضحة ، الصريحة ، الكافية ، الشاملة ، يمنح هذه الاشتراكية قبولا واعترافا) (٢) ٠٠

(ولو أجملت خطة الهدى القرآنى فى مشكلة المال وغيرها من مشكلات الحياة لاستطعت أن تردها الى معينين ، هما :

(أ) تجربة دقيقة دائبة للحياة ، لمعرفة واقعها ، بعقل طليق ، ودرس دقيق مستفيد من كل مايعرف فى الدنيا .

(ب) شعور انسانى عميق رقيق ، يثيره وجدان متدين حساس ، يجد ما تحسه البشرية فى أقصى أرجاء الكون) ٠

فالقرآن يحرص أول ما يحرص على أن يترك للعقل حريته كلها ، فى مواجهة مشكلات الحياة وواقعاتها .. وذلك بأنه يترك للمصلحة الواقعية الكلمة كلها ، ويدع للتجربة الفرصة كلها ٠٠

وأساس ذلك كله أنه لا يقدم تفصيلا جزئيا لمشكلة من المشكلات ، كمشكلة التملك أو غيرها ، على حين لا يرفض من قول التجربة الصادقة ، وما تقضى به المصلحة الحقة رأيا ، بل يتلقى ذلك كله، فى رحابة صدر ، تقدر التطور، وتقدر ما يجد للناس، من شئون تتغير على الأيام ، وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، فلا يحدها

---

(١) صفحة س

(٢) صفحة ٩ ٠

تفكير عصر معين ، ولا يوقفها تحديد عقل بذاته ، فى مستوى محدود ، ولا يعوقها الا يكون السابقون ممن فسروا الدين ، أو مارسوا التشريع ، لم يشعروا بها ، ولم تحتج اليها حياتهم فى عصرهم ..

ويحسن كل الاحسان في أن يجعل التدين ، والتأليه ، والمسئولية الآخرة عوامل فعالة فى احياء الضمير ، وتقوية الاحساس بالخير والكرامة ، وتأسيس الشعور بالمسئولية على المراقبة الداخلية والرضا النفسي (١) ..

فأصحاب القرآن بهذا كله ، يدركون أن هذا الهدى الخالد قد عرف للبشرية حبها للتمليك ، فأرضاها لونا من الارضاء ، يوفر ثقتها بما يوجهها اليه فى تعلية هذه الغريزة ..

والقرآن حين يقصد الى تعلية غريزة التمليك ، وتوجيهها ، لم يعمد قط الى هذا القمع الكابت ، فلم يجعل المال لعنة ، ولا الغنى خطيئة ، ولا طرد الغني من ملكوت الله . ولا وجه الى الزهد المنقطع عن الحياة ..

(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة الآية) ... (٢)

وهو كدابه الذى أنسناه منه يجمع لين الواقعية والمثالية فى ذلك التدبير جمعا لبقا مرنا ، مسايرا للحياة ، مهيئا للانسانية أسمى ما تستطيع التطلع اليه من المثال ..

---

(١) فى أموالهم — ص ٨
(٢) ص ٢٦ فى أموالهم — ص ٢٦ .

فهو حين يحمى الملكية الفردية واقعى ، لا يفجأ الناس بتجريدهم من أموالهم تجريدا يفتر همتهم ، ويثنى عزائمهم ، ويقعدهم فلا يبتكرون ، ولا يجددون ولا يذودون عن حماهم ..

ثم هو حين يهز أسس هذه الملكية الخاصة ، بما رايناه ، يكون مثاليا ، يكف من غلواء الأغنياء ، ويزلزل صلتهم بأموالهم ، ويجعلها للناس جميعا ، هم عليها أمناء مستخلفون وهى مال الله لا مالهم .

(وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم .. (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) .

بهذا التعديل الدينى الأساس السماوى الصبغة ، الالهى الروح ، يوقيهم أخطار الجموح فى التملك ، والوصول اليه بأى وسيلة واهدار الخلق والفضيلة ، والاسرف فى التمتع ، ونسيان حق الجماعة ، أو حق الله الذى هو صاحب المال .. (١)

في مجلة الأدب ..

وتابع حملاته التطهيرية الاصلاحية فى مجلة (الأدب) ــ التى تحمل رسالة الفن والحياة كلما وجد الى ذلك سبيلا ..

فهو فى مقال (معالم) عدد اغسطس سنة ١٩٥٧ ــ يحمل على صحافتنا حملات قاسية متتابعة ، لأنها :

(سجدت لكل وثن ... وقربت لكل صنم ... ورقصت أمام كل زفة .. وهيأت للطغيان ، وخلقت الطغاة ، من الهيئات والأفراد .. تؤكد وتقسم على مارأى الناس رأى العين كذبه وزيفه وتحبذ وتمجد ما علم الناس علم اليقين خطأه وضرره ..

(١) المصدر السابق صفحة ٣٣

وتجـــد من الوجوه والالوان ما تلبس وتخلع بين طـــرفى نهار) ،..

ويقول فى حق الادب والأدباء على الدولة ـ نوفمبر سنة ١٩٥٧ :

(لا تشتر رقبتنا ـ يا سيدى ـ بما تذكر من المال ، وما تعد من الآلاف ، بعـد حرفة الأدب وبؤس الأدباء .. ان ما تعيرنا به منهذا لم يكن الا صـــدى لحال عامة بائســـة ووضـــع اجتماعى فاسد .. وكان فى الأدباء انفسهم من ناضل ضده وحارب معالنا، حين سكت من سواهم جميعا ..

،.. فدع عنى حديث المال الذى يشترى كل شىء ولا يستطيع ابدا أن يشترى شـــيئا من الفن ، الا بعد ان يموت فيه كل معنى من الفن) ..

وفى يناير سنة ١٩٥٨ يستنكر موقفنا من العلم وأن يكون كل جهدنا أن نصفق لنجاح الآخـــرين ، (كالأغوات تفرح بأولاد اسيادها) ..

وتحدث عن (نقائصنا) ـ مارس سنة ١٩٥٨ ـ فقال :

(نقائصنا جميعا من ارادة منحلة ، وخيرية ناضبة ، وتقدير للمسئولية معدوم ، وشعور بالوحدة مفقود ، وأنانية غالية ، ورجعية سائدة ، وما تعد ، ولا تحصى ، من آفاتنا ، لا ترجع ـ فيما نؤمن به حقا ـ الا لحرماننا من التربية الفنية) ..

واقترح ـ فى ابريل سنة ١٩٥٩ ـ أن يؤلف أهل الآديان جميعا (هيئة كعصبة الأمم التى كانت وقتها صوت التعاون بين الضمائر العـالمية على تخفيف آلام الانسانية التى ترزؤها بهـــا

السياسة والساسة .. واقترح أن تكون عصبة الأديان قوة متعاونة متفاهمة بين أهل الأديان فى كل مكان على منح الحياة كل ماتستطيع الحقائق الدينية الكبرى المشتركة فيهاجميعا أن تمنحها به راحة وسلاما وسعادة) ..

ثم تكلم — فى ديسمبر سنة ١٩٥٩ عن مقاييس تقديرنا — وبخاصة فى الجامعة — التى أصبحت حبرا على ورق :

... (ومقياس التقدير لقيمة الجهد النظرى ما اشترطته الجامعة منذ بعيد فى رسالة الدكتوراه وهو :

« يجب فى الرسالة ان تكون عملا ذا اهمية ، يشهد للطالب بابحاث شخصية ويأتى للعلم بفائدة محققة » .

لكن كلية الاداب منذ انشائها حتى سنة ١٩٣٢ لم تقدم فيها رسالة أدبية للدكتوراه ..

واذا الملك فؤاد يرغب فى زيارة الكلية ، وفى هذه الزيارة ينبغى أن يمنح الملك درجات جامعية ، ليتم المظهر التمثيلى فى ميدان الثقافة والعلم .. فما العمل ، وليس فى الجامعة درجة قد منحت منحا طبيعيا على أساس التقدير الصحيح والوقت ضيق؟!) ..

ويحكى من أحداث (الجامعة) ماليس من التقاليد الجامعية فى شىء ..

وبسبيل من حكامنا عن الجادة ، يتناول الأستاذ الخولى فبراير سنة ١٩٦٠ — لجان جائزة الدولة التشجيعية ... ويغلب على الظن أن التناول كان بخصوص كتاب المحاكاه لأرسطو ترجمة أستاذة جامعية ، وقد رشحه للجائزة الدكتور طه حسين ،

وعارض الأستاذ الخولى كل المعارضة ، لدرجة التهديد بنشر كل ما جرى فى الجلسة ، فلما قيل له ان الجلسة سرية ، ويجب الا يذاع ما يجرى فيها ، قال : ان اللجنة فقدت حرمتها بهذا العبث .. هكذا حكى أحد الثقات ..

ويعود الى جوائز الدولة مرة أخرى ـ ابريل سنة ١٩٦٠ ـ فيقول .

(أى تقويم هذا الذى يكتب فى سطر ونصف ، نصه : « حاول فى كثير من التوفيق أن يعرض اللغة العربية موضوعا ليس مألوفا فيها ، ولا سيما فى العصر الحديث » ؟! وهذا هو كل حيثيات الحكم بجائزة تشجيعية ... كثير من التوفيق .. وموضوع ليس مألوفا . . فاى حيثيات هذه ... وأى حكم ؟ ! .

والأمر فى الجوائز التقديرية أشد .. فالحيثيات كلام عام من صنف عجيب .. مثل ، فلان رجل فى أمة ، وأمة فى رجل !! وهو صاحب العلوم الاجتماعية لأنه عذب الحديث صافى العبارة !! وأدهش من ذلك أنه منطقى كأنها كانوا يخافون ألا ينتظم التفكير ويسلم !! ومن المدهش دهشتهم من آثار صاحب الأدب .. ولدهشتهم لم يبحثوا فى شىء بين القيمة الممتازة ، ونواحى الابتكار أو بحثوا وهم دهشون فكان النفع للوطن والانسانية هو تحبيب النشء فى ادبنا حتى يقولوا بدهشة ؟!

وأى نفع أعظم من أن يفطن النشء الى مزايا ميراثنا الأدبى ؟)

وبالضرورة .. فان انحراف النقد والتقويم عندنا يؤكد شدة حاجتنا الفنية ـ حتى نحمى وجودنا من الطغيان والفساد والبغاء الفكرى ـ الى (شخصية وجدانية .. واضحة الشعور بذاتها .. قادرة على التعبير عن نفسها) ..

وأقوى وسيلتنا الى ذلك ـ كما يقول فى يناير سنة ١٩٦١) ـ هو معلم لغة وأدب ، تكتمل له الشخصية الوجدانية ويتضح فيه المزاج الفنى ، ويستطيع التعبير عن ذاته) ٠

٠٠ذلك لأن السياسة (نوفمبر سنة ١٩٦١) ٠

(انما هى فى جملة أمرها ليست الا هوى محتكما تسانده قوه باطشة ، وما كانت الحياة من الهوان بحيث يضبطها هوى وتصدها قوة لا عقل لها .. فكيف بحكمتك هذه السياسة وأهلها ومذاهبها ، ودولها ، وأسرها ، وخططها وأساليبها مدار حياة ، ومفترق طرائق ، ومعالم تطور فى الفكر أو الفن ؟!) ٠٠

ثم يتناول مستقبل الاشتراكية ـ فبراير سنة ١٩٦٢ ـ بقوله :

(أحسب أن هذه الدعوة الاشتراكية التى انطلقت اليوم يكون بها التعادل وعندها التلاقى ، وفيها التسديد .. والصون والكبح .. وان لها فى ذلك لجولات فى الغد ، تقر الأمر ، وتصحح الوضع ، وتنفى الخبث ، وتذهب الزبد ٠٠ واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض) ٠ ٠

اما عن ولاية المرأة ـ اكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٢ ـ فيقول ،

((امرأة وزيرة خطوة تطور ، يجب أن يكون أصحاب (الفن والحياة أقدر الناس على فهمها ٠٠ وفلسفتها ٠٠ وتاريخها ، لانهم أدق الناس شعورا بما يكون حين تصبح المرأة وهى مهد الحياة مدبرة مع ذلك للحياة ، وتمسى المرأة ملاك الفن ورائدة فى ركب الفن والعلم والعمل) ..

وعلق على ما جاء فى الأهـــرام (١٩٦٤/٦/١٦) من تقرير لجنة الخطة والميزانية : (لا يسعنا الا أن نرفـع ايدينا ابتهـالا وامتنانا ، ونحنى هاماتنا شكرا وتقديسا) ـ بقوله :

(يامغيث .,. ابتهال .. وتقديس ، تحت قبة البرلمان !! فماذا تحت قبة الحسين ، والسيد البدوى وسيدى ابراهيم لهذا من تداعى المعانى جرى القلم بهذا العنوان عن ميكروب الوثنية .. فالوثنية الاجتماعية والسياسية ، كالوثنية الدينية ، اعتقادية وعبادية ، كلتاهما تجسيم ، وسطحية ، تعوزها الآفاق السامية ، والمعانى الكريمة ، فنلوذ بالشكليات والمادية ..

ولئن كانت الانسانية على طول التاريخ قد شقيت بالوثنية الاعتقادية وتفاهتها ، فانها لأشد شقاء بالوثنية الاجتماعية ، وانها لأعنف شقاء بالوثنية السياسية خاصة ، لأنها تفسد فى النفس كل مقومات الشخصية وكرامة الحرية) ..

وأراد الأستاذ الخولى السفر الى الخارج للعلاج ، بعدما أصبح(شيخا فوق السبعين ، أماته الطب هنا ، واقبره غير مرة .. فأحياءه الطب هنـاك وأنشره كل مرة .. ولو ســـمعت تشخيصهم هنا لفزعت وجزعت ، وحسبك أن كان منه السرطان فى الأمعاء ، وعليه جرى فيها ما جرى من التحـويل والقطـع ، والوصل ، بما لا يجرى فى تفصيل مواسير مياه .,. ووهم ذلك الشيخ على كبرته وخبرته وعلمه وتجربته أن الأفكار والمشـــاعر تســـوى بالخناجر والخواصر ، فراح يطلب ســـفرا ، بشـــهادة من الطب هناك ، ليظفر بشىء هنالك من احياء وانقاذ .. وأحيل الى مايسمى حتى اليوم القومسيون الطبى) .,. وجاء الشيخ خطاب القومسيون الطبى بان يحضر فى التاسعة صباحا ، فاذا

هو فى انتظار الاطباء حتى الواحدة .. واذا هو يصرخ فى بهــو القومسيون :

(لو كنت حمار سباخ ماعطله صاحبه أربع ساعات يشيل فيها .. ! غبيط).

وتذكر (اعلان المحكمة الذى يجىء دائما بطلب الحضور فى الساعة الثامنة صباحا .. وقد يكون رقم القضية مائة او مائة وخمسين ، لو حسب لكل واحدة منها دقيقتــان لما جــاء دور القضية المائة الا بعد أكثر من ثلاث ساعات .. لو حسبت فى مصر ١٠٠ محكمة فى كل واحدة ١٠٠ قضية لكانت عشرة آلاف ، فى كل قضية ٣ أشخاص ، فتكون ثلاثين ألفا فى أربع ساعات فتكون مائة وعشرين ألف ساعة فى يوم واحــد .. لو حسبت يوم العمل سبع ساعات لكانت ســبعة عشر ألف يوم ومائة يوم وكذا ، فاذا حسبت شهر العمل خمسة وعشرين يوما غير الاجازات ، فسنة العمل ٣٠٠ يوم ، فتكون هذه الآلاف من الأيام ٥٧ سنة من حياة عامل .. أو سنة من حياة ٧٥ عاملا ، من أبسط مستويات العمل الى أدقها ..

ولو حسبت أن فى المحاكم دوائر مختلفة ، يعمل منها اكثر من دائرة فى اليوم لتضاعفت السنون عن يوم واحد !! .

ولو حسبت أقسام البوليس وما فيهــا من طرائف ذلك لزادت الأضعاف أضعافا ..

ولو حسبت ١٠٠ مستشفى فقط يجرى فيها مثل هذا .. ولو حسبت ..ثم حسبته .. لكانت سنين من الاضاعة والاهدار والاخسار حين يرن الهاتف بشهر الانتاج ، والله يعلم بما وراء ذلك الهتاف !!) (١)

---

(١) شهر انتاج ، وسنين ماذا ؟ ـ الأدب ـ يولية سنة ١٩٦٥ .

مجلة الأدب

بعد أن فرغ الأستاذ الخولى من أعباء الوظيفة الحكومية ، ببلوغه سن الاحالة الى التقاعد ، جعل يعد العدة لاصدار مجلة (الأدب) تمتص فائض نشاطه ، وتكون لسان الأمناء .

(أمانة مؤداة .. ورسالة مبلغة .. تتعرف الأرواح ، تطهرها .. وتتنور الأفئدة تزكيها .. وتتلمس الأمزجة ، ترفهها فتهيىء بذلك أشخاصا كراما على نفوسهم .. لا يحيون الا حياة كريمة (١) ..

ومنذ العدد الأول ـ مارس سنة ١٩٥٦ ـ الذى حمل شعار زهرة اللوتس ، متوجة بهلال ، مكتوب فيها لفظ الأمناء تعرف القراء الى أهدافها .. فهى تؤمن بمكان الفن فى الحياة ، وتقدر واجبها فى سبيل النهضة الأدبية والفنية ..

تتمثل معانى الحياة ومعنوياتها ، فلا تعتز بغير رسالتها الفنية .. ولن ترتزق بالفن .. ولن تتكسب بالصحافة ، ولن تمد عينيها الى شىء ماوراء اهدافها الأدبية) (٢) ..

وظلت هذه الأهداف تعمق وتتسع ، مع عمق منزلتها من نفوس القراء ، واتساع مجالها فى تاريخ الصحافة الأدبية التى ابتذلتها تبعيتها ، ووقوعها تحت وطأة الارتزاق .

وبهذا الفهم الواعى لرسالتها فى الحياة ، ظلت (الأدب) ، (تشارك فى الحياة الفنية والأدبية مشاركة من يدرك فى وعى أن هذه الفنون ـ أدبا وغيره ، ليست الا تفسيرا وجدانيا للحياة يدركه صحاب الفنون ، ويقدمه نشاطهم ، ليواجهوا به الدنيا

---

(١) الأدب ـ مايو سنة ١٩٥٦

(٢) الأدب العدد الأول ـ مارس سنة ١٩٥٦ .

ويسيروا المجتمعات ، فى فهم واضح ، لسنة الحياة وقوانينها ، التى تحكمها وتطورها ، وتجددها وهى يقظة مفتحة العينين ، على المثل الذى تنشده ، والأمل الذى ترقبه ، وهى فى الوقت نفسه ترى ببصيرتها ما ضيها البعيد والقريب جميعا ، حين ترى حاضرها العميق الدقيق ، وصلة ما بينهما ، وتفاعلهما ، وتأثرهما —) (١)

.. وقد استطاعت خلال عشر سنوات أن تقدم لنا تقييما كاملا للفن ، والنقد ، وأن تضع الاسس السليمة لتحقيق التراث، وأن تفتح المجال أمام الكثيرين من الناشئين الذين استحصدت أقلامهم اليوم .. وقد حفلت بدراسات هادفة الى تعقيد القيم الأدبية وتأصيل المناهج .. المسرحية عند ارسطو .. الوحدة الفنية فى الشعر .. التقاليد والموهبة الفردية لاليوت .. تفسير حيوى لتطور الادب .. مقالات فى النقد الادبى لاليوت .. اصلاح النحو ·· من وثائق التاريخ الادبى ·· المثل الشعبى ·· الشرق الأدنى فى الأدب الفرنسى ··

وخصصت أعدادا للنقد الأدبى والشعر ، والدراسات الأدبية من خلال طه حسين ، والدراسات الشعبية من خلال بيرم التونسى ..

هذا ·· وتطالعك أعدادها بأقلام الدارسين ، أمين الخولى وبنت الشاطىء والأهوانى وعز الدين اسماعيل وجابر الحينى وعبد الله خورشيد ومحمد كامل حسين ومحمد مصطفى بدوى ويعقوب عبد النبى ومحمد صقر خفاجة ونقولا يوسف وسهير القلماوى وأمين عبد المجيد ونور شريف وشكرى عياد

---

(١) يناير سنة ١٩٦٢ — ازمّزا ولا ازهر .

وبثينة عبد الحميد وعبد الحميد يونس وعدنان بن ذريل ومحمد أبو سنه ..

ومن كتاب القصة عبدالغفار مكاوى وعبد الرحمن فهمى وفاروق خورشيد وفاضل السباعى وحسن محسب ومحمد المندى ومصطفى الأسمر وعبد الله خورشيد ومحمد الخضرى عبد الحميد وفخرى فايد ..

ومن الشعراء فتحى سعيد ومحمد عفيفى مطر ورجب البيومى ونجيب الكيلانى وأحمد كمال زكى وصلاح عبد الصبور ومحمد ابراهيم الديب ومحيى الدين عطية وعبد المنعم عواد يوسف وابراهيم حماد وعلى حسن العزب وانس داود وعبده بدوى ومحمد الفقى وعلى الشباسى والبيلى عبد الحميد ويس الفيل ومحمد الفيتورى وتاج السر الحسن واسماعيل عماره وكامل سعفان ..

ومن المترجمين عبد الغفار مكاوى ومحمد عبد الله الشفقى وامين عبد المجيد ومصطفى الصاوى الجوينى وماهر شفيق فريد ..

فضلا على نقد الكتب لبنت الشاطىء وتوفيق حنا وعلاء الدين وحيد وحبيب الزحلاوى .. واصداء أدبية لعبد المنعم شميس ومذكرات لكامل سعفان وشعر شعبى لحامد الأطمس ..

واهتمت المجلة بتقديم صور مصرية خالدة من القديم والحديث ، اذ (الاحاطة بما يحتويه العمل الفنى لاتتيسر عن طريق الوصف لأن العمل الفنى نفسه هو الوصف الوحيد الممكن لما يحتويه) ..

ومن يطالع مجلة (الأدب) لابد وان يؤاخذ بالحاح الرائد الشيخ على تبيان مفهوم الفن والنقد ، واللفت الى أهمية التراث

حتى ليخيل اليه أن هدف المجلة هو هذا دون سواه .. بل ان اهداف المجلة — التى سبق بيانها — لاتكاد تخرج عن هذا الاطار (الأمين) ، وما عداه ليس الا صادرا عنه ، تابعا لـه ، مطبقـا عليه ..

ولو استطاع باحث ان يتناول هـذه المجلـة بالدراسـة لاستطاع — من خلال تتبعه لاهتمام المجلة بالناشـئة فى البريـد الأدبى ، وفى التعقيبات على ما يصلها من الشعر والقصة والدراسات — أن يقدم لنا منهجا صحيحا للتقويم والتقييم ، منبعثا عن نفس شفة غنية رحبة ..

فاذا عرفنا أن هـذا البريد كان يشغل من اهتمام الاستاذ الخولى ومن وقته وجهـده ما كان يوفر له امكانية تقديم أضعاف ما قدم للمكتبـة العربية — أدركنا أن نزعة (الشيخ) التعليمية وعاطفته التربوية ، كانتا فوق ماتحمل شيوخته ، فأجهدها أشد الأجهاد ، حتى سقط فى الميدان ، يحمل قلمه الناصـح الشباه ، يغرسها فى قلبه ، ويكتب للناس من فيض حبه ومن يره يحسبه ابعد الرجال عن العياء ، وهو ينوء بأعباء وأعباء ، من داخل جسمه وخارجه .

ومن ذلك ، فالعدد الأخير من (الأدب) يقدم بداية سلسلة مقالات عن مناهج الدراسات الادبية ، والمطبعة تعلن عن عدة كتب فى طريقهـا الى القـراء ، وما هى رءوس موضـوعات فى رأس (شيخ الأمناء) ..

وأسلم (الشيخ الوديعة لبارئها ، بعد ظهر الاربعاء التاسع من مارس سنة ١٩٦٦ ، عن واحد وسبعين عـاما ، ولما يجف المداد عن آخر ما كتب للخلود ..

فهـــرس

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٥٠١٦

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠١١٨ ـ ٤

هذا الكتاب :

كان الأستاذ أمين الخولى أحد هؤلاء المفكرين الذين عبروا البحر إلى أوربا واتصلوا بعياناتها المتجددة . وظل على اتصال دائم بما يجرى فى مصر من مظاهر التجديد وما يدور بين المجددين والمحافظين .. من جدل .

ولقد كان يستغرق فى الجدل استغراق الفلاسفة . وينفذ به إلى القضايا المطروحة فيدلف إلى جوهرها ويحتويها بثاقب فكره . ولقد رفده تياران كبيران . تيار الثقافة العربية الأصيلة وثقافة الغرب . فامتزجا نسيجا فكريا متسقا ينظر به إلى قضايا البحث والدرس الفكرى . ولقد تعامل مع التراث ـ شغله الفكرى ـ فبين مدى حاجته إلى ما وصل إليه الفكر الانسانى من علم ومعرفة حتى يؤتى ثماره ويظل على مدى الدهر قادرا على الحياة والنماء .

ولقد صنع بهذا التفكير العلمى مدرسة فى البحث والدرس الدينى والأدبى .. مدرسة لها تقاليدها الفكرية وأسسها المرسومة . وأعلامها فقلبت التربة وبذرت البذور وفاضت بالثمار .

مطابع الهيئة ا...

١٩٥ قرشـاً